

AIDA Ali NAJJAR

القدس والبنت الشلبية

الدكتورة عايدة النجار



القدس والبنت الشلبية

الدكتورة عايدة النجار

الطبعة الثانية – ٢٠١٢

القدس والبنت الشلبية

المواصفات: المرأة/التاريخ الاجتماعي/القدس/التاريخ

المؤلفة: د. عايدة النجار

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

٢٠١٠/١٠/٣٩٣٧

النجار، عايدة علي اسماعيل،

٢٠١٠/١٠/٠١٠:٣٩٣٧

عدد الصفحات (٣٧٦) صفحة

صورة الغلاف: ارشيفية، بنات مدرسة الشميت، القدس (١٩٤٥)

التصميم الفني: د. عايدة النجار وإحسان حسين

الطباعة: المطبعة الوطنية – الاردن



السلوى للدراسات والنشر – عمان

ص.ب ١٢١٧ عمان ١١١١٨ ، الأردن

تلفاكس ٩٦٢٦٤٦٤١١٣٢+

البريد الالكتروني tag@alsalwabook.com

ISBN 978-9957-04-036-9 (ردمك)

المحتويات

إهداء

إلى روح أمي التي علمتني الحب والأحلام.

إلى بنات ورجال فلسطين في القدس وكل المدن والقرى وأينما وجدوا في الشتات.

إلى القدس "المكان" الذي يسكن في عيون وقلوب من أحبوها لتبقى "زهرة المدائن" التي يغني لها الناس في أنحاء المعمورة .

"يا مدينة السلام"

أهدي هذا الكتاب

د. عايدة النجار

مقدمة

للقدس مكانةٌ خاصةٌ في التاريخ، وعلى مرّ العصور، ولها منزلةٌ في الوجدان ليس لأهلها الفلسطينيين فحسب بل للكثيرين من أتباع الديانات السماوية في العالم الذين حجّوا إليها أو بقوا فيها، أو كتبوا عنها. وللقدس مكانةٌ خاصةٌ لمن ولد فيها من "المقادسة" أو زارها أو تعلّم في مدارسها أو تجوّل في شوارعها ورسم صوراً دائمة للمكان وناسه في الذاكرة.

ولهذه المدينة مشاعر قوية عميقة لديّ، لأنني وُلدت في أكنافها لفتا/القدس، وترعرعت في أحضانها في طفولتي، لعبت تحت أشجار التين والزيتون، زهر الرمان،والصبّار الذي يسيّج جواكير ريفه، وضحكت بصوت عال وأنا "أطير" في القدس العتيقة على المراجيح القريبة من المسجد الأقصى بفستان العيد "الزهري"، وأنا آكل "الكعك بسمسم"، وحلاوة العيد القاسية البيضاء، وأتذوق "شعر البنات" كعكبانيّ اللون. القدس جزء من وجداني وهويتي التي تحمل عادات وتقاليد الوطن والأهل، كما تحمل الذاكرة بدء حياة علمية غنيّة حيث فككت الحرف وأنشدت "موطني موطني" مع بنات مدرستي. درست في المرحلة المبكرة من طفولتي في مدرسة المأمونية الحكومية بباب الساهرة، حيث رددت وراء معلمتي "راس روس، دار دور" ليفتح الدرس الأول طريقا للغة عربية سليمة "لبنت" كما بقية أطفال القدس وفلسطين.

ظلت مكانة المكان في خاطري عميقة وقد نشأت في بيت حجري أبيض "مسمسم" جميل في لفتا/القدس، له درج خارجي تتسلقه شجرة ورد جوري أحمر، له رائحة نفاذة أخالها ما زالت تتحكم بحاسة الشم. وفي البيت شكلت رائحة "طبيخ" أمي و"خبز ستي" و"عرق" والدي و"ضحكات" أخي الوحداني بين سبع بنات صورة للعائلة، ظلت واضحة للمكان والإنسان. يعمّق هذه الصورة ما ارتبط بها في الجوار والحارة، من مكان وناس. وتمتد الصورة للأسواق العتيقة للقدس داخل السور وخارجه لترسم صورة المدينة التي لها خصوصيّة لا تضاهيها مدينة أخرى.

بالإضافة فالمدينة تحت الانتداب البريطاني كانت "عاصمة فلسطين" وهي الفترة الزمنية التي يتناولها الكتاب. وقد اخترتها لأنني عشت في القدس بعضاً من ذلك الزمن قبل أن نصبح لاجئين ١٩٤٨ ونرحل عن الدار والوطن، ونعيش في أمكنة أخرى حتى اليوم.في الكتاب أتجول في "المكان" القدس المدينة التي تتسع لتشمل أكناف القدس وأبعد في جغرافيتها الجميلة. واصطحب في جولتي هذه في المكان وبشكل خاص، المرأة الفلسطينية مع ناس المدينة. وقد أسميت نساء القدس وفلسطين "بالبنت الشلبية" أي الجميلة، وهي إحدى مفردات المقادسة التي يتميّزون باستعمال الكلمة ومعناها أكثر من غيرهم في المدن الأخرى، لتضفي خصوصية على "بنت القدس". وأما مفردة "البنت"، فتستعمل بالكتاب للتعبير عن "المرأة الفلسطينية" وبكل احترام، منذ أن كانت طفلة صغيرة إلى أن أصبحت امرأة ناضجة لها دور في الحياة المقدسية أو الفلسطينية، بشكل عام، وكجزء من "ناس المدينة" من رجال ونساء.

الكتاب يتناول المدينة "وحياة ناسها" في فترة زمنية محدّدة لها خصوصيتها في تاريخ القدس الاجتماعي، أفرزته المرحلة السياسية للانتداب البريطاني على فلسطين (١٩٢٠–١٩٤٨)، وفيه امتداد لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية للناس في العهد العثماني الطويل الذي سبقه وانتهى بانتهاء الحرب العالمية الأولى. وكانت بريطانيا قد أبرمت عدة اتفاقيات ضد المصالح العربية، منها اتفاقية سايكس بيكو (١٩١٦) لتنكث فيها الوعد الذي قطعته على نفسها للعرب، بمنحهم الاستقلال التام مقابل الوقوف إلى جانبها في الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية. بالإضافة فقد صكت بريطانيا ١٩١٧ (وعد بلفور)، الذي منح الصهيونية وعداً غير شرعي لإقامة "وطن قومي" لليهود في فلسطين، قامت بتنفيذه مع الحركة الصهيونية العالمية منذ عام (١٩٢٠) وحتى قبل موافقة عصبة الأمم المتحدة رسمياً عليه بتاريخ ٢٤ يوليو ١٩٢٢. واستطاعت الصهيونية خداع الرأي العام اليهودي والعالمي أن فلسطين "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" وبهذه المقولة الخاطئة، تنكرت إسرائيل لوجود أهل فلسطين في التاريخ، في المدن والقرى والأرض.

منذ عام النكبة ١٩٤٨، تمكّنت إسرائيل من الاستيلاء على مزيد من الأراضي العربية والمدن والقرى التي هجّرت أهلها بعد تدميرها. كما قامت بتهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين ليصبحوا لاجئين يعيشون في الشتات، أو تحت الاحتلال الإسرائيلي، بعد أن احتلت جزءاً من القدس التي سُميت "القدس الغربية". وفي عام ١٩٦٧ اندلعت حرب حزيران، وأكملت إسرائيل احتلال القدس التي سميت "بالشرقية" بما فيها البلدة القديمة داخل السور. ومنذ ذلك التاريخ وهي تقوم بعمليات لتهويد المدينة وتوسيع حدود بلدية القدس وتوحيدها مع "القدس الغربية" لتصبح بكاملها تحت الاحتلال الإسرائيلي مع بقية الضفة الغربية. وفي عام ١٩٨٠ قامت إسرائيل بإصدار قانون لاعتبار القدس "العاصمة الأبدية للدولة اليهودية"، دون احترام لأية قوانين أو شرائع دولية.

يتزامن إصدار هذا الكتاب مع استمرار الممارسات الإسرائيلية بالاعتداء على الممتلكات العربية وطرد أهل القدس وتفريغها من أهلها المسلمين والمسيحيين وتغيير معالم المدينة، وإقامة المشاريع العمرانية اليهودية على أنقاض الآثار الإسلامية العربية. وتهدف من ذلك إلى طمس تاريخ المكان الذي عاشت فيه "البنت الشلبية" مع عائلتها وناسها في بيوت حجرية عتيقة وحديثة "دافئة"، وفي بيئة لها عادات وتقاليد وتراث وتاريخ شكل هوية الناس وشخصياتهم بسمات تنبع من المكان نفسه، منذ آلاف السنين. ومع ذلك لا يزال لأهل القدس من الشرائح الاجتماعية المختلفة، بما فيهم المرأة، وجود ودور وأحلام عن القدس وفلسطين، وحياة مكانها وناسها كما يسترجعها هذا الكتاب. فحياتهم كانت حافلة بالعمل والعطاء حيث ساهموا في صنع المدينة وحركتها وتاريخها وحضارتها العربية الإسلامية والمسيحية. وبهذا كذبوا مقولة الصهيونية أن فلسطين كانت "شعب بلا أرض لأرض بلا شعب". رغم وقوعهم تحت الاحتلال البغيض.

وفي الحقيقة، حظيت فلسطين وقضيتها بكم هائل من الكتابات السياسية التاريخية والدينية والدراسات والأبحاث العربية والأجنبية التي تناولت الموضوعات المتنوعة في العصور المتتالية، وفي المراحل التاريخية والتسلسل الزمني، بأساليب مختلفة. حيث أصبحت هذه الدراسات مراجع هامة وقيّمة

للباحثين والمتخصصين والمؤرخين. إلا أن الكتابات عن الحياة الاجتماعية اليومية وتفاعلاتها وتداخلاتها مع العادات والتقاليد والعوامل الأخرى، وخاصة حياة "الناس العاديين" ودورهم في "صنع المدينة" أو أكنافها لم تحظ بالاهتمام الكافي. فهي ما زالت قليلة رغم وجود الوثائق والمصادر لمثل هذا العمل، خاصة ما يتعلق بالمرأة الفلسطينية التي وُلدت وترعرعت في القدس. ولوحظ في الدراسات المتوفرة حول المرأة في تلك الفترة الزمنية أنها انصبت حول دورها النضالي المقاوم للتحالف الانجلوصهيوني قبل عام ١٩٤٨. بالإضافة للمراحل اللاحقة التي تختلف في طبيعتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية عن مرحلة زمن الانتداب التي يتناولها هذا الكتاب، وإن كانت قد أسّست لها ولظروف النكبة والتشرد والمعاناة تحت الاحتلال، التي يعيشها الشعب الفلسطيني حتى وقتنا الحاضر برجاله ونسائه.

كلي أمل أن يكون عملي هذا مساهمة من نوع جديد لسدّ بعض الفراغ في تناول التاريخ الاجتماعي لمدينة القدس وإحياء تفاصيل الحياة اليومية ورسم صورة نابضة، فيها حركة ونشاط وأحلام كانت "تتفاعل" في فلسطين من أجل مستقبل أفضل، لم يتحقق بسبب الاستعمار الجديد وممارساته لطمس الهوية.

الفصول الأربعة عشر التي يتألف منها الكتاب تسترجع صوراً لمدينة القدس بحاراتها وأزقتها وأسواقها ودُورها الحجرية داخل المدينة العتيقة وخارج أسوارها حيث المعالم العمرانية التاريخية الدينية والتراثية الإسلامية والمسيحية والأمكنة والمباني الفخمة والدور "والقصور القديمة" التي تحمل عناوين العائلات المقدسية. بالإضافة إلى ذلك تسترجع الفصول صوراً للأماكن الريفية المُكمّلة للمدينة والتي تمتد إلى أكناف القدس، وبساتينها وحياة الناس فيها وعلاقات القرية مع المدينة وناسها. وتُسلط الضوء على الملابس في المدينة التي تغيّرت مع الزمن بالإضافة لإلقاء الضوء على "الثوب" الفلاحي الذي "لم يتغير" ليظل رمزاً للتراث والهوية.

أما "البنت الشلبية" أو المرأة الفلسطينية، فيبدأ التركيز عليها بشكل مفصّل من الفصل الخامس وبشكل مُتداخل مع الفصول السابقة واللاحقة لتتناول المظاهر الاجتماعية مُنذ طفولة البنت والعادات والتقاليد والبيئة التي نشأت فيها، والمدارس التي تعلمت على مقاعدها، ودور المثقفين الفلسطينيين من الآباء والأمهات في نشأتها وتعليمها تحت ظروف اجتماعية تقليدية صعبة. ويبين فصل خاص (الفصل الحادي عشر) هذا الواقع تحت عنوان "حجاب بنات القدس أيام زمان"، ليقدم معلومات توثقها الصحافة التي تعتبر مرآة المجتمع من أصوات إيجابية وسلبية، عن ظاهرة اختفت لتعود اليوم بشكل آخر وزمن آخر، ولأسباب أخرى.

وتتابع الفصول التذكير بدور المرأة الفلسطينية بالأعمال الاجتماعية الخيرية ودورها في الحياة السياسية، والثقافية والأدبية والصحافية مع ذكر أسماء الرائدات والمبدعات وأعمالهن التي استحققن عليها لقب "البنت الشلبية"، كونها مارست هذا المفهوم بالعلم والعمل الإيجابي قبل أن تُقتلع من جذورها بعد ذلك.

اعتمدت في توثيق هذا العمل، على المراجع العامة كالكتب المنشورة والدراسات والوثائق

والأوراق الشخصية "الخاصة" غير المنشورة، بالإضافة للذاكرة الشفهية بإجراء عدد كبير من المقابلات لأهل القدس وبناتها، لاسترجاع صور وقصص مختزنة في الذاكرة، ومنها ذاكرتي الطفولية.أما الصور الفوتوغرافية في الكتاب، فهي أحد مصادر توثيق الكتاب التي اعتمدت عليها إلى جانب الوثائق الأخرى، رغم ندرتها وصعوبة الحصول عليها بسبب ضياع أكثر ممتلكات العائلات الفلسطينية في رحلة الشتات التي لم يتمكن الفلسطينيون من حملها، وفيها صور تنشر لأول مرة.

أود وقد انتهيت من إنجاز هذا العمل أن أقدم الشكر والتقدير لكل من شجعني وأمدني بمعلومات شفهية أو مكتوبة، أو صور لإثراء الكتاب، ولن أذكر الأسماء لكثرتها إلا أنها مذكورة في السرد بشكل أو آخر. وأيضاً أقدم شكري لمن قرأ المخطوطة ولتساعدني انطباعاتهم على المضي في العمل بثقة. وأخص بالذكر ابنة أخي الدكتورة ريما عارف النجار الأستاذة في جامعة القدس والأصدقاء الدكتور أحمد جميل عزم والدكتور نضال الشمالي، بالإضافة إلى جهد الشمالي في المراجعة وفهرسة الكتاب، ولا أنسى وصل الشكر والامتنان للصديقة سحر حسونة على صبرها وعملها المتقن في طباعة المخطوطة.

آمل أن أكون قد وفقت فيما هدفت إليه. ولعلي في عملي الجديد هذا أقوم بتعزيز ذاكرة "المكان والإنسان"، وأسترجع مع "الناس" صوراً وذكريات عن ناس المجتمع المقدسي، و"البنت الشلبية" لتظل حيّةً للأجيال القادمة، وخوفاً عليها من الضياع.

د. عايدة علي النجار
عمان-١٠|١٠|٢٠١٠

الفصل الأول

القدس



١

تبدو المدينة العتيقة داخل الأسوار سعيدة بحملها، فقد ظلّت تحمل ذاكرة من وُلد فيها أو سكنها أو زارها في رحلة استشراق أو رحلة سياحية أو حج دينية أو من سمع عنها من الناس أو بمن سجّل خصوصيتها في التاريخ. وتأتي هذه الخصوصية لأنها ليست ككل مدن العالم العتيقة فهي ما زالت حيّة وعناوين ناسها المحفورة على حجارتها تحفظ حياة أجداد صنعوا من المكان والحياة قيمة حضارية وإنسانية عمرها آلاف السنين. وقد نظر إليها الناس نظرات مختلفة، كما كانت مشاعرهم نحو المدينة التي عرفها العالم بأجمعه.

مدينة لها خصوصية

في القدس يستنشق الناس هواءً ممزوجاً بعبق التاريخ، وتحتضن العين والقلب حضارات متعددة الجمال والأنماط وطرز البناء. تسعد الذاكرة وهي تتجول بين صروح عمرانية، ومعابد، وزوايا دينية، ومدارس، وقصور، وأضرحة، وأحياء سكنية، وأحواش، وأسوار. ويشكل هذا التراث الحضاري والفني حقبات تاريخية مختلفة عاش فيها المقادسة منذ العصر الروماني والبيزنطي والأموي والصليبي والأيوبي والمملوكي والعثماني، ولذلك فلهم نظرتهم الخاصة لهذه المدينة كما لهم خصوصية تكاد تكون "هوية".

"المقادسة" بلهجتهم "الممطوطة" المميّزة "المرتاحة" دوماً يفاخرون أنهم وُلدوا في مدينة لا يضاهيها مكان آخر في العالم، وقد يكون لهم عذر، على هذا الغرور المحبّب فيقولون بلهجة "مدنية" مقدسيّة:

- أنا من الأودس ..... "القدس"

بينما يقول القروي.... بلهجته الفلاحية المميزة:

- أنا من قطا الكُدس أو من "القدس"

وكظا "الكُدس" هي القرى التي تعد أكثر من سبعين تترامى حول المدينة المقدسة، شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، لحمايتها من الطامعين "بالجميلة" "الشلبية".

بيوت القدس داخل البلدة القديمة تُطل على أماكن دينية سماوية، الإسلام والمسيحية واليهودية، يقطن الناس أزقتها التي تخترق الطرق إلى المسجد الأقصى المبارك، ومسجد قبة الصخرة المشرّفة وكنيسة القيامة المجيدة وغيرها من المعالم الدينية. وعلى صوت الآذان يهرع المسلمون للصلاة في المسجد الأقصى فجراً وظهراً وعصراً، ويسبّحون ليلاً. ويتبع المسيحيون رائحة البخور المنبعثة من كنيسة القيامة، حيث يتجهون ليصلوا يوم الأحد وأيام الأعياد، وأجراس الكنائس تعلو بقوة لتعانق أصوات المآذن التي تحيّي الناس على الصلاة والفلاح. ويعطي موسم الحج ومواسم الأعياد المبرر لأهل القدس بالغرور والفخر من مسلمين ومسيحيين، وهم يشاهدون أكتاف الناس من جميع أنحاء العالم تلامس بعضها بعضاً وهي تحمل المعتقدات الدينية المختلفة.

كان المقادسة يشعرون بالأمان لأن لسورهم العظيم أحد عشر باباً كانت تقفل ليلاً من أجل الأمن في العصور السابقة. وقد عرفوها أباً عن جد وسمّع أولاد المدارس للمعلم أسماءها وهم يرددون: باب الساهرة، باب العامود، وباب الجديد، وباب الخليل، وباب النبي داوود، وباب المغاربة ويضيفون أسماء الأبواب الأربعة المسدودة، كأنها سُدت لتحمي الحرم الشريف الملاصق للسور الجنوبي. وقبل فتح باب الجديد، وباب الخليل كان الإغلاق عائقاً أمام التوسّع والتمدد للخارج. إلا أن التسلل الأوروبي للقدس عمل على توسّع المدينة خارج السور زمن الانتداب البريطاني، وربطت الإدارة القرى المحيطة بالقدس بالمدينة التي كانت مفصولة عنها زمن الحكم العثماني. وشمل التوسع رام الله وبيت لحم وأريحا ووصل حتى نابلس، لتُسمى البلدات والقرى العديدة المحاطة بالمدينة بأكناف القدس[1].

حجارة لها أسماء

لقد ساهم جو القدس الجبلي في فصوله الأربعة على نشأة أهلها في بيئة هواؤها عليل يحطّ على المدينة الجبلية من عَلٍ. وزاد جمال القدس وخصوصيتها محبة أهلها لبناء البيوت الحجرية المتعالية التي أخذت تنتشر خارج المدينة القديمة منذ منتصف القرن التاسع عشر

١ تعد قرى وبلدات القدس في التاريخ الحديث، منذ الانتداب البريطاني، ٧٠ قرية، والتي تبعد عن القدس ٣٦ كم فقط. وتشمل الاقضية، رام الله والخليل وبيت لحم وأريحا وبعض القرى أصبحت من أحياء المدينة تحت الإدارة الانتدابية مثل لفتا وسلوان والعيزرية، والطور وغيرها. ويرى البعض أن أكناف القدس، أوسع من الترتيبات الادارية التي وجدت في العهد العثماني أو الانتدابي. ويعتمدون في ذلك على مفهوم الحديث الشريف الذي يرى أن بلاد الشام هي الارض المباركة وليست فلسطين فقط، وأيضا كما جاء في القرآن الكريم «الذي باركنا حوله» أي المسجد الاقصى. كانت تحديد ديار بيت المقدس يصل لنابلس وقراها شمالا.

لتتجمل العمارات بهندسة أوروبية لم تقلل من الإرث الإسلامي والحضاري الذي شكّل هُويتها التاريخية. ظلّ حجر فلسطين، يشهد على صلابته وجماله ومحبة أهله مدى العصور، وهم يحرصون على عدم تهميشه حتى يومنا هذا. فالدور الحجرية الواسعة اقتلعت حجارتها وبنيت بأيدي العمال ودقّيقي الحجر الفلسطينيين المهرة الذين كانوا يعرفون ويميزون بين أنواعها المتنوعة، كالتمييز الطبقي الذي كان سائداً بين الطبقات الاجتماعية: من كبار الملاكين، الذين ينتمون إلى الطبقة البرجوازية، ومن التجار، ثم من العمال والفلاحين الذي ينتمون للطبقة التي اتسمت بالفقر والتهميش. الطبقة التي قامت بزراعة الأرض لإطعام أهل المدينة والموسرين، وعمرت الأمكنة بالحجر الذي اقتلعته من الجبال، وأطلقت عليه أسماء أيضا كما الطبقات والناس. وعرف البناؤون حجر "الطُبز" الذي يبدو متحفزاً كونه بارزاً غير مستوٍ، ويختلف عن "الحجر الملطش" الخشن الذي يبدو أكثر تواضعاً واستواءً من "الطبز". أما "الُمسمسم" فهو ناعم ومستوٍ ومريح للنظر، وأكثر نعومة من الحجر "الأملس" الذي يدل اسمه عليه. وقد عرف البناءون والمقاولون وعمّال مقالع الأحجار في أكناف القدس، هذه الميزات. وكان أكثرهم فهماً بنوع الحجر العامل "دقيق الحجر" الذي يتعامل معه بإزميله وكأنه قطعة فنية لها روح يناجيها.

وأحب الناس حجارة فلسطين التي ساعدت على إيجاد مهنة ومصدر رزق لمن عمل فيها، وكان كثيرون منهم من القرى المجاورة. فقد انعشت المهنة العمل في الكسارات والمحاجر، وعمال البناء، ودقيقي الحجر. وعرف في القدس متعهدو دقاقة الحجارة منهم إبراهيم حسيني وشركاه في شارع مأمن الله ت (٨٠٦) ومحمد إسحاق خليلي، في باب العامود، وعلي محمد شامي في شارع مأمن الله، وكانوا متعهدين لكافة أنواع حجارة البناء، ودقاقة الحجارة وتوفير الرمل والنحاتة. بالإضافة إلى ذلك فقد تخصّص عمّال زخرفة الحجر والنقش عليه، كما تشهد نقوش واجهات البيوت القديمة من الآيات القرآنية أو التراثية مثل البسملة والشهادة "وهذا من فضل ربي"، "والله الحافظ"، "وتوكلت على الله"، "وما شاء الله"، "والرزق على الله"، "وادخلوها بأمان سالمين"، "وعين الحسود فيها عود"، أو "مثلما بنى أباؤنا وفعلوا نبني ونفعل" التي نقشت على واجهة "المبنى الإسلامي الأعلى" في مأمن الله. وتباهت بعض البيوت بتزيين مدخل البيت بزخارف فخارية "قيشاني" خاصة بعد إنشاء مصنع الفخار في سعد وسعيد في القدس، وكان اللون الأزرق المفضل، كما في قاشاني المسجد الأقصى. وبرز خطاطون في القدس بينهم محمد صيام من قرية لفتا/القدس، وشكيب القطب، في سوق الدباغة بجانب كنيسة القيامة[٢].

٢ للمزيد عن نوع الحجارة، الموسوعة الفلسطينية الجزء الرابع، ص ٣٤٠-٣٤١.



بيوت من حجر (مسمسم)



أزهار الساعة الليلكية وأم سبع سنين

جمّل الحجارة وعلاقات النساء في حارات وأحواش بيوتات القدس المتنوعة النباتات والأزهار. البعض منهن كن يخفين منافسة خفية مع الحارات، وذلك بتزيين شبابيك البيوت بالنباتات الخضراء والأزهار لتجميلها كون القدس القديمة تفتقر إلى مساحات خضراء أو منتزهات كما في خارج السور. وكانت الأصص أو تنكات زيت "الشيمن" الفارغة تزرع بالفل والنرجس والياسمين، والورد الجوري أو الريحان دون أن تعرف النساء أنّ ما كنّ يقمن به صحيحاً، إذ تتغذى النبتة على حديد "التنكة" الذي تحتاجه كسماد. وتباهت البيوت في الشيخ جراح وباب الساهرة ووادي الجوز والثوري والقطمون وروميما بأشجار السرو والصنوبر العالية وأشجار الزنزلخت التي تبشّر ألوان زهرها الليلكي أن الربيع قد وصل. وكانت بعض البساتين المقدسية تتباهى بشجرة أو أكثر من أشجار البرتقال والليمون والخشخاش التي أحضرت من بيارات يافا وحيفا ومن قلقيليا وجنين، عندما يفوح زهرها، وكأنها تقدم هدية للمارين في الحارة.

وتباهت النساء بأنواع نادرة من الأزهار، فكانت نبتة "الجميلة" التي تبدو زهرتها كأقراط صبية تحب اللون الأحمر والأبيض إحداها. وزهرة "السبع سنين" التي كانت نساء القدس يزرعنها في مدخل البيت ليتباهين بجمالها المخملي الأبيض أو الزهري اللون، وكأنها زينة مصنوعة بكمشة من أجراس متراصة تدق رائحتها لتوقظ مشاعر السعادة وحب الحياة كما زهرة الحلزون. وفي الطريق إلى المدرسة كانت بنات مدرسة المأمونية في باب الساهرة، ومدرسة الشميت في باب العامود، ومدرسة السلزيان في حي المصرارة يتسلقن أسوار المنازل المزينة بالمدادة لقطف "زهرة الساعة" ليلكية اللون المكحلة بالأسود والأبيض. وسعدت البنات برشف الرحيق المخزن في قلبها، وكأنهن فراشات يجمعن العسل. وظلت أيضا لسعات نحلة خبيثة سكنت داخلها ونافستها البنات محفورة في ذاكرة من كن يبحثن عن العسل. ووضعت البنات الورد بين "دفات الكتب" لتصبح زهرات ناشفة تحافظ على الرائحة واللحظة التي شعرت فيها بأهمية حفظها خاصة إذا كانت من معجب خفيّ.

ويبدو أن للزهور وقعاً عاطفيا كبيراً لدى الناس، إذ ظلت الزهرة التي أعطاها معجب لفدوى طوقان في ذاكرتها وقلبها وإن كانت قد حرمتها من إتمام المدرسة في نابلس، كما دونت وجعها في كتابها "رحلة جبلية رحلة صعبة". وكان لسحر "زهر اللوز" ربما أكثر من ذلك في عاطفة محمود درويش الذي كان يحن لقهوة أمه، وربما عندما كان ينتشر عطر الزهر ليذكره بكل المشاعر الحميمية التي حُرم منها بعد النكبة.

ولأن البيئة الجغرافية كانت مناسبة لبيئة دائمة الخضرة في القدس حرصت بيوت كثيرة على تزيين مدخلها بأصص فخارية يشترونها من مصنع الفخار في "سعد وسعيد" من أجل جمال دائم. وتبادلت الصديقات والجارات عينات من النباتات. وكان بعضهن يقطعن "قصفة" من النبتة خِفية عن صاحبة المنزل، إذ اعتقد البعض منهنّ أنّ النبتة تعيش إذا ما كانت "سرقة".

ويرجع هذا الاعتقاد "للسرقة البريئة" إلى "المعتقدات الخرافية" التي كانت سائدة ومتمثلة في العادات والتقاليد الاجتماعية. وكانت هذه المعتقدات ما جعلتني في يوم من الأيام في طفولتي أن أقصف نبتة "السبع سنين" من دار سيدي في لفتا لأحملها لأمي خفية وخوفاً من "زوجة سيدي" التي كانت حريصة على شجرتها المحببة في مدخل الدار الكبيرة.

كانت ستي صفية العبيدي تتنافس مع ضرتها على الشجر المثمر في الحاكورة، التوتة الكبيرة والأسكدنيا التي كنا نتسلقها لقطف الثمرة وكانت ستي تضع شوكا على شجرة الخوخ لتحميها لحين نضجها ولتخص بها أبي المتحيّزة له كونه ابنها "الوحداني".

فخر السيدة المقدسية التي تملك شجرة "الخشخاش" في حديقتها كان كبيراً، خاصةً في موسم قطافها وعمل مربى الخشخاش الذي كان عمله صعباً ويحتاج لمن يتقنه، في ذلك الموسم وليكون أحسن هدية للأهل والجيران "مطربان" تطلي الخشخاش أو "البرتقال" الذي كانت بعض النساء تقدمه في الاستقبالات النسائية الشهرية أو الأسبوعية. بالإضافة إلى كونه المفضّل لدى أفراد العائلة لتناوله على الإفطار مع الزبدة البلدية في موسمها. وكانت النساء تحتفظ "بالمطربانات" الفارغة من أجل استعمالها لتخزين نوع آخر من المربيات التي كانت مرغوبة مثل مربى المشمش وغيره من الفواكه في موسمها.

واهتمت العائلات بزراعة وتجميل البساتين، وخاصة حول البيوت ذات المعمار العصري الأوروبي، في القطمون والبقعة والثوري وشنلر ورروميما، والشيخ جراح. وسعد الكثيرون بزيارة طولكرم والعودة ببذور الأزهار من المشاتل الوطنية والمختبرات العربية لصاحبها أحمد الشلبي. وكان يبيع كافة أنواع الأشجار وبذور الزهور والخضار والنباتات. أو إذا ما كانوا في زيارة ليافا، حيث شركة مقدادي المحدودة في شارع سبيل السكسك ص ب (٦٢٦). أو من مشاتلِ وهبة لصاحبها حسيب وهبة، في بيسان، حيث كان يبيع كافة أنواع الأشجار المثمرة والمركبة وغير المركّبة. وأتقن كثير من الرجال من الطبقة الوسطى والمهنيين من العمال والفلاحين، تركيب الأشجار ومزج ألوانها وأنواعها مع بعض لتكون مميزة. وكان المتمكنون من هذه الهواية يعلّمون غيرهم ويقدّمون خدماتهم واستشاراتهم للأهل والجيران ويعمّمون الخير والمنفعة وكأنهم أطباء جراحين.

ناس المدينة

احتضنت القدس القديمة الأكثرية من سكانها العرب الفلسطينيين الذين كانت غالبية بيوتهم تتوزع في الحي الإسلامي أكبر أحياء المدينة المسوّرة. ويأتي تشابه الحارات في القدس أنها تشكل مجموعة من الأحواش، لتضفي على كل عائلة أو حمولة تعيش فيه خصوصيتها. ففي كل حوش مجموعة من الشقق والبيوت المترابطة مع بعضها بعضاً لتربط الأسرة والأقارب. كانت أحواش العائلات في الحي العربي تشهد على هويتهم وانتمائهم للمكان من الحوش والزقاق والسوق، منذ عصر المماليك والعثمانيين. وظل المكان يتوارث عنوان العائلات المقدسية العربية التي عاشت فيها. فقد ولدت، بنات وأولاد وأجيال حارات القدس لتحمل أسماء عرف بعضها البعض وتعرفها مدن فلسطين الأخرى، نابلس، ويافا، وحيفا، وعكا، والناصرة وغيرها. وتصاهرت العائلات بين المدن المختلفة وحملت العناوين أسماء عائلات مقدسية منها: السلايمة، حشمة، الخالدي، الشرف، النمري، نسيبة، النشاشيبي، الحسيني، الدجاني، السكاكيني، حنانيا، ديب، حداد، هنية، العمد، الغول، أبو الهدى، قليبو، بيشة، النتشة، الموسوس، الخوري، عبدة، الجواعنة، الفتاله، منصور، خشرم، البسطامي، قدورة، نزهة، مراد، وهبة، الشخشير، السعودي، الشهابي، العلمي، هداية، الهدمي، مراد، البيطار، العوري، خليل، فرعون، النجار، غوشه، جوهرية، حلبي، وعطاالله وعائلات من كل طبقة وشريحة اجتماعية ومذاهب دينية مختلفة. ولم يقتصر سكن العائلات في حارة واحدة كما عائلة البشيتي، مختار حارة باب حطة يسكن في تلك الحارة، وسكن محمد حسن البشيتي وفايز البشيتي وكانوا تجار حبوب وملحمة في حارة اليهود، القريبة من الحرم أو حارة الشرفا.

كان البيت المقدسي العربي القديم داخل المدينة العتيقة، بيت تسكنه عائلات ممتدة عددها كبير، تتكون من الجد والجدة والأم والأب والعمّات والأعمام المتزوجين وغير المتزوجين، ومع ذلك العدد من الأولاد والبنات من أولاد الأعمام ومن أمهاتهم "السلافات" و"الضراير" وزوجات الأب لمن تزوج أكثر من واحدة.

رحّبت المدينة بالناس من الأجناس والأعراق والأديان المتنوعة كما الناس الأصليين العرب، وتعايشت الديانات بين المسلمين والمسيحيين واليهود من السكان. ورحّبت العائلات المقدسية بالوافدين للسكن في مدينتهم من مسلمي الهند وبخارى وفئات أخرى، بينهم المغاربة الذين سميت حارة باسم الوافدين من تونس والجزائر قبل مئات السنين، ليجاوروا المسجد الأقصى بعد أداء فريضة الحج ويستقروا فيها. واستقر أيضا في القدس من المسلمين الحجاج "التكارنة" الذين قدموا من تكرور في السنغال (أفريقيا) والأكراد، والشركس، والبخارية.

أما المسيحيون العرب فقد أقاموا في حارة النصارى، في البلدة القديمة وفي القرى والبلدات المجاورة بيت لحم، وبيت جالا، وبيت ساحور، ورام الله، وحيفا، وعابود، وعين



الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين مع ابنته جهاد



عوني عبدالهادي مع زوجته طرب الناشطة النسائية وأرب وملك



راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس ١٩٢٠-١٩٣٤



أحمد حلمي عبدالباقي رئيس حكومة عموم فلسطين مع ابنته نائلة وابن اخته جميل الصالح



عبدالحميد شومان مؤسس البنك العربي وابنه عبدالمجيد من بيت حنينا وامين درويش من المالحة



الشيخ حسام الدين جارالله

عريك. ويوزع انتماؤهم الديني بين الطوائف المسيحية المختلفة، وشكّل الروم الأرثوذكس غالبية المسيحيين. ومن الطوائف الأخرى الروم الكاثوليك، أو "الإفرنج"، والأرمن الذين قدموا من تركيا وكردستان، وسميت حارة الأرمن باسمهم وقد عرفوا بنشاطهم المهني، الذي جعل منهم أغنى الطوائف المسيحية في القدس. وفي المدينة عاشت فئات أخرى من السكان منهم الأقباط الذين قدموا من مصر والحبشة للاحتفال بافتتاح كنيسة القيامة، وبقي بعضهم في المدينة. وهناك السريان الذين قدموا من سوريا عندما احتل الصليبيون المدينة. والموارنة وهم الأقلية من بين الطوائف المسيحية. وكان يتوافد على القدس حجاج مسيحيون من اليونان وإسبانيا وإيطاليا وأرمينيا.

وأتى أكثر اليهود إلى مدينة القدس بعد سقوط الأندلس، عام ١٤٩٢م، هربا من اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، وهم (السفرديم) الذين يتكلمون مزيجا من اللغة الإسبانية والعبرية. وقدم بعضهم للقدس من شرقي أوروبا ووسطها، ولم يزد عدد اليهود في القدس بداية القرن التاسع عشر عن ٢٢٥٠ نسمة[٣].

دور عتيقة وجديدة

بدت دور القدس العتيقة غير متشابهة أو متساوية للمارة من الخارج من حيث السعة أو نمط العمران، لأن المساكن كانت تدل على المستوى الاقتصادي، والاجتماعي للناس. فدور الأثرياء والأعيان منذ العهد العثماني أو الوجهاء وموظفي الحكومة تحت الانتداب تتكون من طابقين أو ثلاثة، يربط بينها درج من الحجر المدقوق، وتتوزع الغرف بين غرف النوم والمعيشة وصالون كبير للضيوف، وخصّص البعض طابقاً للرجال، نظراً للفصل الاجتماعي بين المرأة والرجل، خاصةً وكانت النساء ما زلن محجبات ويمنع الاختلاط مع الغرباء أو الزوار من غير أفراد العائلة. كان لبعض العائلات أكثر من بيت نظراً لكبر حجم العائلة، وحرصهم على البقاء في حوش أو حارة واحدة. أما بيوت غالبية الناس من الطبقة المتوسطة والفقيرة فكانت أصغر مساحة وأقل غُرفاً، إذ لم تزد بعضها عن طابق واحد يكون واسعاً يشمل أكثر من "أوضة"، أي غرفة تُستعمل للمعيشة والنوم.

وللدور في القدس العتيقة ساحة مفتوحة يتمتع أهل البيت بالجلوس فيها واستقبال الأهل. واهتمت النساء بتزيينها "بتنكات" مزروعة بالورود، أو بالأشجار القليلة التي تروى من الآبار الملحقة بالبيت، والتي تجمع مياهها من مياه أمطار الشتاء أو من الآبار التي حرص أهل القدس

---

٣ جاسر العناني، الحياة الثقافية في القدس، ١٩٣٧ الى ١٩٤٨ م. الباب الخامس ص ٩١ عمان، ٢٠٠٧.
أنظر أيضا :محمد عيسى صالحية، السكان والارض ١٨٥٨–١٩٤٨ ، مركز الزيتونة للدراسات، بيروت، ٢٠٠٩ ص ١٧ –٨٣ للمزيد حول احصائيات السكان ١٩١٨–١٩٤٨.



ابراهيم حقي
الشركسي



منزل الشركسي في حي النمامرة



أولاد حقي أمام البركة بينهم سمير، هاني، وسيم، وليد ولميس



التاجر فايز المهتدي مع زوجته ابنة عمه
زاهدة وابنته سميرة وابنهم



حسن أبو الوفا الدجاني مراقب الأوقاف العام مع ابنته وفيه في
بيتهم في الشيخ جراح

على جمعها أو من "الصهاريج" الكثيرة التي كانت تتجمع فيها المياه وتوزع على الناس. بالإضافة إلى مياه البرك القديمة المتعددة والينابيع. واهتم العثمانيون بتعمير برك سليمان (١٥٣٧) لتأمين وصول الماء للقدس، وتستمد برك سليمان ماءها من (وادي العروب) الواقع بين الخليل والقدس.

ويلحق في كثير من البيوت الإسطبلات التي تأوي "الدواب" التي كانت ذات أهمية لاستعمالها في المواصلات. وحرص أهل القدس على تأمين مخزن لتخزين المواد الغذائية "ومؤونة" الصيف والشتاء، ويكون عادةً قريباً من المطبخ الذي يقع في الطابق الأرضي للبيوت ذات الطابق الواحد، أو في الطابق العلوي للبيوت الكبيرة. وكان الحمّام الذي كان يسمى "بيت الراحة" أو "بيت الخارج"، مكانا مشتركا للعائلات كبيرة العدد، ولم تكن شبابيك البيوت كبيرة وتسمى "الطاقة" وسبب صغرها الرغبة في ستر البيت.

وكما كانت أسوار القدس تميّز المدينة، فكذلك كانت أسوار البيوت فقد سوّرت لتحمي خصوصيتها. فالبيوت كانت تقفل بالأبواب الخشبية التي توصد "بزرفيل" أو "بمزلاج" وهو عبارة عن مفتاح كبير من الحديد أصبح رمزاً للفلسطينيين الذين حملوا مفاتيح بيوتهم التاريخية ليحافظوا على حق الحلم بالعودة للفردوس المفقود. وظلت هذه الخصوصية للبيوت العتيقة تختلف وتتميز عن البيوت التي أخذت تتغير خارج الأسوار في أحياء القدس الجديدة، حيث تأثرت بالمظاهر الغربية الأكثر انفتاحاً. ففي منطقة شمال القدس بُنيت كثير من البيوت التي استخدم فيها القرميد الأحمر، والألواح الخشبية، بالإضافة لتزيينها بالأقواس والأعمدة المزخرفة بالنقوش، والشبابيك الواسعة والأدراج المحمية "بالدرابزين" والأبواب الخشبية أو الحديدية.

وعرف أهل القدس مصانع فقوسة أخوان، في جورة العناب، باب الخليل، حيث تخصّص في تخشيب العمارات، وصناعة الأثاث وجميع أنواع أشغال النجارة. واشتهر أيضا معمل جورج عيسى قنواني في جورة العناب، بهذه التجارة التي أصبحت ضرورية والمدينة تتوسع، ويتغير نمط البناء فيها. واشتهر في القدس منذ الثلاثينيات محل مصطفى أحمد أبو زيد وشركاته لبيع لوازم وأدوات البناء ومنها القرميد، وخشب سويد، وخشب فنيري. بالإضافة إلى ذلك فقد أنشأت دار الأيتام السورية القسم الصناعي "شنلر" في شارع مأمن الله، معملاً للقرميد، الذي انتشر استعماله في البيوت الحديثة خارج السور. كما تنافس أهل القدس باستعمال البلاط المزخرف والبلاط الرخامي والحمامات "البانيو" الحديثة، والتي تختلف عن التقليدية. وقد انتعش بيع الأدوات الصحية في البيوت خارج السور، وتنافس على بيعها في أسواق القدس محلات كثيرة، منها، اميلي أخوان في شارع يافا، وحلاق وحداد وشركاهم شارع سان لويس ت (٤٢٦) وله فروع في حيفا ويافا ومحل حنا عبد الأحد قطان ت (١٠٩٣)، ومصرصع



محمد السعدي وزوجته هدله بدر خان
مع الأولاد وليد ، مروان ، سميرة ، لميس وريما



ثروت العفيفي زوجة فائق الدجاني مع العائلة
علي يوسف وموسى وأنعام وإحسان وهيام



عائلة مراد عرف منهم زوجته وأحمد وأم فريد وأم أحمد مع أولادهم

أخوان وشركاهم في باب الخليل ت (٢١٦٣)، والنشاشيبي وأبو سعود، في باب العامود ت (٤٧٥)، وسلطي أخوان في باب الخليل ت (٢٩٢)، وعبد الرحيم ملص وشركاه في شارع مأمن الله ت ١١٤٣، وانتشرت محلات بيع جميع مواد ولوازم البناء في أكثر المدن الفلسطينية حيث كان العمران يتكاثر بشكل كبير. كما سعدت النساء والعائلات التي انتقلت إلى الدور الحديثة في مناطق القدس الجديدة، خاصة وقد أصبحت الحياة المعيشية أسهل لهن في التنظيف والتمتع "بالبانيو"، والمراحيض "الإفرنجية" التي تختلف عن التقليدية. بالإضافة لخصوصية كل بيت، إذ أصبحت هذه المرافق ملحقة داخل كل "فيلا" أو شقة حديثة. بينما كانت هذه المرافق في البلدة القديمة تستعمل من جميع أفراد العائلة الممتدة الذين كانوا يسكنون في غرف منفصلة في الدار نفسها.

واشترى أهل القدس من معمل خليل داوود طمس الاسمنت والبلاط والموزاييك والرخام، وكان في شارع سان بول أمام مستشفى الولادة. وكذلك من فابريكة قسيسية أخوان في شارع بطريركية اللاتين، ومعمل توفيق نخلة في شارع سان جورج تجاه المستشفى الايطالي ص ب (٥١). ودفّأ بعض أصحاب المنازل العصرية بيوتهم بتدفئة مركزية "بشوفاج سنترال" في القدس وأصحابه ج.ب. مود وشركاه، شارع مأمن الله ص ب ٦٩٩ ت (٧٨٥) وكانت أكثر محلات بيع مستلزمات البناء توجد في جورة العنّاب. ولم يكن هذا النوع من التدفئة قد وجدت في جميع البيوت. وكان الناس ينظرون إليها بإعجاب لأنها تدفئ البيوت دون رائحة الفحم أو الكاز. ويتذكر المهندس هاني حقي طفولة دافئة في بيت عصري جميل بناه والده إبراهيم حقي "الشركسي"* كما كان يعرف في حارة النمامرة: وكانت التدفئة المركزية موضع إعجاب وحديث النساء في التجمعات النسائية حول هذا الاختراع المريح الذي يعمل في الطابق السفلي لتصل حرارته إلى الطوابق العليا. وأنا بدوري ما أزال أتذكر هذا النمط من التدفئة في عمارة يملكها والدي في شارع يافا في القدس مبنية من الحجر الأحمر الجميل.

حمامات الهنا

وفي سوق المدينة القديمة تقاطعت الأزقة والحارات والعقبات والخانات القريبة من الأسواق التي كانت مقصد التجار. وكانت الخانات مكونة من طابقين يطلان على صحن

* وصل الشركس من وطنهم الأصلي «القوقاز» كمهاجرين إلى فلسطين عام (١٨٧٨) في «الفوج الثاني» عن طريق ميناء حيفا. وكان الفوج الأول قد وصل عمان قبل ذلك بعشر سنوات مباشرة بعد انتهاء الحرب الروسية القفقاسية. توزع الشركس في فلسطين على عدد من القرى والمدن، منها الريحانية، وكفر كنا، وسكن بعضهم في القدس ومنهم إبراهيم حقي الذي بنى بيته في حي النمامرة في الثلاثينيات. هاجر أكثر الشركس إلى عمان، بعد نكبة ١٩٤٨. حافظ الشركس على عاداتهم الاجتماعية ولغاتهم وتقاليدهم والتمسك بالدين الإسلامي. يوجد الشركس أيضا في بلدان عربية أخرى منها سوريا ولبنان.

مكشوف. وقد خُصص الطابق الأرضي ليكون مخازن لتكديس البضائع، وكذلك كاصطبلات للدواب التي كانت تستعمل كوسائل نقل مهمة. أما الطابق العلوي فكان يستخدم سكنا للنزلاء يعوّض عن الفنادق. ومن أشهر خانات القدس القديمة كان الخان الكبير، وخان السلطان، وخان الزيت القريب من كنيسة القيامة وله أربعة أبواب، وخان الإفرنج، وخان باب القطانين، والخان الأحمر. أما خان الخليلي فكان يقع شرق الحرم، وكان يؤمه الرحّالة والحجاج لقربه من الحرم وكذلك حمام العين الذي يقع في وادي الطواحين ويستمد مياهه من بركة سليمان، وهو وقف قناة السيل. وكذلك حمام الشفا قرب سوق القطانين ويستمد مياهه من بركة الشفا.

ووجدت في القدس عدد من الحمامات تتوزع في المدينة، ويعود بعضها إلى ما قبل الإسلام، مثل حمام السيدة مريم وحمام البطريك وحمام الأسباط التي وجدت منذ عهد صلاح الدين. وقد شكلت الحمامات أهمية للمدينة كما في المدن الإسلامية الأخرى. وارتبطت هذه الأماكن بالنشاطات الصحية والاجتماعية والدينية. بالإضافة إلى ذلك فهي جزء من المعالم المعمارية والحضارية وبعضها زينت بالبلاط القيشاني والزخارف الجميلة. بالإضافة فهي ترتبط بأداء الطقوس والمناسك الدينية المتعلقة بالنظافة والطهر[٤]. واستفادت النساء في القدس من الحمامات العامة المنتشرة في المدينة التي لم تقتصر على طبقة اجتماعية معينة، وكانت لكل الطبقات وشرائح المجتمع خاصة لم تكن المياه متوفرة بكثرة في البيوت. بالإضافة فقد حل "الحمّام العام" مشكلة اجتماعية حيث كانت معظم الأسر الكبيرة تسكن في منزل واحد، وكان الحمام الشعبي يحل المشكلة ويفي بالغرض للنساء والرجال. وتساوت النساء مع الرجال في استعمال أشهر الحمامات العامة كحمامي خاصكي سلطان الذي خصص أحدهما للرجال والآخر للنساء، كما خصص للأرامل والعجائز حمامات. وكان أهل القدس وأكنافها يرتادون الحمامات الشعبية أو "حمام السوق"، في الأعراس لتكون مكانا للاحتفال بطقوس احتفالية في أحد الأيام السبعة المخصصة "للعروس" قبل الزواج. وتروي نساء القدس اللواتي خضن هذه التجربة "التراثية" قصصاً ظلت في الذاكرة حيث سعدن بالاستحمام وسط جمع من نساء العائلة. وكن يعتبرن "يوم الحمام" مناسبة سعيدة وهن يقمن بالاستعداد له، وبإعداد الأطعمة وكأن المكان هدفٌ للخروج للتنزه. وحرصت النساء على حمل ما يلزم للحمام مثل الصابون النابلسي، والليفة، التي تقوم سيدة متخصّصة تسمى (البلانة) باستعمالها للتدليك والتنظيف وتنعيم بشرة الجسم وإزالة الشعر الزائد. وتتذكر إحدى السيدات "الجدات" القبقاب الخشبي وارد الشام الذي ظلت تحتفظ به، بعد أن استعملته في حمام عرسها. وكان مزينا بالصدف الأبيض وكذلك البقجة المقصّبة التي حملت ملابسها بها.

وظلت الحمامات القديمة تذكر بالتراث القديم والعادات والتقاليد التي أخذت بالاختفاء

٤ محمد هاشم غوشة، القدس في العهد العثماني، عن حمامات النساء، ص١٩٠، مصدر سابق.

بعد أن تغيّرت معالم المدينة وناسها بعد النكبة. إلا أن صدى الأغاني للعروس في الحمام ظلّت مسجلة في التراث، وغنّت النساء:

مرمر زماني يا زماني مرمر — مرمرتني لا بُد ما تتمرمر

مرمر زماني ما سقاني مرمر — قلبي تولع في هواك يا أسمر

يا داخلة الحمام خديني معاك — اشيلك البقجة وامشي وراك

جيران وعلاقات دافئة

كثيرٌ من النخبة والناس من الطبقات العليا والوسطى من السكان هجروا القدس العتيقة في الثلاثينيات إلى "القدس الجديدة" خارج السور، منها البقعة والألمانية والطالبية والمصرارة وباب الساهرة والشيخ جراح ووادي الجوز. وظل السكان العرب الكثر الباقون في المدينة العتيقة يتوزعون بين حاراتها المعروفة وأسواقها المتعددة وأزقتها، التي تنبعث منها رائحة رطوبة دافئة محببة تختلط مع توابل سوق العطارين. ظلت المدينة تحتفظ بتراثها التاريخي والمركز السكني والتجاري والثقافي والديني خاصة، وظلت الأكثرية العربية تمتلك بيوتاً في كل حارة أو زقاق بعضها تحمل اسمهم. كان التغيير والهجرة لأحياء الجديدة بسبب بحث الناس عن أمكنة واسعة تتسع للعائلات الممتدة التي زاد عدد أفرادها. بالإضافة إلى ذلك فقد زاد عدد اليهود الذين أخذوا يتسللون إليها بمساعدة السلطات البريطانية وتسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين والقدس بشكل خاص، لسرقة المدينة وتهجير أهلها في عقود لاحقة بعد النكبة * وحتى يومنا هذا.

رائحة الدفء والمحبة في بيوت القدس العتيقة ظلت قوية بفضل تلاحم العائلات والأهل والجيران. بيوتُ كثيرة تكاد تكون سلسة من الدور يفصل بعضها عن بعض الأدراج والساحات المكشوفة التي تخلق جواً حميمياً مفتوحاً ورحباً للتواصل. ولم تكن أصوات الأهل والجيران المنفتحة على بعضها وحدها ما يُعمق هذه الروابط والعلاقات الإنسانية. فعمقها كان يأتي من قوة روائح الأطعمة التي تنبعث من شبابيك المطابخ المتقابلة التي تشي للجيران والمارة أن أهل البيت يطبخون ذلك اليوم الملوخية الخضراء، وإن كانت عيدانها المسلوخة من الأوراق، المكوّمة أمام باب الحارة تشترك بالوشاية.

---

* بلغ عدد السكان العرب في البلدة القديمة عام ١٩٢٢، (١٦٦٠٨) عرب مقابل (٥٦٣٩) يهود والمجموع ٣٦٠٠ والنسبة ٣٥,٨٪. وبلغ مجموع السكان العرب عام ١٩٤٧؛ (٣٣٫٦٠٠) عربي مقابل ٢٤٠٠ يهودي وبلغ المجموع ٣٦٠٠٠. أما المدينة الجديدة فكان عام ١٩٢٢ (١١٥١٠) عرب و ٢٨٣٣٢ يهود، وعام ١٩٤٧، بلغ عدد العرب، ٣١٥٠٠، واليهود، ٩٧٠٠٠. والمجموع ١٢٨٥٠٠ والنسبة ٧٨,١٪ المصدر (القدس، إعداد المكتب الفني، برنامج إعمار البلدة القديمة في القدس) .مؤسسة التعاون، ٢٠٠٢، ص٣٣ .



أحفاد أحفاد الثلاث عائلات الأرمنية منذ ١٩١٠ التي تعتني بالكنيسة وهي: توميان ، قسبيان ، وكنتشيان



بنت تخدم في الكنيسة الأرمنية ١٩٣٠

وتتفوق رائحة الأكلات التقليدية الشعبية مثل الكرشات والروس والفوارغ على جميع النكهات. وتعتبر من الطبخات القديمة التي أحبتها الجدات اللواتي كن يتقن إعدادها وكأنها تخبر الجيران أن العائلة تجتمع في "لمة" تواصل مع أفراد الأسرة الممتدة.

أما رائحة الثوم والبصل الشهية وهي تنتشر دون خوف في حارة الأرمن، وكأنها تعزم المارة على "السفيحة" الأرمنية بلحمتها الحمراء والبصل والثوم والفلفل الحار والبندورة تخصصهم. أو السجق والأكلات الخاصة بتراثهم الأرمني الأصيل الذي ورثوه عن أجدادهم في أرمينيا قبل هجرتهم للقدس التي حافظت على لغتهم في حارتهم مع العادات والتقاليد وأعياد وصلوات. وعرف أهل المدينة العتيقة جيرانهم الأرمن، وخاصة المصورين الذين كانوا يتسارعون كل صباح إلى استوديوهات التصوير الفوتوغرافي الذي احترفوه في أماكن تزاحم الأقدام في المدينة. وكان أهل القدس وبيت لحم والقرى المجاورة يتوافدون على أقدم محل رعد للتصوير الشمسي في شارع يافا تليفون (٧٧٦)، والمتخصص في بيع أدوات وماكنات التصوير، وغسيل الأفلام، وبيع مناظر فوتوغرافية للأراضي المقدسة. بالإضافة إلى ذلك كان يتوافد الناس عليه لأخذ الصور داخل المحل وخارجه منذ أن أنشىء عام ١٩٢٠. وعرف أهل القدس من الرجال والنساء أوهانس كوكيان الأرمني ورقم تليفونه ٥٧٩. وعرفت بنات القدس الصديقات اللواتي يسكنّ في حارة الأرمن في بيوت متراصّة، ودير الأرمن المكوّن من مدرسة ومتحف وعيادة طبية. وتقترب بنات المدارس من بعض وهن يتعلمن بعض الكلمات الأرمنية من بنات الأرمن اللواتي كن ملتزمات بالتكلم باللغة التي حافظوا عليها، بالرغم من إتقان الأرمن المقادسة للغة العربية.

يؤنس الحارات والأزقة والأحواش أصوات الأطفال من الأقارب والجيران وهم يتصارعون في لعبة الفوتبول. الفقراء منهم يلعبون بكرات مصنوعة من "الشرايط"، أما أولاد الموسرين فكانت كراتهم الجلدية تشترى من محلات ديب في شارع جوليان أو ريمون مروم شارع البرنسيس ماري أو من يافا، أو حيفا، ولم تخل الحارة من أولاد يصيحون في الأحواش ....

جو...ل جو...ل وبين أصوات الآباء ينبهون عليهم

- كل واحد على بيته...
- يالله يا أولاد !
- اطلعوا على البيت صار وقت الدرس!

كان الأولاد يلعبون أيضا "أولك يا اسكندارني" ويقفزون فوق ظهور بعضهم البعض على

التوالي، وكانوا يصنعون طائرات من ورق يطيرونها فوق أسطح المنازل. وكانت البنات يلعبن في الحوش "نط الحبل" و"الاكس" وهو دفع الحجر بالمربعات لإيصاله له للنهاية وبقدم واحدة. كما كن يركضن وراء البعض ويلعبن "الزقيطة"، و"الغماية" و"حامي وبارد"، و"طاق طاق طاقية" و"رن رن يا جرس حول واركب على الفرس"، وغيرها من الألعاب الشعبية التي كانت أفضل وسيلة للتسلية. وكان الأولاد يلعبون لعبة الجلول والبلابل، والفريرات، كما كانوا يصنعون الطائرات الورقية ويطيرونها في الهواء من على التلال أو على أسطحة المنازل[٥].

ولم تقتصر هذه الألعاب على أهل المدينة القديمة، بل كانت منتشرة في الأحياء الجديدة كما في القرى والمدن الأخرى. ويتذكر هاني حقي اللعبة المفضلة له في الطفولة "حامي وبارد" وقد لعبها مع أخوته وأصدقائه، في حي النمامرة القريب من القطمون. وكان يخبىء قرشاً فلسطينياً على تاج العمود في فرندة بيتهم الحجري الجميل المعروف ببيت "الشركسي" وهو يرشد من يبحث عنه القدس بالقول " حامي بارد"، ويتساءل فيما إذا كان ذلك القرش الذي لم يتمكن أحد من إيجاده لا يزال هناك، تحت الاحتلال*. ويقول هذا وهو يشير إلى صورة البيت الجميل الذي نقله على لوحة من الصلصال يرفعها في مكتبه في عمان.

كانت الأمهات يسعدن وهن يرين بنات الحارة الصغيرات يرخين جدائلهن وشعورهن في شهر نيسان، عندما ينزل المطر القليل في هذا الموعد من السنة، ليبللن الشعر للاعتقاد السائد أنه يصبح "ناعما مثل الحرير" وهو يُسقى بماء "يُحيي الإنسان". وترتفع الأصوات مع الضحكات السعيدة:

- مطر نيسان يُحيي الإنسان.
- مطر نيسان يُحيي الإنسان.

وما زلت لليوم أتذكر هذه العملية التي كنت أقوم بها وأخواتي تحت مطر نيسان في الطفولة ومع ذاكرة مفرحة وجدائل مبللة تسقي الفستان الذي ألبسه.

وكانت البنات الصغيرات يتخاطفن من بعضهن البعض ملبّس "حامض وحلو" وجوز الهند الذي يشترينه من دكاكين البقالة في القدس العتيقة المنتشرة بكثرة. من محل باولو خريستوفورس وأولاده اليوناني في باب الخليل الذي كان يبيع جميع أنواع البقالة الإفرنجية وكان أيضا وكيل "كونياك بربارسوا" في باب الخليل وكان يتجمع عنده العرب والأجانب، أومن جاره إبراهيم رباح الدوري. أما محل حنّا ريشا فكان الأقرب إلى سوق البيزار، ومحمد

٥ للمزيد عن الألعاب الشعبية ، انظر، نمر سرحان، إحياء التراث الشعبي، عمان، دار فيلادلفيا ١٩٩٩، ونمر سرحان، موسوعة الفلكلور الفلسطين، عمان، ١٩٨٨

* نمر سرحان، موسوعة الفلكلور الفلسطيني، عمان، ١٩٨٨

سعيد طوطح من جيرانه، ونقولا سفر يادس في شارع دير الروم، وإبراهيم الشاويش وأخوه في شارع مأمن الله. ولم تبخل العائلات من شراء الحلويات للأطفال الذين أحبوها وأقاموا "المعارك" الطفولية البريئة ليتذوقوها بعد أن يكونوا قد قضوا على ما تصنعه الأمهات من الهيطلية، والهريسة، وأصابع زينب.

أسواق عامرة

عمّر الناس أسواق القدس العتيقة التي تكاد تكون متشابهة وهي تعجّ بالأصوات والحركة الدائبة منذ الصباح الباكر. كانت المدينة تجلب الناس النشيطين إلى أعمالهم، يتسارعون في الممرات والعتبات والقنطرات والأزقة والأسواق الممتدة التي تتناثر على جنباتها الدكاكين العامرة والغنية بجميع أنواع البضائع من مأكل وملبس وكل مستلزمات الحياة اليومية. ويتقاطع المارة وهم في طريقهم إلى الأسواق المتخصصة.

ويسلم الناس على بعض في الصباح :

– صباح الخير – صباح الرزق – صباح النور – يسعد صباحك

– صباح الورد – صباح الفل – نهارك سعيد

كعك القدس - كعك بسمسم

ويتنفس المارة في السوق عبق التاريخ مجبولاً برائحة الخبز، والجلود، والبهارات التي تنشطها أصوات البائعين الذين يدللون على بضاعتهم وأبرزهم بائع الكعك الذي يتغنى به، صائحاً: كعييك ..... كعييك.....

ولا يمكن للمارة في أي اتجاه إنكار صوته المحبب في الأزقة والحارات وهو يدعو المارة كل صباح لتذوق "الكعك بالسمسم" المشهور بطعمه، الذي تفوق على غيره من الأطعمة. وقد وجدت في القدس معامل للسمسم تنتج أيضاً "السيرج" الذي اشتهرت نساء القدس باستعماله في طبخ المحاشي المتنوعة التي تميزت المقدسية بإتقانها. واشتهر محل جورج إلياس شبيطة في باب خان الزيت وحارة النصارى ببيع السمسم والسيرج والطحينة والحلاوة. ولم يخلُ زقاق أو طريق من بائعي الكعك السخن مع البيض المشوي "والدّقة" أو الزعتر الناعم التي تنتشر رائحته المغرية في كل زاوية بدءاً من باب الخليل وباب العمود وفي الحارات داخل المدينة القديمة وخارجها. وهم يرددون بإصرار بأعلى أصواتهم وكأنها موسيقى خاصة.

كعييك .... كعييك.....



هيئة الغرفة التجارية بالقدس ١٩٣٦ : إحمد حلمي باشا، فضيلة الشيخ عبدالباري بركات، قسطندي سلامة، كامل وفا الدجاني، الياس جلاد، يوسف البينا، شبلي الجمل، فؤاد محي الدين النشاشيبي، فائز المهتدي، حسن فليبو، عبدالرحمن الجبشة. جورج أسعد خضر



سوق القدس ١٩٢٠



قرويات في باب العمود يبعن الخضار



كعك القدس الشهير





سوق الحصر

سخن يا كعك بسمسم سخن يا كعك..... بسمسم....

ويشكل التراكض لشراء طعام الإفطار من الكعك والبيض صورة ظلت في ذاكرة الأزقة، فطلاب المدارس المسرعين لصفوفهم خوفاً من التأخير وضرب المعلم على اليدين أو "فلقة". ويقفون لشراء الكعك والعمال الذاهبون لشغلهم المتعب أو العاطلون عن العمل الذين يتسكعون في المدينة، أو أصحاب الدكاكين الذين خرجوا من منازلهم دون إفطار. بالإضافة إلى أهل القرى الذين يحبون كعك القدس من "لمدينة"، وخاصة الفلاحات النشيطات وقد "سرحن" قبل طلوع الشمس، والندى لا يزال يُبلل التوت، والعنب وورق الدوالي، والرمان، والخوخ، والسفرجل، والمشمش التي يحملنها فوق رؤوسهن بالقامة الممدودة لأعلى. وعلى الرأس تتربع "القُبع" "والجونة" أو السلال الملونة بألوان التطريز على الأثواب المقلدة الطبيعة والحياة. وتحط البائعات في باب العمود، ويتنافسن مع بعضهن على بيع منتوج الأرض من النعنع والفجل، والباذنجان البتيري، والقرع الخليلي. وتعلو الأصوات، وتسمع إحدى النساء تشتري من بائعة من سلوان، وهي تفاصل السعر وتقول لها:

- – بدك تبيعي السلق على أهل سلوان؟

وبهذا تؤكد أنها خبيرة في شؤون منتوج سلوان الذي تشتهر به، كون سلوان خصبة الأراضي لوجود عيون مياه سلوان التي تسقي القدس .

وكان النساء والرجال يشترون الخضار والفواكه الطازجة، وتسمع الأصوات تتقاطع:

- أعطيني رطلين بندورة
- أعطيني ثلاثة كيلو خيار
- أعطيني بشلن ... أو بخمس قروش *

وتسمع الزبائن عند بائعي البُن في داخل باب العمود وحارات القدس يزنون المشتريات "بالأوقية"، وتجّار القمح والطحين والسكر، "بالقنطار والرطل". وكانت هذه الموازين مستعملة تحت الانتداب. أما تجار الأقمشة فيقيسون القماش بالذراع، ويستعملون طول ذراعهم بدل المتر .

وظلت قصة ترويها حفيدة مقدسية عن جدها، كيف اعترض على بائع القماش الذي قاس له القماش بذراعه القصير، وأصر على قياسه بنفسه بذراعه الطويل، بعد جدل سمعه المارون في

* الاوزان التي كانت مستعملة في تلك الفترة: الدرهم، وقيمته،(٣ر٢٠٥)غرامات الاوقة وقيمتها (٤٠٠) درهم (الكيلو) وقيمتة (١٠٠٠) غرام (الطن) وقيمته (١٠٠٠) غرام (الأوقية) وقيمتها (٧٥) درهما (القنطار) (١٠٠) رطل والرطل قيمتة (١٢) أوقية.

شارع أفتيموس، وكان الباعة عادة يزيدون "شبر" أو "فتر" من القماش ويقولون

- مبروك ... هذه زيادة البيّاع.

وفي السوق تسمع رنين العملة "الفراطة" المستعملة من الجنيه الفلسطيني ونصف الجنيه، والربع، وفئتان من عشرة قروش، والشلن، والقرش، والمليم. وكثيرا ما اشترت بنات وأولاد المدارس القضامة، والملبس، والحاملة بنصف قرش، أو بمليم من الباعة الذين ينتظرون خروجهم من المدرسة.

وتذوق كعك القدس أيضاً السياح الأجانب وهم يعلّقون كاميراتهم فوق صدورهم بحمالة تُلف على الرقبة يلتقطون صوراً تذكارية مع البائع الذي كان يبدو سعيداً، وهو يشاهد "الخواجات" الذين يلبسون البرنيطة يسجلون في دفاترهم الصغيرة ما يرون وما يتذوقون في القدس التي أتوا إليها من كل مدن العالم. وكان الباعة يسعدون وهم يستعملون ما يعرفون من كلمات انجليزية يتدربون بوضعها في جمل ركيكة لتصلهم بالزائر. كما حرص المترجم الذي يقود مجموعة من السيّاح الأجانب أو الحجاج، أن يقف ليشتري كعكته التي قد تسّد جوعه وهو يقود مجموعته السياحية في جولة للقدس العتيقة بأسواقها ودكاكينها ومقاهيها وأماكنها الدينية والتاريخية. وكان أطفال الحارات كثيرا ما يتجمعون حول السيّاح، ويراقبون أشكالهم وحركاتهم وانفعالاتهم ويستمعون للغات الغربية التي يتكلمونها مع بعض، ليلتقطوا بعض الكلمات

Good Morning. .. How are you?

بعض الأطفال كانوا يطلبون "بقشيش" منهم للاعتقاد أن هؤلاء الغرباء أغنياء يحملون الكثير من المال.

ازدهرت مهنة تراجم السيّاح في القدس بشكل واسع، وتخصّص بها القديرون على ترجمة اللغات العديدة العالمية للسيّاح. وكان أكثرهم من المسيحيين المقدسيين الذين تعلموا اللغات في المدارس الأجنبية. من بين مئات المترجمين والأدلاء يتذكر أحفاد أهل القدس، سليمان أبو جضم، خليل أبو شر، حنا أجرب، جمال إمام، ميشيل بيبي، تماري عطاالله، أنطون جلاد، عودة جهشان، أسعد خضر، توفيق رعد، يعقوب سابيلا، شكري سلمان، جورج عوري، يعقوب نسيبة، حنا يسمينه، يوسف صوابيني، صالح سنونو، عيسى سعد، كيون كوستان، كيفورك ليفوركيان، جورج ملوخية، وغيرهم.

ولم يلاحظ وجود بنات تعمل في هذه المهنة، رغم تمكن الكثيرات من إتقان لغات أجنبية. ويعزى ذلك إلى العادات والتقاليد التي كانت تشجّع مهنة المعلمة للبنات أكثر من



ممثلو الغرف التجارية في فلسطين ١٩٣٦، بينهم
(أول صف) طاهر المصري، عبدالرؤوف البيطار، طاهر قرمان، عبدالرحيم النابلسي،
(الصف الأخير) عرف منهم أنطوني الحلبي، شبلي الجمل، أنيس الجوري، هبة تمارى.

أية مهنة أخرى. إلا أن قلة من بنات القدس عملن في مجال السياحة، وكن رائدات في هذا المجال، فقد عملت ماري انطون عطاالله، في دائرة السياحة في القدس، بعد أن حصلت على شهادة الماجستير في الدراسات الاجتماعية، من جامعة هارفارد في الولايات المتحدة، مع إتقان للغة الانجليزية. وعادت للقدس، وقد حظيت بتلقي التعليم الجامعي مثل شقيقيها الطبيب والمهندس وهي البنت الوحيدة في العائلة. وبتغيير العادات الاجتماعية والواقع الاجتماعي، عملت ماري عطاالله في القدس، في دائرة السياحة التي كانت حكراً على الرجال وقد التقت بزميل لها (يعقوب جوري) من القدس العتيقة، ليقترنا، ولتصبح القـدس -الوطن- محطة القلب وذاكرة السعادة بعد النكبة وزوجها يعمل في الأمم المتحدة كما عملت في تلك الفترة في مكتبة مقر الجامعة العربية في نيويورك.

وظلت ذاكرة القدس تفاخر بالأصدقاء المثقفين والأمكنة التي تعايشوا فيها مثل مكتبة سلطانة حلبي. (١٩٠١-١٩٨٥) التي كانت إحداهن. فقد أحبت القراءة والعلم منذ صغرها، لتصبح من أوائل الرائدات ولتسافر لأمريكا لتحصل على درجة جامعية في التجارة عام ١٩٣٤، في الوقت الذي كان قلة من الرجال قد تخصصوا في هذا المجال. فقد كان تجار القدس والمدن الأخرى يمارسون المهنة دون الحصول على تخصص في ذلك، ويرثون المهنة أباً عن جد ويقولون "التجارة شطارة". وأثبتت سلطانة أنها رائدة مثقفة عندما أسست "دار الكتب"، إحدى أوائل المكتبات التجارية العامة في القدس. وكان موقع المكتبة خارج السور بين بوابة المسكوبية والبريد وراء بنك باركليز، لتشجع المثقفين من العرب والأجانب لزيارة المكتبة لشراء أهم الكتب العربية والأجنبية. ولم ينس يعقوب جوري وماري عطاالله من أهل القدس "الزاوية الفنية" في المكتبة التي كانت تعرض الأعمال الفنية الأوروبية العريقة مثل لوحات وإنتاج شركة T. Skira السويسرية التي تباهى المثقفون باقتنائها.

حملت سلطانة الحلبي بعد النكبة معها المشاعر الدافئة وحبها للكتاب كما ذاكرة المهنة والمكان العريق في القدس الذي لم تعد إليه بعد عام ١٩٤٨. ولأن الذاكرة ظلت حية، فقد أسست أول مكتبة تجارية في عمان، في شارع السلط أطلقت عليها اسم "دار الكتب" أيضا والتي ظلت وفيّة لها ولتتذكر مع الأصدقاء تفاعل المثقفين مع الثقافة والفن. وقد اشتهرت في القدس مكتبة وديع بولس سعيد بين ١٩٣٢-١٩٣٥، وكانت الوحيدة قبل مكتبة سلطانة، التي تستورد الكتب باللغة الانجليزية.

وعملت قلة من البنات في أعمال كانت من اختصاص الرجال، إحداهن نمرة طنوس، التي عملت في دائرة البريد. وانضمت للمناضلين بقيادة عبد القادر الحسيني، اذ كان عملها تأمين المخابرات الهاتفية. وتمكنت من شغل وظيفة ضابطة ارتباط بين القوات العربية والوسيط الدولي الكونت برنادوت الذي قتله الصهاينة عام ١٩٤٨. كما عملت في صفوف الجيش

الأردني كمتطوعة، وكانت ترتدي زي الجندية، كما الرجال. وفي الأربعينيات عملت نجلا حنا نصار أيضا في البريد وهي خريجة مدرسة الشميت ولتستمر بالعمل بعد النكبة في وظائف غير تقليدية منها العمل في الشركات كسكرتيرة. بالإضافة إلى ذلك فقد قامت قلة من النساء بالعمل في دائرة الشؤون الاجتماعية في القدس والخليل بينهن ربيحة الدجاني وكانت تقود السيارة بنفسها مع الزميلات والزملاء للوصول إلى العمل في الخليل. وواصلت عملها بعد النكبة في الكويت مع زوجها المربي المعروف درويش المقدادي.

وواصلت المرأة الفلسطينية ريادتها وعملها في مجال التعليم بعد النكبة لتحتل مراكز تعليمية وتساهم في عملية التنمية في البلدان العربية التي استضافت اللاجئين. وكان الإقبال على التعليم واسعا في مدارس المدن والمخيمات وقد أصبح ضروريا للبنت كالولد، وللمشاركة في الحياة الاقتصادية والمعيشية. وعلمت البنات بعد النكبة مباشرة في مدارس عمان والمدن الأخرى منهن رفقة النجار من (لفتا) أصبحت مديرة مدرسة الزرقاء ذات الصفوف القليلة لتجعل منها مدرسة ثانوية كاملة.عمل معها عدد من بنات القدس منهن ازدهار غوشة، هالة هندية، سميحة الدجاني ووجدان الكرد كما عملت المعلمات في الكويت والخليج للحاجة لهن في تأسيس المدارس. وكانت دولة الكويت قد طلبت عام ١٩٣٧، من المجلس الإسلامي الأعلى إرسال بعثة مدرسات، كان بينهن وجيهة توفيق الدجاني التي ترأست فرع جمعية النساء العربيات في يافا عام ١٩٢٩، وقد استقبلت عام ١٩٤٢ في منزلها في يافا، هدى شعراوي مع مجموعة من النساء النشيطات. وعمل كثير من النساء والرجال مباشرة بعد النكبة في "الأونروا" المختصة لإعالة وتعليم الفلسطينيين منهم عبدالله صلاح مدير "الأونروا" وسليم بسيسو وعريفة النجار في دائرة الشؤون الاجتماعية.

وعملت البنات الفلسطينيات من جميع المدن و البلدات الفلسطينية مباشرة بعد النكبة، بنشاط وبتشجيع من الأهالي، وتمكنت الكثيرات من إتمام تعليمهن في سنوات التشرد. كما عملت الكثيرات من بنات المدن والقرى والمخيمات بعد أن تخصصن في المجالات المتعددة ومنها الطب والهندسة والعلوم الإنسانية. بعد أن أصبح التعليم نعمة للبنات كما الأولاد من أجل المساهمة في الحياة المعيشية التي عاشها الفلسطينيون في الشتات، مع الإصرار على حقهم في العودة لفلسطين.



سلطانة حلبي مع والدتها وشقيقتها إميلي وأولادها أسعد وشكري عطاالله في العشرينيات



ماري عطالله رائدة في مجال السياحة مع والدتها ووالدها أنطون عطالله نائب رئيس بلدية القدس في الأربعينيات

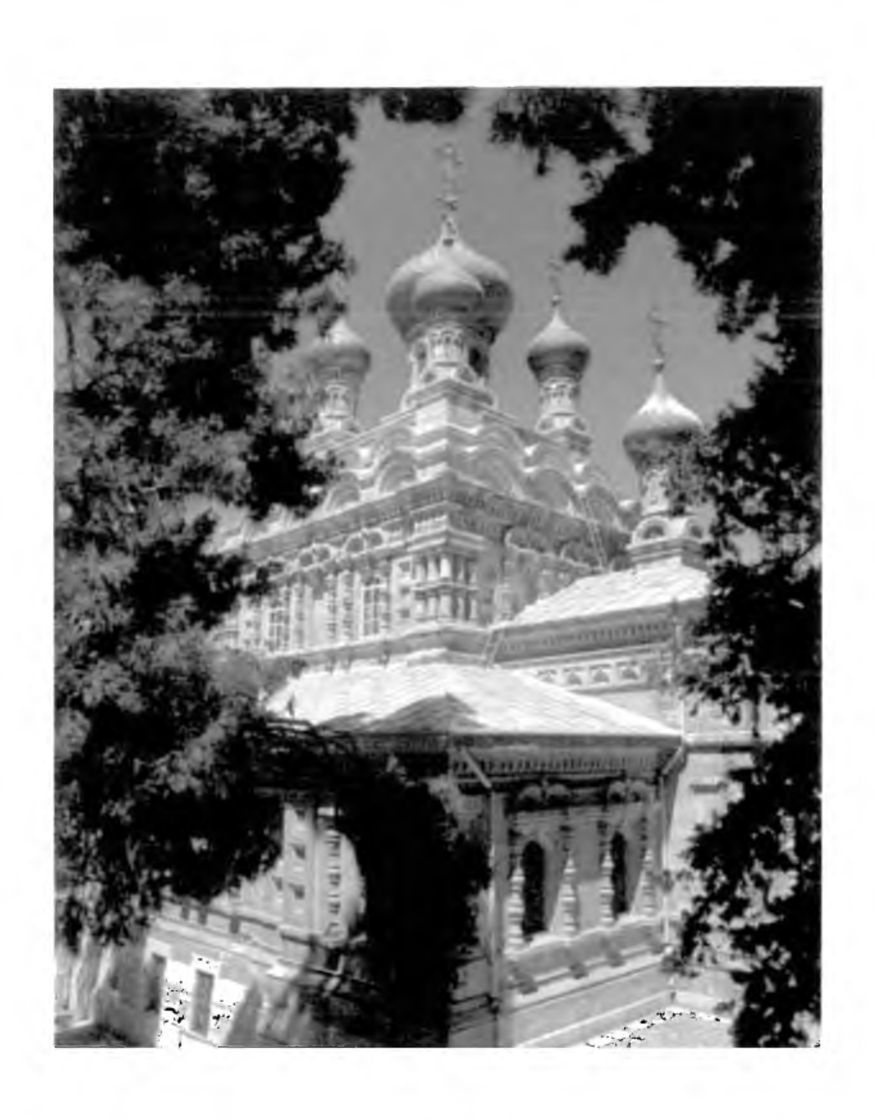


ربيحة الدجاني وزميلاتها مع اسماعيل طهبوب في رحلة عمل إلى بيت لحم ١٩٤٥



الفصل الثاني

قصور وأمكنة لها ذاكرة



٢

حرصت العائلات الموسرة منذ القرن التاسع عشر بالسكن في بيوت تليق بمركز صاحب البيت، وكان كثيرون بينهم من ذوي المراكز السياسية أو الدينية أو الاجتماعية. وظلت بيوت حجرية ضخمة لعائلات مقدسية عرفت "بالقصور" تحمل الهوية العربية وحق الأحفاد الذين يفاخرون بها لجمالها منذ القرن التاسع عشر، أو قبل ذلك. وكان في طليعة هذه القصور الفخمة التي سجلتها كتب التاريخ وذاكرة المقادسة قصر الخطيب في وادي الجوز، وقصور الشهابي، في منطقة المشارف، سبقها قصر القضماني وعبد القادر سعادة وقصر المصري. أما قصر الشيخ محمد الخليلي فقد عرفها أهل القدس وظل في الذاكرة منذ عام ١٨٦٠ عندما بني في باب الساهرة خاصة وقد أصبح مسكن "مدرسة الرشيدية" في مطلع القرن العشرين لتسجل غرفه أسماء معلمين ومربين أوائل أتوا من جميع أنحاء فلسطين.

وظل المكان في ذاكرة جبرا إبراهيم جبرا المكتوبة في "البئر الأولى" وكان من طلاب مدرسة الرشيدية العريقة المكان الذي علم فيه أساتذة أكفاء منهم عارف البديري الذي درّس اللغة العربية في الثلاثينيات مع أساتذة من ذوي التعليم العالي حيث تلقوه في بريطانيا وفرنسا ومصر وبيروت. ولم ينس "الطلاب" الذين أصبحوا شيوخاً أساتذتهم ومنهم وصفي العنبتاوي خريج جامعة أكسفورد، وضياء الخطيب، معلم التاريخ الذي أتم دراسته العليا في لندن، وحسن عرفات أستاذ الرياضيات خريج الجامعة الأمريكية في بيروت وجمال بدران معلم الرسم. كان بين الطلبة الذين درسوا في هذا المكان نبهاء أصبح بعضهم أدباء أو سياسيين أو من لهم أدوار اجتماعية، وكان بين الطلبة الذين سيصبح بعضهم شخصيات هامة منهم عبدالله الريماوي، وشريف الخضراء، طاهر البديري، وهشام النشاشيبي، وغالب هداية. وقد توافد الطلاب على المدرسة من المدن والقرى الأخرى لعدم وجود مدارس ثانوية فيها لتحفظ ذاكرة واسعة من أبناء فلسطين، كما نبيّن في (الفصل السادس).

وشهد مطلع القرن العشرين والعقد الثاني منه، هجرة واسعة القديمة من البلدة لعائلات سكنت حارات المدينة العتيقة سميت بأسمائهم: حارة الخوالدة، وحارة الشرف، والنمري،

وحارة الدواهدة، وحارة باب حطة، وحارة باب العامود، وباب الساهرة، وحارة النصارى، وحارة الأرمن. وانتقلت العائلات إلى البيوت، الى الأحياء الجديدة التي أخذت تنتشر في وادي الجوز، والشيخ جراح والثوري والطالبية والبقعة الفوقا والبقعة التحتا والقطمون، والمصرارة، وروميما، والتي تأثرت بالهندسة المعمارية الغربية.

وأقبلت العائلات الكبيرة والغنية على التنافس لبناء البيوت الواسعة الحديثة وليس فقط على الزعامة السياسية، وما يلحقها في الوضع الاجتماعي والديني. وقد ظهر هذا واضحاً في سنين الانتداب البريطاني (١٩٢٠-١٩٤٨)، حيث أفرزت بداية هذه المرحلة انقسامات وصراعات عائلية على الزعامة. وبرزت كتلتان في القدس، تمثلان عائلة الحسيني (المجلسيين) وعائلة النشاشيبي (المعارضة) للمجلسيين. وقد احتفظ آل الحسيني بأكبر منصبين إسلاميين في فلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني وهما منصب الإفتاء ومنصب المجلس الإسلامي الأعلى، بينما احتفظ آل النشاشيبي بمنصب رئاسة البلدية. وكانت عائلات الدجاني والعلمي قد سبقتهم في بناء بيوت خارج السور منذ القرن الثاني عشر على جبل صهيون. وظلت قصور قديمة منذ أواخر القرن التاسع عشر حيّة بحجارتها في القدس. وأفرز تنافس العائلات على الزعامة وجود "طبقة برجوازية"، احتكرت السلطة الفرص لوصول عائلات أو تكتلات أخرى تمثل الشعب وخاصة الفقراء. بالإضافة لم تمنع المنافسة على السلطة من تقريب العائلات المعروفة من المجلسيين والمعارضين. وخلقت نوعاً من التقارب الطبقي المقدسية الذي شجّع على التصاهر والزواج بينهم، مما أوجد تمييزاً طبقياً وعائلياً واضحاً في المجتمع المقدسي، حتى أواخر الانتداب.

ومن العائلات التي كانت تدعم المجلسيين (الحاج أمين الحسيني) في القدس، العنبتاوي، جار الله، الدجاني، الخالدي، الخطيب، الشهابي، العلمي، البيطار، وهبه، العمد، فتح الله، هداية، الامام، بركات، الوعري، الافغاني، ياسمين، عريقات، الغول، ابو الهدى، ابو غنام، شاهين، السعودي، الشرفا، عكه، قليبو، مراد، الهدمي، الحلواني، الجمل، عبدو، الخوري، جبشة، جوهرية، طليل، السكاكيني، الحلبي[٦].

كرم المفتي "قصر المفتي"

سميّ الكرم نسبة لمالكه السابق الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين قبل النكبة. وتقع فيه بناية قديمة على تلة عالية في الشيخ جراح تشرف على المدينة العتيقة بناها الشيخ طاهر الحسيني رئيس البلدية وهو والد الحاج أمين. ويعتبر هذا البناء التاريخي من أوائل البيوت

---

٦ عايدة النجار، صحافة فلسطين والحركة الوطنية في نصف قرن ١٩٠٠-١٩٤٨ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٥، ص٦١.

المقدسية التي بدأ أهل القدس تشييدها خارج أسوار البلدة في أواسط القرن التاسع عشر.

وتعرف هذه البناية "بقصر المفتي" وإن كانت مكونة من طابق واحد. فقد استحقت هذا الوصف لأنها بنيت من الحجر المشذب الجميل المسقوف بسقف حجري مقبب. بالإضافة إلى ذلك فقد تميّزت جوانب الأبواب والنوافذ بنقوش منحوتة بالحجر، تظهر الفن المعماري العربي والإسلامي عبارة عن فيلا رائعة من الحجر مشرفة على البلدة القديمة وكان والد الحاج أمين الحسيني قد وسّع البيت ليكون مقرا لإقامته بعد أن كان زمن والده بيتا صيفيا، ومكاناً لالتقاء الشخصيات الدينية والأدبية والعربية إلا أن المفتي لم يسكنه.

زادت خصوصية القصر بعد أن استأجره صديق المفتي جورج أنطونيوس، ليصبح المكان محطة للأدباء والمثقفين والشخصيات السياسية. وأنطونيوس (١٨٩١-١٩٤٢) هو الأديب والسياسي اللبناني الأصل، وأول مؤرخ للقومية العربية، ويعتبر كتابة "يقظة العرب" (١٩٣٨) من أهم الكتب التي صدرت في الثلاثينيات ومرجعا هاما للمؤرخين اليوم. لعبت كيتي زوجة أنطونيوس، وهي ابنة الصحافي فارس نمر صاحب جريدة المقطم القاهرة اليومية، دورا مكملا ونشطا لدور زوجها الثقافي الراقي. وبعد موت زوجها عام (١٩٤٢) واصلت لفت النظر للقصر الذي ظل يرحب بضيوفه بالآية القرآنية المكتوبة على بابه "ادخلوها بسلام آمنين". ولعل ما كان يدور في أروقة وصالونات القصر بين الشخصيات السياسية، وما يتباحثون فيه من قضايا خطيرة يحتاج لمثل هذا الدعاء خاصّة وكان بين الزوار شخصيات تاريخية وسياسية أجنبية وعربية بينهم، نوري السعيد، وغلوب باشا، قائد الجيش العري الأردني واللورد مونتغمري الذي كان يعود للبيت للاستفادة من كتب وأوراق الكاتب الذي أرّخ لحركة العرب القومية[٧].

كانت كيتي المتأثرة ببنات الغرب وابنتها الوحيدة ثريا الملقبة "توتو" أكثر انفتاحاً على الحياة الاجتماعية المختلطة من النساء الفلسطينيات. وصادقن زوجات الزعماء السياسيين والنخبة من العرب والأجانب تحت الانتداب كما الشخصيات الأجنبية من قناصل الدول الأوروبية، وزوجاتهم والمندوبون الساميون وزوجاتهم. إضافة إلى ذلك كانت كيتي ناشطة في الحركة النسائية الفلسطينية وحضرت المؤتمر النسائي الشرقي الذي عُقد في القاهرة برئاسة هدى شعراوي عام ١٩٣٨ من ضمن الوفد الفلسطيني. واختزنت ذاكرة حديقة "القصر" حفلات موسيقية راقية أحياها فنانون وموسيقيون من فلسطين ولبنان ومصر، تمتع بها ضيوف أنطونيوس وكيتي في بيت حجري تاريخي عريق يحيط به ما يسمى لليوم "بكرم المفتي".

---

٧ «هل يسقط قصر أنطونيوس والنشاشيبي في قبضة إسرائيل»، جريدة الشرق الأوسط ٢٦/سبتمبر ٢٠٠٧، مقابلة مع الصحافي ناصر الدين النشاشيبي.

تكاثرت بيوت "المقادسة" في المنطقة الجديدة، وتكاثرت بيوت آل الحسيني في حي سمّي "بحيّ الحسينية" في باب الساهرة والمعروف اليوم (بالأميركان كولوني)، ويضم البيوت القديمة لسليم الحسيني، ورباح الحسيني، وعارف الحسيني وإسماعيل الحسيني، ويعرف بيت الأخير (ببيت الشرق). وهو تحفة معمارية، وموقعه يؤكد تميز المقادسة بالذوق المعماري الجميل. كان في الجوار بيوتاً تعود لعائلة العفيفي والسباعي، والبديري والخطيب، وقد بُنيت في أواخر القرن التاسع عشر، وأخرى تعود إلى عائلات الخالدي، والدزدار والعلمي ونسيبة وجارالله وشرف. وتميّزت هذه البيوت المقدسية بفخامتها وبجمال هندستها وحجرها الجميل ومنه اللون الوردي، بالإضافة إلى جمال "البلكونة" المزينة "بالدربزين" الحديدي والأدراج الخارجية. يُضيف لجمالها جاذبية، الأزهار المزروعة بالأصص المطلة على الحدائق الخضراء بفضل أشجار النخيل والسرو، والورد الجوري الذي ينشر رائحته للأعلى لتدخل من شبابيك المنازل أيام الربيع فيتوزع الهواء العليل.

قصر اسعاف النشاشيبي والقيشاني الأزرق

كانت عائلة النشاشيبي المتنافسة على الزعامة السياسية والاجتماعية قد قامت ببناء قصور حجرية خارج أسوار القدس العتيقة. وبنى الحاج خليل النشاشيبي قصراً في حي الشيخ جراح في منتصف القرن التاسع عشر. وبلغ عدد غرف القصر الفخم أربعين غرفة تتوزع على أربعة طوابق لعائلته الممتدة، من الأولاد وزوجاتهم وأبنائهم، ومنهم حسين وجميل ومنير وإسحاق وعادل النشاشيبي، وفخري النشاشيبي والأخوات زينب وفاطمة ورسمية. وقد خصّ الحاج خليل زوجاته الأربع كل بجناح فيه كل مظاهر الحياة العصرية. وبنى رشيد النشاشيبي بالجوار بيتا فخما بالقرب مما يعرف اليوم ب (فندق الامباسادور) في الشيخ جراح وان تغيّرت معالم الحيّ بسبب الاحتلال الإسرائيلي.

أما قصر محمد إسعاف عثمان النشاشيبي[٨]، أديب العربية (١٨٨٢–١٩٤٨) في الشيخ جراح، فقد ظل موضع الإعجاب طوال عمره لجمال معماره ودوره الثقافي والأدبي والاجتماعي، فالقصر بُني عام ١٩٢٢، في الشيخ جراح، ويتكون من طابقين، تحيط به حديقة غنّاء تجمّلها نخلتان تقفان في المدخل. وقد فرضتا نفسيهما على المكان على مر الزمان. وقد أصبح القصر اليوم هدف الاحتلال الإسرائيلي للاستيلاء عليه مع كرم المفتي للقيمة التراثية والتاريخية للبناء والأرض المزروعة بالزيتون وبعنوان الهوية الفلسطينية. وأصبح القصران عرضة للإبادة والسرقة كما بقية الدور الفلسطينية التراثية. لم يتميز قصر إسعاف النشاشيبي لأنه شيد من الحجر الجميل فقط، بل اشتهر بطلته الجميلة في قلب الشيخ جراح بحجارته الوردية

٨ سعيد مضية، رواد التنوير، في فلسطين، الانتشار العربي، ٢٠٠٨،بيروت، ص ٢٩٦—٢٩٧.



قصر محمد اسعاف عثمان النشاشيبي ١٩٢٢ في الشيخ جراح



اسعاف النشاشيبي



دار الشيخ أسعد الإمام ،
جانب من بيوت القدس العتيقة

اللون ليباهي المكان ما حوله من الدور، ويصبح معلماً تاريخياً يذكر في الأدب والفن كما في تاريخ العمارة. وزاد جماله الزخارف الإبداعية الإسلامية التي تزين الواجهة الأمامية الجنوبية والجدار الشرقي بالقيشاني الأزرق.

وقد أبدع في الثلاثينيات (نيشان باليان) و (ميغدريش كركشيان) من أهل القدس الأرمن المهرة بتصميم التحفة المعمارية من القيشاني الذي صُنع في معمل الفخار الفلسطيني الذي يملكونه، ويقع في القدس طريق نابلس. والمصنع متخصص بصناعة كافة أنواع الفخار من أواني وبلاط الحائط وغيرها بأشكال وأنواع متنوعة من "الطين" الفلسطيني المحلي، الصامد في الأرض التي أحبّها أهل فلسطين. كانت صناعة القيشاني قد وُلدت في أوائل العشرينيات في المؤسسة الألمانية (دار الأيتام السورية المعروفة بشنلر). وكان المصنع يقوم بجهد رجل واحد في البداية الأرمني (داود اوهانسيان) الذي أتقن مهنته وأبدع في عمله، وقد أصبح معروفاً في صناعة القيشاني والبلاط وصناعة القزاز والخزف. وقام المجلس الإسلامي الأعلى عام ١٩٢٧ بترميم قيشاني مسجد الصخرة الذي ضعف خاصة وأنه بُني في القرن السادس عشر وأصبح بحاجة للترميم. وأتقن العمل عدد من أبناء بيت المقدس الذين تدربوا على أيدي خبراء من استانبول لبناء الأفران وصناعة القيشاني الجميل.

كان بين من اشتغلوا في ترميم قيشاني قبة المسجد الأقصى عام ١٩٢٧ الفنان جمال بدران للزخارف العربية والكتابة الكوفية. وهو من مواليد حيفا عام ١٩٠٩. قد درس في كلية الفنون التطبيقية في القاهرة ١٩٢٧، قبل أن يوفد بين ١٩٣٤–١٩٣٧ للتخصص في الفنون والصناعات الفنية في لندن.

وقام بتدريس التربية الفنية في الكلية العربية والمدرسة الرشيدية في القدس للطلاب الوافدين للمدرسة من جميع أنحاء فلسطين ومن بينهم : جبرا إبراهيم جبرا الذي سيصبح من أبرز المؤلفين والأدباء والفنانين التشكيليين الفلسطينيين بعد النكبة. كما كان تأثيره على شريف الخضرا الذي سيصبح فناناً تشكيلياً. وحفز الفنان طلابه لمحبة القدس والزخرفة الإسلامية في المسجد الأقصى، حيث كان يصطحبهم إلى الحرم الشريف لنقل زخارف الجدران والآيات المكتوبة على قيشان القبة كما كان تأثيرة قويا على أفراد عائلته*.

وأحب الكثيرون من أهل القدس تزيين مداخل بيوتهم بالقيشاني المزخرفة بالنقوش الشرقية كما تباهت نساء القدس بتقديم الفاكهة والطعام والحلويات والمُكسرات للضيوف في

* تأثرت ابنتاه ليلى التي درست الصيدلة وسميرة التي درست الفن لتحملان الاعتزاز بفنونه وإنجازاته.
للمزيد عن جمال بدران، عبد الرزاق بدران، وخيري بدران وراسم بدران انظر الفن التشكيلي إسماعيل شموط، الفن التشكيلي في فلسطين ١٩٨٩. أصبح ابنه راسم بدران احد أهم البارزين في المعمار المعاصر الذي تبنى التراث كعامل أساسي لطرح موضوع الهوية والتجديد.

أطباق مصنوعة من "الخزف" المزخرف برسومات أزهار وطيور وحيوانات فلسطين المتنوعة وقد حافظت عليها لتظل ذاكرتها حيّة تُسجل أنواعاً من الأزهار والطيور والحيوانات التي انقرضت بسبب الاحتلال والعبث بالبيئة الطبيعية وبناء المستوطنات التي تقتل الشجر والحجر.

وحفظت ذاكرة قيشاني قصر النشاشيبي التراثي والمعلم التاريخي المشهور "بقيشانه"، أسماء الأدباء والسفراء والسياسيين الفلسطينيين والعرب الذين حلّوا فيه ضيوفاً. ولعل أروقته وقاعاته وحيطان غرفه ما زالت تحنّ لضيوف صاحب المكان إسعاف النشاشيبي، الذي كان أصحابه من الفلسطينيين والعرب. وبالرغم من التنافس العائلي مع آل الحسيني على الزعامة، كان الحاج أمين الحسيني بين رواد قصر النشاشيبي، بالإضافة إلى حسام الدين جار الله، وعبد الكريم الكرمي، وإبراهيم طوقان، وخليل السكاكيني وشخصيات لها مكانتها الأدبية والثقافية في المجتمع الفلسطيني. ولم يقتصر أحباء صاحب القصر على أبناء بلده، بل كانت شخصيات عربية معروفة بين المنتدين والمتسامرين من بينهم بشارة الخوري وشكيب أرسلان، والمازني، وخليل مردم، والزيات، ومعروف الرصافي.

وتغنّى معروف الرصافي الشاعر العراقي العريق في قصيدته في إليا* بالأديبين إسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني بعد نزوله ضيفاً في القصر:

نزلتُ الياء على كرام وضيم العيش عاد بهم مريّا

فكدتُ بقربهم أنسى بلادي وأسلو ألطف ثمه والغربا

ولم أر كالنشاشيبي نديّا إلى العلياء مبتدرا جريا

فتى سعت المناخر وهي عطشى إلى آدابه فأصبن ريّا

إلى الشهم السكاكيني أهدي ثناءً لا يزالُ به حريّا

فتى غرس المكارم ثُم منها جنى تمر العُلى غضاً طريّا

وقال فيهم أيضاً عندما استذكر القصر:

وكان فيها النشاشيبي يُسعفني وكنتُ فيها خليلاً للسكاكيني.

لم تنته أهمية القصر برحيل النشاشيبي عام ١٩٤٨. إذ يكفي المكان فخراً أن دماء الشهيدة الطالبة رجاء أبو غزالة روت تراب حديقته، وهي تحاول إنزال العلم الفرنسي عن المكان الذي أصبح مقراً للقنصلية الفرنسية لسنوات عدة ويكفيه فخراً وقد سقطت على أرضه الطالبة التي

* آلياء أو اليا أحد أسماء القدس الكنعانية.

كانت تشارك في مظاهرة ضد حلف بغداد عام ١٩٥٥. وقد زادت عراقة البيت وأهميته التراثية والوطنية أنه ضُم إلى مؤسسة دار الطفل العربي الذي أسسته هند طاهر الحسيني عام ١٩٤٨، لتأوي ضحايا مذبحة دير ياسين وليؤسس فيه الدكتور إسحق موسى الحسيني في وقت لاحق مركزاً للأبحاث الإسلامية الذي يضم مكتبات غنيّة تبرع بها مثقفون فلسطينيون منذ عام ١٩٩٩ لحفظها في المكان العريق الذي ظل يحمل الهوية والعنوان المقدسي. وكان بين المتبرعين بالمخطوطات "وجيهه" أرملة الشهيد عبد القادر الحسيني.

مبان ضخمة

كان التطور الحضري في القدس واسعاً في سنين الانتداب البريطاني، لعدة أسباب منها زيادة الهجرة اليهودية وإقامة مؤسسات يهودية وأوروبية كمراكز تخدم مصالحها. وبنيت عمارات كثيرة في القدس للسكن والتجارة خارج السور. قام اليهود ببناء الجامعة العبرية (١٩٢٥) على جبل المشارف، وأقامت الإرساليات معاهدها مثل كلية "الترسنطة" ومعهد "الجسويت" عام ١٩٢٧ وفندق بالاس ١٩٢٩، وفي الثلاثينيات بُني فندق الملك داوود، ومبنى البلدية، والخرانة، والتي عرفها الفلسطينيون بعمارة السبع التابعة لشركة التأمين الإيطالية عام ١٩٣٠. وفي الثلاثينيات ازدادت موجة البناء للمرافق العامة كما السكن في الأحياء الجديدة، فأقيمت سينما إديسون عام ١٩٣٢، ومبنى جمعية الشبان المسيحية ١٩٣٣، والمتحف الفلسطيني (روكفلر) ١٩٣٢، ومستشفى هداسا على جبل المشارف. وبُني مقر المندوب السامي البريطاني أو مركز الحكومة على جبل المكبّر عام ١٩٣٣.

وكانت الإرساليات والمؤسسات التبشيرية الأوروبية، قد بنت عدة عمارات لتخدم أغراضها منذ القرن التاسع عشر، منها بيت المبشّر جوهان شنلر الذي طوّر المكان ليكون مشروعا خيريا ومدرسة تتخصص بتعليم المهن والصناعات ومن بينهم العميان وبينهم بنات. وقد عُرفت فيما بعد بدار الأيتام الإسلامية الصناعية "واتسعت لتشمل معامل للخزف ومصانع للحدادة والكراسي والنجارة. وتقع شنلر على أراضي قرية لفتا شمال القدس على (٥٥) دونما، واشتهر المكان بجمال الغابة المزروعة حول البناء وظل المكان في ذاكرة طفولتي حياً كنت ألعب في "حرش شنلر" مع أخواتي وأولاد وبنات الجيران تحت أشجار الصنوبر العالية التي شهدت شقاوة الطفولة الجميلة التي تركت جروحاً على السيقان بسبب تسلق الأشجار والسقوط عنها.

وبنى الروس، مجمّعا كبيرا عُرف "بالمسكوبية" وتضمن الأبنية على مركز للبعثة الروسية، وفندق يستقبل المصلين، بالإضافة لمستشفى. ولم يتباطأ الألمان في بناء مقر يبشرون منه، وأقاموا مدرسة "طاليتا قومي" على أراض في الخليل. أما الفرنسيون فكانوا الأكثر حباً لإثبات



عمارة المجلس الإسلامي الأعلى (فندق القصر) ١٩٢٩

(مثلما بنى آباؤنا وفعلوا نبني ونفعل)



فندق الملك داوود في منصف الثلاثينيات من القرن العشرين

الوجود في القدس، عندما بنوا عمارة "النوتردام" المشهورة في القدس، والتي كانت الأولى لتنار بالكهرباء. كما بنى الحجاج الألمان عام ١٨٨٦ عمارة مقابل باب العمود تحّولت منذ الانتداب البريطاني إلى مدرسة للبنات، "الشميث" ساهمت في تعليم الكثيرات من بنات فلسطين وشرق الأردن. وأنشئت مدرسة التراسنتا لتكون من العمارات الضخمة التي بنيت في العشرينيات[٩].

عمارة المجلس الإسلامي الأعلى (فندق القصر) Palace Hotel

وبين هذه العمارات التاريخية، اشتهرت عمارة "المجلس الإسلامي الأعلى" أو فندق القصر" وقد أقيم عام ١٩٢٩ في منطقة "ماميلا"، مقابل مقبرة ماميلا الإسلامية التاريخية، وبُني الفندق على النمط العمراني الشرقي مثل المنحوتات الحجرية والأقواس المأخوذة عن قصر الحمراء في الأندلس. وتكوّن البناء من أربعة طوابق، وأصبح من أفخم الفنادق واحتوى الفندق الفخم على (١٤٠) غرفة، بني على أحدث طراز فيها مصاعد لاستخدام النزلاء وتدفئة مركزية. إلا أن هذا المشروع "الفندق" لم يتمكن من منافسة اليهود عندما بنوا فندق الملك داوود عام ١٩٣١ مما اضطر المجلس الأعلى إلى إغلاقه عام ١٩٣٦. وكان الهدف من إقامته تمويل مشاريع الأوقاف الإسلامية التي كان يرأسها الحاج أمين الحسيني.هذا البناء المميّز كغيره من القصور والبيوت الفلسطينية بُنيت بحجارة مقدسية بناها مئات من العمال العرب الكادحين الفقراء. وقد استولت عليها إسرائيل عام ١٩٤٨، فغيّرت معالمه الداخلية، فيما بقيت الكتابة على الواجهة ظاهرة، بحروف بارزة.

"مثلما بنى آباؤنا وفعلوا نبني ونفعل"

وقد أصبح البناء موضع نقاش وإسرائيل تحوّل ملكيته لسلسلة فنادق عالمية، وإن ظل الهيكل الخارجي شاهداً على العمارة الأندلسية. بالإضافة إلى ذلك كان مصير أكثر المباني العربية مثله في منطقة ماميلا التجارية التي كانت تضم بنوكاً ومخازن تجارية ومكاتب حكومية، ودائرة عامة للبريد. وظل محل (سبينس) لبيع الملابس والبضائع المستوردة من بريطانيا في ذاكرة أهل القدس، كما دور السينما وسوق الجمعة القريب منه لبيع المواشي، كما ظلت بيوت حجرية جميلة توزّعت في الأحياء الجديدة البقعة الفوقا والبقعة التحتا، والقطمون والثوري والمصرارة والطالبية وروميما شيد فيها دور لأهل لفتا. ظلت حجارتها شاهدة على عمل من بنوها وسجلوا عناوينهم على واجهتها، منذ أن بنيت في مطلع القرن العشرين.

---

٩ للمزيد عن المعالم العمرانية :عدنان،عبد الرازق، الازدهار المعماري في غرب القدس المحتلة، جمعية الدراسات العربية، القدس الشريف، ٢٠٠٩.

الجيران في القدس الجديدة

وعَرف الناس بعضهم بعضاً كجيران وأصدقاء في الأحياء الجديدة، حيث لعب الأطفال مع بعض ألعاب الطفولة ومشوا للمدرسة معاً في أسواق القدس، وأحبّوا بعضهم وتبادلوا نظرات الحب والإعجاب ليرتبطوا بالزواج والنسب في كثر من الحالات. ففي حي القطمون وجدت بيوت حجرية فخمة، بنيت على الطراز العصري مع الاحتفاظ بهوية شرقية. ومن هذه البيوت بُيت السكاكيني الذي وصفه لابنه سريّ في رسائله له في الثلاثينيات وأخبره عن بعض الجيران والأصدقاء الذي يسكنون القطمون، ومن جيرانه وأصدقائه كانوا في الحيّ الراقي عائلة حرامي، وسنونو، وشماس، ونصّار، ودمياني، والحسيني، والداهودي، وسردسيان، وطوطح، ومعتوق، وكتاب، والمهتدي، وكنعان، وزعترة، وحداد، وكالوتي، والديسي، وفريج، وعابدين، وحزينة، ومراد، والبنا، وكرام، وخروفة، والغوري.

وتباهت العائلات المقدسية ببيوتها الواسعة الجميلة، ذات الحدائق الملونة بفرح في حيّ البقعة الفوقا الجديد، وقد أخذت تزداد والمنطقة تتوسع وتزدهر قبل النكبة. وعرف الجيران بعضهم البعض وتزاورت النساء ورقصن في الاستقبالات ومناسبات الأفراح التي ظلت في ذاكرة سكان هذا الحيّ الراقي من عائلات: جحشان، قطان، قواس، القدسي، دجاني، عابدين، عطاالله، عوض، عكرة، عويضة، غربية، دكرنيان، الداوودي، البيروتي وغيرهم.

وتنافس حيّ البقعة التحتا مع الفوقا والناس يقيمون بيوتهم الجديدة خارج السور، لتتمتع العائلات التي سكنتها بحياة عصرية. فالسكان كانوا من التجار والموظفين والمثقفين من بينهم من العائلات المقدسية:عائلة الداوودي، أبو الفيلات، درويش، نزهة، مرقة، الفاروقي، شهوان، الجاعوني، الطويل، حداد، منصور، شحادة، سلهب، عقل، قريطم، احجا، قبيسي، طنوس، طليل، خوري، بيطار، بركات، سلامة، الرشق، كششيان، نخلة، الكيلاني، عناني، وغيرهم.

وفي حيّ "النمامرة" ظلت ذاكرة من تركوا ممتلكاتهم وبيوتهم في المكان، كما عناوينهم المسروقة ومنهم عائلات: النمري، الشهابي "الشركسي"، أي عائلة حقي، حمودة، العسلي، الدباغ، العلمي، زوانة، طوقان، خلف، السقا، بديري، أيوب، البخاري، سنقرط، الحرامي، خليلي، بركات، كاملة الخليلي، انقر، السفر، كيابي، الهندي، رضوان.

وسكن عدد كبير من عائلة الدجاني في حي سميّ "بالدجانية"، ولم يقتصر الحي عليهم بل ضم أراضي وبيوت لعدد من أهل القدس، بينهم: فرعون، أبو السعود، الكسواني، التكروري، طهبوب، جقمان، الزغير، الدسوقي، البورنو، حرب.

واهتم أهل القدس بشراء الأراضي وبناء البيوت في الأماكن التي أخذت بالتوسع والتمدد ومنها حيّ "الكولونية الألمانية" حيث عرف الجيران بعضهم بعضا ومنهم عائلات، حنانيا،

الطزيز، بركات، الخيّاط، محشي، فرعون، النمري، العسلي، الأمعري. وظل رباط الذاكرة يعيدهم إلى ما قبل الشتات،وليتبادلوا قصصاً وحياة كانت سعيدة.

وظهر حي باسم "البقعة الوعرية"، حيث كانت قريبة من البقعة التي أخذت ببناء المزيد من البيوت الحديثة التي جذبت الناس في مرحلة كان الحراك الاجتماعي نشطا. ومن العائلات التي اشترت أراضي أو بنت عليها: النابلسي، الكالوتي، الارناؤوط، نتشه، جبشة، الدقاق، اسطنبولي، حب رمان، حمودة، أبو ميزر، كرّام، عوض، الدزدار، سنيورة.

واستقطب "حيّ الثوري" الذي كان يعرف أيضاً بـ(أبو طور) كثيرا من العائلات المقدسية أو ممن سكن في القدس من المدن الأخرى، وتجاورت عائلات: هداية [١٠]، وفا، أبو غزالة، أبو الفيلات، العلمي، المؤقت، السعدي، النابلسي، بدر، اتكيديك، قطان، الحزينة، عوض. ليسعد الأصدقاء بأوقات جميلة، وليصنعوا ذاكرة حياة اجتماعية مفعمة بالنشاط. وفي هذا الحي سكنت في طفولتي في بيت "هداية" مع العائلة عام ١٩٤٨ على اثر مذبحة دير ياسين لبضعة أشهر بعد النزوح من (لفتا) قرب حرش شنلر، وأتذكر من الجيران آل أبو الفيلات ووفا، وأبو غزالة، وكرام والداوودي. واتذكر كيف كنت أذهب مع بنات الجيران إلى مدرسة المأمونية في باص مصفح لفترة قصيرة بعد الرحيل الأول من بيتنا في لفتا وقبل الرحيل الطويل للشتات.

وأحبّ الناس في القدس السُكنى في "حي المصرارة"، الأقرب إلى باب العمود والمدينة العتيقة كما حيّ الشيخ جراح الذي أخذ بالازدهار في الثلاثينيات من القرن العشرين. وتميّز بوجود البنايات التجارية، وكان فيه أيضاً مبنى "الإذاعة" التي عمل فيها الكثيرون من المثقفين العرب، بينهم عجاج نويهض مدير الإذاعة الذي كان يسكن في البقعة، كما إبراهيم طوقان، وسكنت فيه الشاعرة فدوى طوقان، التي رافقت شقيقها إلى القدس. وتتذكر كثيرات من نساء القدس هذا المصرارة الذي كان فيه مدرسة "السلزيان" الإيطالية التي درست الكثيرات فيها وقد عُرفت بتعليمها للفنون والموسيقى، والتطريز. ومن العائلات التي كان لها عقارات في هذا الحي من العائلات النجار (لفتا)، ولها فيه أربع عمارات سكنية ضخمة، وممن سكنوا فيه الأنصاري، وحلبي، البهو، الكسواني، مشحور، المؤقت، زعاترة، سبيتان، العارف، البشيتي، حرامي، الأنصاري، الخالدي، العلمي، الفار، مرقة، سابا، شرف.

ونظراً للنهضة المعمارية والإقبال على بناء العمارات الحديثة شهدت القدس في الثلاثينيات إقبالا على دراسة الهندسة المدنية والمعمارية وتحضير الخرائط، وتشييد العمارات في الخارج وكان بين المهندسين المعماريين الممارسين للمهنة في القدس محمود البديري ومكتبه في ساحة اللنبي، وانضوني جبرائيل برامكي عمارة الأرمن، شارع يافا أمام البلدية ت (٧٨٣)

١٠ للمزيد عن بيوت القدس الجديدة، عدنان عبد الرازق المصدر السابق.



جلال هاشم من سكان القطمون مع زوجته سعاد هاشم والعائلة، ويرى عقيل الذي اصبح اعلاميا بارزا، وسلافة وحنان (الثانية من اليسار) ام علاء التي اصبحت زوجة ضياء الدين طوقان، والدة الملكة علياء الحسين وجدة الأمير علي والأميرة هيا بنت الحسين



مدير دار الإذاعة الفلسطينية
عجاج نويهض مع عائلته ١٩٣٦



روحي عبدالهادي
مع زوجته وشقيقته
سامية زوجة الشاعر
ابراهيم طوقان

ورشدي إمام الحسيني باب الساهرة ت (٥٢٩) وبطرس شامية شارع مأمن الله ت (١٩١٩) وجورج سابا شبر في شارع مأمن الله ت (٥٧٢) وداود طليل شارع مأمن الله رقم ٤٤ ت ١٧٧٧، وكان لديه عنوان برقي، ونصري إلياس مقحار الذي كان متخصصا في تحضير الخرائط وتشييد العمارات، وكذلك نجيب منصور خريج جامعة الهندسة الألمانية، وكان في عمارة الأرمن شارع يافا ت (٥٤٩) ونجيب مرقص. وفي الأربعينيات أقبل الشباب على دراسة الهندسة في الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان من بين الخريجين قبل النكبة عارف علي النجار، الذي واصل المهنة في الأردن بعد النكبة ليصبح من أبرز المتعهدين. وعادل الخالدي، الذي أصبح سفيرا للأردن بعد النكبة.

أمكنة لمبيت الرحّالة

لم تنقطع منذ القدم رحلات الرحّالة، والحجاج والزوار من مسلمين ومسيحيين إلى القدس ونشطت في ظل الحكم العثماني والانتداب البريطاني. وتركزت رحلاتهم لزيارة المقامات والمزارات والآثار الإسلامية والمسيحية، والحرم الشريف والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة، بالإضافة إلى أماكن أخرى مجاورة في أكناف القدس. واستقطبت كنيسة المهد في بيت لحم وقبور إبراهيم الخليل، وأولاده يعقوب وإسحاق ويوسف وزوجاتهم الواقعة بين الخليل والقدس، بالإضافة لزيارة المزارات والقبور التي تقع بين القدس وأريحا، أثناء سلوكهم طرقا متعددة من القاهرة أو دمشق، أو بيروت وإن كانت بوسائل نقل مختلفة، من سكة حديد الحجاز إلى ركوب الدواب.

كانت زيارة الرحّالة تقتصر بغالبيتها على الرجال في ذلك الزمن، وقد اتسمت تلك الرحلات بالتعب والعناء، لقلة النوم والراحة أثناء السفر. ولعدم وجود فنادق مريحة فقد كانوا ينزلون في الزوايا والمساجد، والنزل، ومدارس والحانات، أو استئجار الدور القريبة من الأماكن الدينية داخل القدس القديمة. بالإضافة إلى ذلك كانت تنصب للزوار في مواسم الأعياد، الشوادر، مثل موسم النبي موسى وعيد الصعود عند المسيحيين. وقد اهتمت الشخصيات المقدسية الدينية ذات المركز الاجتماعي المرموق. وقام الميسورون من التجار بإنزال الضيوف من الرحالة ورجال العلم المرموقين في دورهم الواسعة. وكانوا يقدمون لهم المسكن والمأكل ويوفرون لهم كل وسائل الراحة أثناء إقامتهم في القدس، كما جاء في وصف الرحالة في شهاداتهم[11]. فالقدس كانت لهم المدينة المقدسة التي يقصدونها للحج والتبرك. وكانوا أيضاً يصطحبونهم إلى مدن أخرى في رحلاتهم عبر القدس ويرافقهم أيضاً في تجوالهم تراجمة من أهل القدس

---

١١ د. كامل العسلي، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين. عمان، ١٩٩٢، تفاصيل عن الرحلات للقدس منذ القرن الخامس الى القرن الخامس عشر .

يتقنون اللغات الأجنبية من فرنسية وانجليزية وروسية وألمانية وإسبانية وغيرها. كان الرحالة يفضلون المبيت بالقرب من الأماكن الدينية، أو المكتبات العلمية مثل مكتبة الخالدية الواقعة في جوار الحرم، لينكبوا على الدراسة والتعلم.

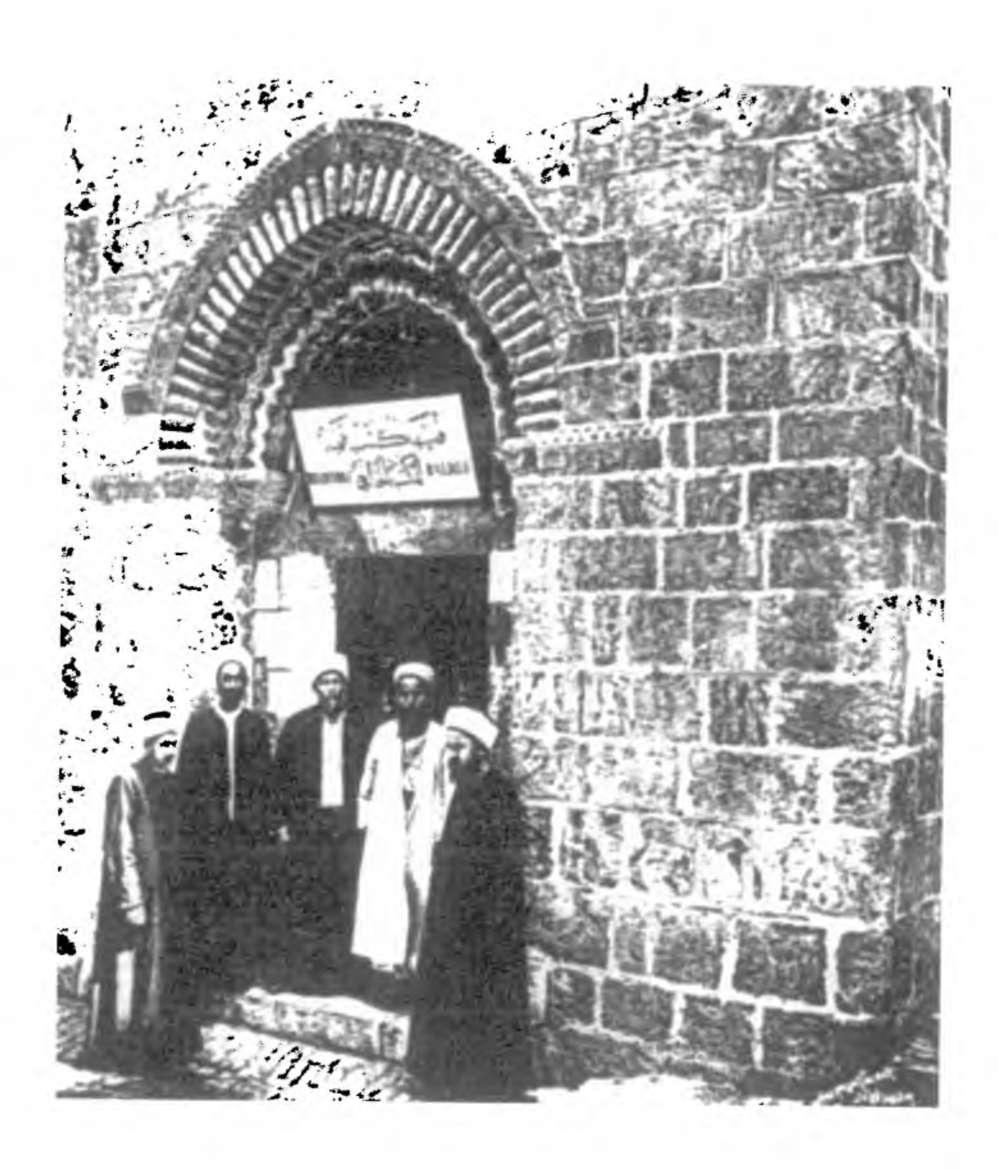
مكتبات للعلماء والمثقفين

ولاهتمام أهل القدس بالتعليم فقد اشتهرت القدس بالمكتبات، إذ وُجد فيها ست مكتبات أسست في القرن الثامن عشر تحت الحكم العثماني، لمدارس وإرساليات أجنبية، أو قبل العلماء والشيوخ، كان من أهمها مكتبة الشيخ محمد الخليلي وهو من كبار علماء وأعيان القدس. أسست عام (١٧٢٥)، في المدرسة البلدية، واصبحت وقفا بحجة. وقد حوت هذه "الخزانة" المكتبة ما يزيد على سبعة آلاف كتاب بينها كتب الفقه والحديث والتفسير والأصول، والتصوف والقراءات والنحو والمنطق والآداب والطب وغيرها. وقد استقطبت المكتبة الرحالة والعلماء المسلمين للدارسة والاطلاع. بالإضافة فقد استفاد الرحالة من مكتبات العلماء الخاصة ومنها مكتبة الشيخ محمد بن بدير، ومكتبة الشيخ عبد المعطي الخليلي، ومكتبة السيد حسن بن عبد اللطيف الحسيني التي حوت كتباً قيمة في شتى العلوم والتخصصات. كما أسست أربع مكتبات أخرى في بداية القرن العشرين. وقد ساهمت في إبقاء القدس مركز إشعاع ثقافي يرتاده العلماء من مختلف الأصقاع للدراسة والتنور رغم انحسار الثقافة في القرن التاسع عشر[١٢]. بالاضافة كثُرت المكتبات التابعة للمؤسسات والدوائر الحكومية بين (١٩٢٠–١٩٤٨) إذ بلغ عددها أكثر من ٢٧ مكتبة. كان من بينها مكتبة "الكلية العربية" العريقة في القدس، ١٩٢٠ ومكتبة المسجد الأقصى ١٩٢٧، ومكتبة مصلحة الإذاعة بحكومة فلسطين ١٩٣٦، ومكتبة المعهد الفرنسي ١٩٣٧، ومكتبة المعهد البريطاني ١٩٤٤، ومكتبة قلم المطبوعات بحكومة فلسطين. وحرصت كثير من العائلات والأسر المقدسية المثقفة على تأسيس مكتبات خاصة بها، وقد عُرف بعضها بثرائها بالكتب القيّمة،مثل المكتبة الخالدية للشيخ خليل الخالدي، ومكتبة إسعاف النشاشيبي، أديب العربية، ومكتبة موسى اسحاق الحسيني، ومكتبة آل جار الله، ومكتبة آل البديري ومكتبة الترجمان، ومكتبة آل قطينة، والمكتبة الفخرية لآل أبي السعود.

وظلت ذاكرة بيان نويهض وكانت طفلة في سنة النكبة ثم مؤرخة بعد الشتات تختزن صورة مكتبة والدها المثقف عجاج نويهض في البقعة الفوقا، وقد شهد على نهبها وتحطيمها من قبل إسرائيل جيرانهم (ميليا واميلي وادما) اللواتي هاجرن لعمّان لينقلن صورة مؤلمة عن مكتبة زاخرة بالكتب التاريخية والسياسية والثقافية. كما جارهم عادل جبر مؤسس "جريدة

---

١٢ انظر د. سلامة النعيمات «الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن عشر الميلادي» أوراق عمل المؤتمر الدولي للقدس، عمان، ٤–٨/١٠/٢٠٠٩ (القدس عاصمة الثقافة العربية).



الترقي" وصحف أخرى، وكان يسكن في الطابق الثاني من العمارة التي يسكنها عجاج نويهض* في البقعة قرب سكة الحديد.

وظل البيت الفخم في المصرارة الذي بناه حسن بك الترجمان عام ١٩٣٤ وسكنته عائلة البرامكي في ذاكرة الذين تركوه في رحلة الشتات كما بقية أصحاب البيوت الفخمة الجميلة التي حوت مكتبات قيمة. وحملت العائلة صوراً ذهنية لما في البيت من أثاث وكتب وذاكرة مشاعر حميمية، ضاعت مع الصور والكتب المسروقة وشهادات الميلاد التي تحمل الهوية. وظلت محبة البيت "مؤلمة" "للولد الأصغر" جابي برامكي الذي أصبح أستاذاً مرموقا في جامعة بير زيت، حيث استقرت العائلة فيها منذ ١٩٥٣ بعد رحلة لجوء إلى غزة. وحمل صاحب البيت المهندس اندوني برامكي الذاكرة التي ظلت تحوم حول البيت من بعيد وتحمل ذكاري أياماً عائلية سعيدة قبل النكبة.

فنادق عصرية لزوار المدينة

أخذت المدينة بالتغيّر تحت الانتداب البريطاني وازداد عدد السيّاح والزوار لأسباب عدة، وقد حتّم ذلك إيجاد فنادق جديدة في القدس، ومنها فنادق عائلية لمن يصطحب النساء معهم من المدن الأخرى، خاصة لمن ليس لهم أقارب للإقامة عندهم، أو كون البيوت صغيرة لا تسمح للإقامة فيها مع أهل البيت.

أقيمت لوكاندات وفنادق داخل أسوار المدينة وخارجها، منها فندق سميراميس في حي القطمون، الذي نسفته عصابة يهودية قبل النكبة، ولوكاندة ماجستيك في شارع مأمن الله ت (٤٥٩) لصاحبها سليم حداد، وكان مهيأ لاستقبال العائلات. ولوكاندة فلسطين الجديدة في باب الخليل، ولوكاندة ومطعم كونتننتال لصاحبها إسكندر صوالحة في باب الخليل ونوتردام دي فرانس في الباب الجديد ت (١٤٠) وأوتيل فاست من الدرجة الأولى، والفندق العصري لصاحبه حسن عويضة شارع مأمن الله ت (١٢٠١) وفندق جبل الزيتون، وفندق بانوراما الذي يطل على المدينة القديمة وغيرها.

ومن أبرز الفنادق العصرية والمبنية على أحدث طراز كان فندق بالاس أو "فندق القصر" الذي أقامة المجلس الإسلامي الأعلى عام ١٩٢٩ في منطقة ماميلا وقد تميز بجمال عمرانه.

---

* عجاج نويهض (١٨٩٧-١٩٨٢) من مواليد لبنان حصل على ليسانس من معهد حقوق القدس، حيث عاش وعمل في القدس بين (١٩٣٦-١٩٤٨) أسس (مجلة العرب) الأسبوعية في القدس ١٩٣٢ لتعبر عن سياسة (حزب الاستقلال العربي الفلسطيني). كان نشيطاً ضد السلطات البريطانية في سنين الثورة الفلسطينية (١٩٣٦-١٩٣٩). رئيس إدارة القسم العربي في دار الإذاعة الفلسطينية تحت الانتداب البريطاني. عمل مديراً للمطبوعات والنشر في الأردن بين (١٩٥٥-١٩٥٩). توفي ودفن في مسقط رأسه رأس المتن (لبنان).



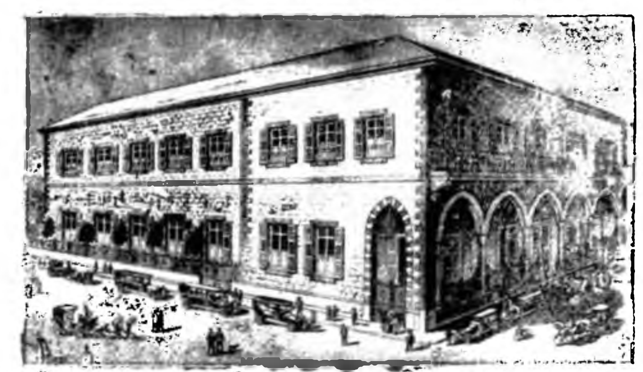

فيزا باسم أوفيليا بطرس للدخول لبريطانيا للدراسة على جواز سفرها الفلسطيني رقم ٢٣٤٠٤٤



فيزا دخول إلى لبنان للإصطياف ١٩٤٧ لنيكولا جبرا من القدس على جواز سفره الفلسطيني رقم ٢٣٤٣٤٩

جراند هوتيل نصار حيفا

فندق فخم من الدرجة الاولى في بقعة متوسطة من المدينة



GRAND HOTEL NASSAR, Haifa

The Leading Hotel of the City

لوكاندة ومطعم كونتيننتال في القدس

لصاحبها اسكندر صوالحه

باب الخليل تجاه القلعة — تلفون ١٦٠٢

تشرف على احسن المواقع الاثرية في البلدة . فيها صالونات رحبة لاجل الحفلات

مجهزة بجميع ما يلزم — يجري في غرفها الماء الحار والبارد

الاسعار معتدلة فعلى الزائرين الكرام تشريفنا

Hotel Continental

JERUSALEM HOTEL

German Colony

JAFFA

P.O.B. 71 Phone 30

Excellent Cuisine — Modern Comfort

Garden Terrace — Hot and Cold running Water



FOR SERVICE COMFORT AND COURTESY

STAY AT

THE WINDSOR HOTEL

HAIFA'S HOTEL OF DISTINCTION

WITHIN 5 MINUTES OF RAILWAY STATION

TELEGR. ADDRESS: WINDHOT. — PROPRIETOR CHAS. V. HOUTAGY

ST. JULIAN HOTEL

Julian's Way, Jerusalem.

European Cuisine · First Class Service

Hot and cold running water in every Room.

Private Bath Rooms

Special rates for His Majesty's and Palestine Government Officials and reduced rates for monthly pension.

SWISS MANAGEMENT

NAZZAL'S PETRA CAMP

and

PHILADELPHIA HOTEL, AMMAN

Proprietors : A. & N. NAZZAL



For comfortable accommodation at moderate rates when visiting TRANS-JORDAN, Book early through any of the leading Travel Agencies.

بناه المجلس لتمويل مشاريع الأوقاف الإسلامية التي كان يرأسها الحاج أمين الحسيني. إلا انه أغلق عام ١٩٣٦ لعدم تمكنه من منافسة فندق "كنغ ديفيد" الملك داوود القريب منه عام ١٩٣١. وكان هذا الفندق مركزا للسلطة البريطانية وضيوفهم. وقد نزلت فيه شخصيات سياسية وفنية من بينهم الفنانة أسمهان، التي كان لها شخصية مثيرة للجدل لعلاقتها مع الإنجليز. وشهد الفندق نشاطات اجتماعية كثيرة وقبل أن يُنسف عام ١٩٤٤ على يد عصابات منظمة. الأرغون الارهابية التي كان يتزعمها مناحيم بيجن، وقد أعلن حربا ضد السلطات البريطانية خاصة وقد أسسوا جيشا منظما. وقد سميت الصحف الفلسطينية بالإنجليز الذين كانوا متحيزين للصهيونية، وكتب كنعان أبو خضرا: "يأكلون وينكرون ليس أحق منا نحن عرب فلسطين بالشماتة بالبريطانيين فقد رأينا كيف سخروا قواتهم المسلحة ووزاراتهم ودوائر تشريعهم في خدمة الصهيونية."

ونزل أهل القدس في فنادق المدن الأخرى مثل فندق طبريا الذي أُسس عام ١٨٩٦، وكان أهل القدس كما بقية مدن فلسطين يتوجهون إلى حمّامات الحمّة وطبريا والزرقاء، إذ اعتبرت أفضل مياه معدنية لمعالجة الأمراض الجلدية والروماتيزم* وظلت هذه الأمكنة حيّة في ذاكرة النساء اللواتي زرن حمامات الحمّة مع العائلة من أجل الاستشفاء والمتعة وشمة الهواء.

وفي حيفا نزل أهل القدس في فندق وندسور وفي لوكاندة نصّار لصاحبيه أنيس وفريد نصّار، شارع اللنبي، وفي ويندسور هوتيل لصاحبه شارل بوتاجي، في شارع الكرمل ت (٩٩٢) وفي يافا، نزلت عائلات القدس في أوتيل الشرق الكبير، عمارة النابلسي أول شارع المحكمة ت (١٢٠٥)، وفي فندق الجزيرة، شارع بسترس ت (١١٥٠). وكانت "لوكاندة رام الله الكبرى" نموذجا لتحرر المرأة ونهضتها، إذ كانت اللوكاندة مملوكة لصاحبته مدام حنا عودة ت (٣٢) وكانت أشهر اللوكاندات في الثلاثينيات وحتى بعد النكبة بإدارة عايدة عودة، حيث كان الأزواج يقضون شهر العسل في الفندق الذي أصبح اسمه فندق عودة في رام الله، أشهر مصايف فلسطين. وكان العرسان أيضا يقضون شهر العسل في المصايف المعروفة في القبيبة، "عمواس"، وجبل الكرمل، وصفد، ويافا، وروبين. بالإضافة إلى ذلك فقد نزلت العائلات في فندق فيلادلفيا ت (٤٣) العريق في عمّان، في شرق الأردن، وقد بناه إبراهيم نزال عام ١٩٢٥، وأصبح لأنطون ونصري نزال ولعائلة نزال حتى الثمانينيات من القرن العشرين**.

---

* تشير المعلومات التاريخية أنها من قديم الزمان كانت تجذب المرضى من الدول المجاورة، وقد بنى الملك هيرودس حمامات له خصوصية على عين الزرقاء للاستشفاء من مرض جلدي أصيب به

** هدم فندق فيلادلفيا لغايات تجميل وسط البلد في الثمانينيات من القرن العشرين كان الفندق مكاناً للسياسيين البريطانيين والوفود الفلسطينية أثناء زيارتهم للأردن، نزلت فيه عام ١٩٣٨ (لجنة وود هيد) الفنية لوضع «مشروع التقسيم» الذي لم يلاق قبولا من العرب وكانت مدينة عمان قد أضربت ورفع المحامون والتجار ووجوه عمان برقية استنكار ضد المشروع الذي حمله الصحافي إبراهيم الشنطي صاحب جريدة الدفاع لعمان..

ونزل التجار الفلسطينيون في فندق العاصمة، لصاحبه قدري يوسف، في شارع الملك فيصل، ت (١٤٥)، وانتشرت الفنادق العربية في أكثر المدن وحتى في غزة، إذ وجد في الثلاثينيات فندق الفرح لصاحبه نقولا سابا، في شارع المختار وفي نابلس لوكاندة فلسطين لصاحبها يوسف خوري ت (٤٠) ومديره توفيق خوري، وكان هذا الفندق يقدم المشروبات الروحية في البار الملحق به.

وقد أصبحت الفنادق في القدس ومدن فلسطين الأخرى تعلن منذ الثلاثينيات وضعها بأنها توفر الفرش النظيف، من الطراز الحديث وتوفر المياه الباردة والساخنة، بالإضافة لتقديم أطعمة شهية، وخدمة ممتازة. وتمكنت مدينة القدس من جذب السواح والزوار إلى المدينة التي كانت أسواقها غنية بالصناعات الفلسطينية التراثية التي كانت تصنع في الخليل وبيت لحم والقدس. وتخصص أهل الخليل بصناعة زجاج الخليل التي كانت قد بدأ منذ زمن بعيد وهي صناعة كانت مرغوبة من السياح الذين يزورون القدس ومدنها، كما أحب سواح القدس صناعات الصدف المصنوعة في بيت لحم، والتي يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن التاسع عشر. وقد صنعوا منها السبح والصلبان وغيرها من الأدوات التعبدية من خشب الزيتون، ولنجاح هذه الصناعة فقد راجت الأسواق العالمية وعادت بالربح على هذا القطاع الاقتصادي الهام. وقد بلغت الأصناف الصدفية المصدرة من بيت لحم إلى الخارج مئتي ألف جنيه استرليني سنويا في أواخر القرن الماضي.



الفصل الثالث

نباتات متجذرة في التراث



٣

في أكناف القدس فرضت جمال الطبيعة بجمالها ونباتاتها وأشجارها وأزهارها بالألوان المفرحة نفسها، ليس على الناس فحسب بل تجذّرت في التراث. فقد زخرف المهنيون والفنانون الأواني الفخارية بالأزهار. بالإضافة إلى ذلك طرزت المرأة الريفية لباسها التقليدي "الثوب" في قرى منطقة القدس ورام الله والخليل وبيت جالا وقضاء يافا، وقلدت الطبيعة بمزج ألوانها الفرحة وأطلقت عليها أسماء الأزهار التي تنبت في الأرض الفلسطينية الخيرة.

قصص تراثية

وارتبطت بعض النباتات بقصص من التراث ترويها الجدات: وتقول الرواية إن "الميرامية" اسم مشتق من مريم العذراء، حيث إنه في إحدى نزهاتها، شعرت بضيق من حر الصيف، فجلست على حجر تستريح من عناء المشي، وكان العرق يتصبّب من جبينها، فقطفت بعض أوراق الميرامية من تحت أقدامها، لتجفف بها عرقها. وتقول الجدة للأحفاد، إنه منذ ذلك الوقت اكتسب هذا النبات رائحته الزكّية.

وقصة أخرى ترويها نساء القدس وفلسطين عن نبات آخر سمعنها من الجدات: أن مريم العذراء، أضاعت ابنها يسوع عليه السلام، فقامت بالبحث عنه في الحقول والبساتين، وحوصرت في لهفتها بأشواك شجيرة ورد، فتذمرت منها ووبختها قائلة: "أنت لا تعرفين الألم المبرح الذي يسببه لي فقدان ابني، لتحل عليك مرارة روحي". ومنذ ذلك الوقت فقدت الدفلى شوكها، وأصبحت كما هي اليوم شجيرة جميلة متعددة الألوان، إلا أنها تعد من النباتات السامة.[١٣]

وتستمر القصص التراثية المتعلقة بالنباتات والأزهار في ذاكرة الريف الفلسطيني، ومنها الاعتقاد الذي كان سائداً عن نبات عرف باسم "تفاح المجانين" لونه برتقالي"، ويعتقد أن هذا النبات مسكون بالأرواح الشريرة التي تهاجم كل من يأكل ثماره. فالجن كما الاعتقاد يسكن في جذورها ويتحكم بالنبتة، ولذلك يخاف الفلاح من إزالة هذا النبات من أرضه خوفاً من

---

١٣ للمزيد عن النباتات، انظر محمود جبريل الجنيدي، نباتات فلسطين البرية، ١٩٩٤ – عمان.

الأرواح الشريرة. ولعل ما يقال عن شجرة الخروب والبلوط، لتشير على مدى تغلغل المعتقدات بالنسبة لبعض النبات. وحسب ما روي بأن هذه الأشجار هي المكان المفضل لاجتماعات الجن. ومثل هذه الخرافات جعلت نساء القرية ورجالها يخافون من النوم أو الراحة تحت هذه الأشجار، وردد الفلاحون أمثلة شعبية عن ذلك: "النوم تحت الخروب غير ممدوح". "ولا تقطع البلوط لأنه مسكن الجلوط". وبالمقابل، أحب الناس شجرة الدر والدوم وقالوا: "تحت الدوم يحلى النوم".

واحتفظ التراث بقصص حول الاشجار والنباتات. واحتلت شجرة النخيل بين الفلسطينيين في كل مدينة وقرية، منزلة خاصة، حيث نحتت على القبور الإسلامية. ويردد البعض مُعتقد إسلامي، بأن الله خلق شجرة النخيل من الطين وقد بقيت بعد خلق الإنسان، لأنه كما المعتقد يحتوي على عناصر الحياة نفسها الموجودة في الإنسان. وهذا ما يفسّر حمل المسلمين أغصان النخيل في مقدمة موكب الجنازات، ووضعها على القبور. وردد أهل القدس، "المدينة المقدسة" حديثاً عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يقول: "أكرموا عماتكم أشجار النخيل".

وسرد المسيحيون أيضاً بأن المائدة التي أرسلها الله لعيسى عليه السلام كان فيها خمس حبات من البلح من فاكهة الجنة. واعتبرت شجرة الرمان بقلبها الجميل كحبات اللؤلؤ من فاكهة الجنة. وفسّر الناس الأحلام المتعلقة بالنباتات بمفاهيم مختلفة: فالخروب في الحلم "مصيبة"، والصبر يفسر "بالنجاح" والخبيزة ترمز إلى "الخير والرزق"، كما الحلم بالزيتون الذي يبشر "بالأمل والنجاح والقوة".

تمتع أهل القدس وأكنافها بالمساحات الواسعة في أكناف القدس التي نبتت فيها أشجار الكينا والصنوبر والبلوط دائمة الخضرة والسنديان كما العديد من أصناف النباتات البرية، سواء ذهبوا إلى النزهات، أم بقوا في المدينة. فقد كانت نباتات الهندبة والخبيزة والحميضة والمرير وورق اللسان، تباع في مواسم الربيع في باب العامود بواسطة القرويات اللواتي يحملنها بفخر على رؤوسهن لأهل المدينة. وتطبخ هذه الأوراق الخضراء التي تتميز كل نبتة بطعمها الخاص، بزيت الزيتون والبصل والثوم والليمون. وظلت جزءاً من التراث الشعبي المفضل لليوم. وتؤكد أم محمد إحدى القرويات وتقول: "لا زلت أفضل هذه الأطباق التي أطبخها "صومي" وأحب أكلها "غماس"، وهي تطبخ من غير لحمة وتؤكل "غماس" مع الخبز دون طبخ رز بجانبه كبقية أكلات "اليخني".

لم يقتصر اهتمام الناس بهذه النباتات كغذاء، بل استعملت منذ القدم في المجتمع القروي والمديني، كدواء لشفاء بعض الأمراض، وظلت معروفة ليومنا في "الطب الشعبي" أو الطب البديل. ومن أشهرها البابونج والميرمية والزعتر، والخروع والجعدة، واليانسون، وبذر الكتان، والحبة السوداء.

وأطلق أهل القدس وقراها كما بقية أهل فلسطين اسم الزهور على البنات: زهرة، فلة، وردة، ياسمين، حنونة، وسوسن. وشبهوا جمال خدود البنت "الشلبية" بالفاكهة، حيث وصفت خدودها مثل "المشمش"، الذي يدل على اللون الحيوي المفرح. وهناك قول آخر: "صحن المشمش لا تكمش، دور عللوزية، زين البنات لا تؤخذ دور عالأصلية"، أي أن ثمار المشمش أجمل من ثمار اللوز، إلا أن شجرة المشمش تطعّم على شجرة اللوز وهي الأصل.

وغنّت نساء القرى حول القدس مشبهات جمال البنات وهن يرقصن في المناسبات السعيدة بالأشجار المثمرة وقلن:

ميلي ميلي يا شـــجرة التفاح	ميـلي ميـلي يا حاملة تفـاح
ميلي ميلي عا محـمد الفلاح	ميـلي ميـلي اســم الله عليـه
ميلي ميلي يا شجـرة الليمون	ميلي ميلي يا حاملة الليمـون
ميلي ميلي عا محمد المزيون	ميـلي ميـلي اســم الله عليـه

الزوزو والحنون في البراري

وإذا كانت بيوت القدس تزداد جمالاً بالبساتين المزروعة داخل أسوارها خارج المدينة العتيقة، حيث تتزين بالأشجار والأزهار المزروعة بالأصص المرفوعة على الشبابيك والبرندات والأدراج، لتدخل رائحة البنفسج والنسيم مع هبات هواء الربيع، فإن جمال القرى في قضاء القدس لا حدود لها. فالأرض تنبت مئات النباتات البرية الطبيعية التي تنتشر وتتمدد في السهول والهضاب، وتتسلق الجبال، وتنزل مع الوادي وجذورها تتمسك بتربة طينية حمراء تمتد من الأراضي الشمالية والوسطى في صفد، وجنين، ونابلس، وطولكرم، وقلقيلية، واللد، ورام الله، وبيت لحم، والخليل، والقدس وأكنافها. وتتباهى الأرض بما تلد من أشجار الفاكهة من برتقال وليمون "ويوسف أفندي" ومن الخضروات من خس ونعنع وبندورة وباذنجان وقرنبيط وفقوس وخيار وكوسا. وقد أحب أهل القدس طبخها بطريقتهم الخاصة، وخاصة المحاشي التي اشتهرت نساء القدس بطبخها بزيت السيرج "ليتفتح الرز" كما كن يعللن سبب استعماله في المحاشي. كما طبخت بقية المدن هذه الأنواع بنكهة لها خصوصية.

وطرزت الأزهار البرية الأرض في ربيع فلسطين الطويل بالنرجس والدفلى والسوسن والحنون و"قرن الغزال" الذي يسميه أهل القرى كقرية لفتا باسم جميل "الزوزو" وله من الألوان الزهري والأبيض والبنفسجي. وينبت الزوزو بين الصخور، وكان يكثر في منطقة تسمى "وعر الضبع"، أو "وعر اللفاتوة"، لأنه يطل على قرية "لفتا التحتا"، في شمال القدس.



معهد بيت حنينا الذي بناه عبدالحميد شومان في قريته بين الأشجار المثمرة وأشجار الزيتون

وكانت هذه الأماكن الواسعة المتناثرة حول القدس، مرتعاً لبنات المدارس في القرية لقطعها وحملها للمعلمات في مدرسة المأمونية في باب الزاهرة، قبل أن يتشرد أهل القرية وتصبح مهجورة وتبنى على أراضيها المستوطنات التي قتلت الزوزو والحنون والفرح*. وظل "الزوزو والحنون" في ذاكرتي الطفولية المغرمة بالطبيعة وبهذه الأزهار البرية بشكل خاص. ولم أنس إحدى صور الطفولة وقد جمعت باقة من هذه الازهار طويلة الساق من بين الصخور من بستان قريب من "حرش شنلر". ولأن البستان كان محظوراً دخوله على الناس فقد وقعت على الأرض وأنا أهرب من "الحاج المغربي" حارس المكان. إلا إن قلبه رق وقد حمل لي الزهور بعد أن وقعت على الأرض ومسح دم الجرح الذي سببه حجر جاحد ليوصلني لوالدتي الحنونة (أم عارف النجار)** التي كانت تحب الطبيعة الجميلة حول البيت ذي الأدراج الحجرية البيضاء يزينها دربزين، تتسلقه مداده ورد أحمر ليصل باب الدار.

كانت الطبيعة تزداد جمالا في قرى أكناف القدس، لأنها كريمة ترحب بطيور مهاجرة قادمة من أوروبا شتاء لتعود بعدها إلى موطنها الأصلي. وعرف الناس منها الزرزور والنورس المميز برأسه الأسود. كما رحّبت القدس وقراها بطيور زائرة من إفريقيا، عرفها من أحّب الطبيعة ومنها الشقراق الأوروبي، والرخمة المصرية. طيور فلسطين كانت تؤنس الريف والمدينة وتخلق انسجاماً مع الطبيعة المرحة ويزيد نوعها على (٥٠٠) نوع درس عنها الطلاب في المدارس ومنها النورس، والشحرور. وسعد اليافعون من الشباب بتقليد تغريد الطيور وزقزقتها "التصفير بالفم" وظل محمد سليم النجار من لفتا الذي أحبّ تقليد الطيور في ذاكرة أولاد القرية الذين تعلموا منه تقليد صوت الطيور، التي أتقنها بشكل كبير، وخاصة صوت البلبل، ونقار الخشب وأبو زريق، وهو يتجول في حرش شنلر القريب من بيته. وقد استضافه برنامج الاطفال في الإذاعة ليقوم بذلك. بالإضافة إلى ذلك، كان المزارع والفلاح يرحب بالطيور الجارحة ويعتبرها عاملاً هاماً للقضاء على الآفات المضرة بالزراعة، والتخلص من الحيوانات الميتة "الجيف"، مثل الحيوانات أو الكلاب الضالة. وعرف الفلاحون منها، النسر الأسمر، والحدأة السوداء، والصقر الحوام طويل الأرجل، والعقاب المرقط، والضبع والخنزير البري، والخفاش (الوطواط)، وقد انقرض الكثير من هذه الحيوانات. وكان الناس يخافون من الثعابين "الحيايا" ومن العقارب، وأم أربعة وأربعين، والحرذون والحرباية، ويسعدون لسماع أصوات "الصراصير" من بعيد في أيام الصيف الهادئة. وظلت أهزوجة شعبية في ذاكرة الأولاد والبنات

* تحاول إسرائيل تحويل قرية لفتا إلى منتجع للفنانين اليهود الأغنياء في العالم لجمال المكان الطبيعي إلا أن الخطة لم تنفذ بعد والقرية مهدمة وأسطح دورها مقعرة.

** (والدتي) أم عارف النجار(فطوم حمودة) زوجة على إسماعيل النجار مختار الحمولة. وشقيقة يحيى إسماعيل حمودة أتقنت مهنتها كربة بيت وأم وزوجة فاضلة قامت بعملها التقليدي على أحسن وجه قبل النكبة وبعدها. وظلت تتذكر حياتها مع العائلة في البيت الذي تمنت أن تعود إليه قبل وفاتها في الغربة.



تسلية الناس صندوق العجب (تع تفرج يا سلام)



عندما يشاهدون "حردوناً" يجري في البر خائفاً:

صلي صلاتك يا حردون أمك ماتت في الطابون

لم ينسَ أهل القدس كما لم تنس بنات مدرسة المأمونية حديقة الحيوانات التي كانت موجودة في "أرض السمّار" في الشيخ جراح القريبة من المدرسة. وكانت البنات اللواتي يدرسن في المأمونية، يحرصن على السير على الأقدام بدل ركوب الباص للوقوف عند حديقة الحيوانات الصغيرة. وقد أقيمت عام ١٩٢٩ من قبل السلطات البريطانية. إلا أن أهم ما كان يسعد البنات عند زيارتها مشاهدة طير الطاووس الجميل بألوان ريشه. وتعاليه، وخاصة عندما يفرد ريشه. بالإضافة للزرافة طويلة العنق، والدب والأسد والنمر وبعض الحيوانات الأخرى. وحرص أهل القدس على أخذ أولادهم إلى الحديقة أيام الأعياد والعطل، كنوع من النزهة، ولتبقى صورة الحيوانات قصصاً يصفون فيها الحيوانات لأصدقائهم. وكان القرد "السعدان" الحيوان الذي يبهج الأطفال وهم يحملون له الفستق، والموز ويجتمعون أمام قفصه ليطلقوا ضحكاتهم السعيدة. وما زالت أصداء ضحكاتهم الطفولية في الذاكرة وهم يضحكون وصاحب القرد يتجول به في الحارات، من أجل كسب بعض المال، بينما الحيوان يقلد العجوز وهي تعجن، وصاحبه يردد:

- كيف بتعجن العجوز؟
- كيف بتنام العروس؟

وقد حرصت وأنا طفلة على أن أركض وأزاحم أولاد وبنات الحارة للفرجة على مثل هذا العرض الذي كان يفرحني، مقابل مليم أو اثنين.



الفصل الرابع

تكامل المدينة والقرية



٤

امتدت القرى المحيطة بالقدس في مساحات واسعة، شكّلت الحياة الريفية المكملة لحياة المدينة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فمن نزهات وقضاء أوقات سعيدة في الريف، إلى انتظار مواسم الخير من الزراعة والحصاد، إلى إقامة العلاقات بين رجالات القدس والزعامات القروية، من مخاتير وزعماء حمائل من أجل مصالح سياسية كانتخابات البلدية حيث كانت بعض القرى تتبع للقدس إداريا. وكان أهل القرى يقولون:

– رايحين نْمّدِن ... أو نازلين عـ "لِمْدينة".

أحب المقادسة أمكنة "شمة الهوا" والترفيه عن النفس كلما سنحت لهم الفرص سواء أكان ذلك عن طريق العلاقات الاجتماعية والزيارات المتبادلة لقضاء الوقت أم القيام بالنزهات العائلية، ولعل ذلك كان ضرورياً للتنفيس عما ينغّص عليهم حياتهم تحت الانتداب البريطاني الذي مكن الصهيونية من الاستيلاء على الأرض، وعلى مرآى من أهل البلد الذين لم يتمكنوا من منع هذه الجريمة التي قطعت سعادة الناس المتشوقين لحياة أفضل، بسبب النكبة.

نزهات في القرى

النزهات خارج أسوار القدس العتيقة كانت تخلق متعة للناس، كما كانت لأهل الحارات الجديدة في اتجاهات القدس الأربعة. وكانت "شمة الهوا" للترفيه عن النفس ضرورية بشكل خاص بالنسبة للمرأة والأم والزوجة وربة البيت، وتجد فيها متعةً لا تضاهيها متعة وسعادة. فالبيت والجوار القريب كان المكان الطبيعي للمرأة في العشرينيات قبل أن تتغير العادات في الثلاثينيات والأربعينيات ليصبح "المشوار" ضرورياً. فالانعتاق من بين جدران المنزل، وأخذ راحة من الدور التقليدي الموروث، من طبخ وتربية للأطفال وانتظار الزوج للعودة أصبحت سعادة تحلم بها النساء كما الأطفال وبقية أفراد الأسرة. كما ساهمت في تنشيط العلاقات الاجتماعية للحراك والتفاعل والتواصل. وعندما كان الجيران يسمعون "طرطقة" الطناجر والضحكات تعلو يعرفون أن الجيران يحضّرون لرحلة العطلة الأسبوعية أو الدينية الإسلامية



شكري ديب وعائلته في نزهة بواسطة الدواب ١٩٢٦



نزهة تحت الأشجار ١٩٢٧ وتبدو كاترين شكري الرائدة في المجتمع المدني



عائلة طليل من حي القطمون في رحلة بالسيارة ١٩٣٠



أنسطاس حنانيا وعائلته في نزهة بالقطمون ، الثلاثينيات



مصطفى النجار من روميما/لفتا يساراً مع أصدقائه في حرش شنلر ١٩٣٦

أو المسيحية. فالإعداد "لشطحة"، أو لشمة الهوا أو لزيارة الجد والجدة والعمة والخالة، من داخل السور لخارجه أو للقرى المجاورة، أو المدن الأبعد، إلى حيفا ويافا وعكا وغزة، أو إلى نابلس وجنين وقلقيلية، وأينما وجد الأهل والأصدقاء والأحبة أسعدت الكثيرين من أهل القدس.

سعادة بنات المدرسة الصغيرات والكبيرات كانت الأكبر وهن ينتظرن العطلة الأسبوعية، الجمعة أو السبت أو الأحد التي كانت المدارس تقفل أبوابها فيها. فالسلطات قررت هذه الأيام لإرضاء أتباع الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية، حرصاً على عدم إغضاب أحد، خاصة وأن السياسة الاستعمارية كانت تتحيز لليهود في كل المجالات في مرحلة كانت الأخطر في التاريخ الفلسطيني بعد وعد بلفور ١٩١٧. كانت السعادة مضاعفة للناس عندما يقومون برحلات ونزهات، وخاصة عند الذهاب لأمكنة بعيدة، يستقل البعض سياراتهم الخاصة والبعض الآخر الباص، ويقوم البعض بالمشي أو ركوب "الدواب" للاماكن القريبة. كما سعد بعض الشباب بركوب "البسكليت" الدراجة التي أخذت بالانتشار.

تحت أشجار الزيتون

وتحت ظلال أشجار الزيتون التي يعتبرها أهل فلسطين شجرة مقدسة، شعر المقادسة بالأمان وهم يستنجدون بها من حر الصيف في نزهاتهم، ولأنها الأطول عمراً وجذورها الأعمق امتداداً في باطن الأرض منذ آلاف السنين. أحبوها فزرعوها وأكلوا زيتها وزيتونها، ومسحوا بها أجسام أطفالهم تبركا بها، ولتقوي عظامهم وتشفى جلدهم وهم يرددون.

– زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون..

وعرف أهل القدس شجرة الزيتون الأعرق والأكبر سناً في القدس المزروعة في أرض كنيسة الجثمانية، ويبلغ عمرها ألفي سنة ويقصون لأولادهم قصتها التي عرفوها من الأجداد.

- كان المسيح يأوي إليها مع تلامذته للراحة والنوم وقضى آخر أيامه متعبداً، في ظلها.

وظلت شجرة الزيتون العتيقة شاهداً على تمسّك الفلسطينيين بالأرض التي زرعوها بالتين والزيتون التي تعاني من ذبحها اليوم على يد المحتل الإسرائيلي، الذي لم يحترم جذورها في باطن الأرض الفلسطينية.

وكان الفلاحون الفلسطينيون الذين يعملون في الزراعة يشكلون الغالبية العظمى من السكان الفلسطينيين، إذ بلغت نسبتهم حوالي ستين بالمائة حتى عام ١٩١٨ واعتمد الاقتصاد الفلسطيني عليها بشكل أساسي. وأحب الفلاح الفلسطيني أرضه وزرعها وسقاها بعرق جبينه

وعمل بيديه، كما عملت المرأة الفلاحة معه بالأرض وأظهروا كفاءة وقدرة عالية في الزراعة رغم تهميش الريف الفلسطيني الذي شهدت عيون شجر الزيتون وكروم العنب وأشجار البرتقال والليمون على ذلك. فقد واجه الفلاح الفلسطيني معاناة وغدر السلطة الحاكمة تحت الانتداب البريطاني، فقد أثقلت كاهل الفلاحين بأنـواع من الضرائب (العشر، والويكر، وضريبة الأغنام، والسخرة، والمعارف) التي أوصلته لحالة من الفقر المدقع، مما اضطر الكثيرون إلى التخلص من الأرض. وتمكنت قلة من كبار الملاكين بتملك أراض واسعة، مما أفرز طبقة برجوازية منذ العهد العثماني على حساب الفلاحين، بعضهم امتلك قرية واحدة أو عدة قرى في مناطق نابلس، وجنين والرملة، وغزة، وحيفا، والقدس. وبرز منهم كثيرون من الإقطاعيين في العمل السياسي.[١٤] ومع ذلك فقد تميّزت الحياة في القرية بالاكتفاء الاقتصادي نتيجة الاعتماد على الزراعة وعلى الأيدي العاملة في العائلة الممتدة أو "الحمولة" التي كانت تشكل الوحدة للعائلة وتربط أفرادها ببعض اجتماعياً واقتصادياً وانتماءً.

ظلت ذاكرة شجر الزيتون تحكي عن تلك الأيام التي كان أهل القدس يسعدون وهم يشاهدون الفلاحين في القرى في موسم قطاف الزيتون "جداد الزيتون". كانت البنات تتسلق السلالم لقطف الزيتون من الشجر مرفوع الرأس عالياً، وقضاء وقت طيب ومنتج. وارتبط ذلك مع موسم الخير الذي كان يجمع الشباب والشيوخ والنساء في قرى أكناف القدس كما القرى الفلسطينية الأخرى. ولموسم قطف الزيتون خصوصية لدى أهل القرى، حيث تجتمع العائلة أو الحمولة لمساعدة بعضهم بعضاً في "عونة" يلتئم معهم شباب من عائلات أخرى للتطوع لمساعدة صغار المزارعين في قطف الزيتون، وكأنهم يساعدونهم اقتصادياً، لجني ربح من زيتونهم الذي كان منذ القدم مصدر رزق ومصدر طعام صحي للعائلة، وقلما وُجد بيت في القرية أو المدينة لا يخزّن الزيت والزيتون لكل الفصول. وكانت العائلات الميسورة في القرية توزع الزيت والزيتون على المحتاجين، مما يدُل على الكرم والتكافل الاجتماعي.

وفي موسم الزيتون كانت السعادة تتجلى في التجمعات والتغني بالزيتون وخيرات الأرض التي ظلت جزءاً من التراث الفلسطيني الغني. وغنّت قرى زيتا في قضاء طولكرم، وبير زيت في قضاء رام الله وعين الزيتون في قضاء صفد، ووادي الزيت في قضاء نابلس، وجبل الزيتون في القدس لهذه الشجرة المباركة خاصة وهي تحمل أسماء تدل على تميّزها بزراعة الزيتون وإنتاجه.

١٤ عبدالوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، بيروت ١٩٧٣، ص ٤٣-٤٤.

زيتون بلادي وعلى دلعونة

زيتون بلادي أجمل ما يكونا

زيتون بلادي واللوز الأخضر والميرامية ولا تنسى الزعتر

حرية في موسم الحصاد

امتدت أكناف القدس وتلاحمت مع المدينة في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، فموسم الحصاد كان مناسبة اجتماعية وعملاً ومشاركة وحياة تعاون. وظل في ذاكرة الطفولة لبنات لفتا اللواتي كن يدرسن في مدارس القدس تحمل صورة متعة قضاء وقت حرّ وسعيد في عطلة فصل الصيف في القرية التي لا تبعد أكثر من كيلو واحد عن قلب القدس. وفي الساحة الكبيرة الواسعة الخاصة بالحاج إسماعيل النجار "زعيم حامولة "العيّدة" واسع الثراء، كانت أطنان القمح تكدس بعد جلبها من أراضيه الواسعة المحاذية للشيخ جراح، "أرض السمار" أو من أراض أخرى يملكها أهل لفتا، وكانت تمتد إلى حدود القرى القريبة وإلى سور القدس.

سعادة الصغيرات من بنات العائلة وأولاد الجيران والأصدقاء كانت كبيرة والكل يتنافس لاعتلاء لوح "الدراسة" الخشبي الذي يجره حمار أو بغل معصوب العينين يدور ويدور ويدور مع ارتفاع ضحكات الأطفال البريئة ليفصل القمح عن القش وليغربل بفضل الدوران ويوضع القمح في أكياس خيشية "أبو خط أحمر" للتخزين.

كانت هذه التجربة من أجمل التجارب التي جلبت لي السعادة لي مع الأخوات سميرة ونوال ونائلة وبنات الحارة ونحن نلعب دون حساب لقصاص من الأم والأخت الكبرى لتوسيخ الملابس النظيفة والمكوية. ولم أنس عقاب توسيخ الملابس والضرب على "القفى" جزاءً لذلك. وظلت تجربة حياة الريف الحرة نعمة لمن جربها في الطفولة وسعد بين متعة العيش على مشارف القرية أو المدينة، كما قرى أكناف القدس القريبة.

بالإضافة كان موسم الحصاد يعد موسماً اقتصاديا نشطاً للعائلات القروية، إذ كانت تخزن المواد من القمح والذرة والشعير لاستعمالها كلما احتاجوا للطحين، وذلك بإرسالها للمطاحن المخصصّة في القدس. إلا أن كثيراً من العائلات استعملت طاحونة صغيرة "رحى"، تعمل باليد لصنع البرغل والجريش، أو جرش حبوب الفول والعدس والأرز. وتعد الرحى إحدى الأدوات الهامة في مطبخ القرية وهي عبارة عن دولابين كبيرين مصنوعين من حجر الصوان الصلب، يوضع الدولابان فوق بعضهما. الدولاب العلوي له مقبض خشبي تمسك به المرأة لتحريك



مجموعة من بنات المدينة باللباس القروي بالأربعينيات



المرأة القروية تعمل جنبا إلى جنب مع الرجل بالزراعة والحصاد



الدولاب بحركات دائرية على الدولاب السفلي، وفي الدولاب العلوي فتحة في وسطه يتم من خلالها وضع الحبوب التي تسقط بين الدولابين فتطحن. وكثيراً ما تمتعت البنات بتجربة جرش الحبوب، رغم ثقل وزن الحجر الذي لم أستطيع تحريكه لأقع على الأرض وسط ضحكات الأم والأخوات ونحن نزور لفتال التي كانت متمسكة بالتقاليد. واستعمل القرويون أدوات تخدم حياتهم المعيشية مثل "الغربال" والجرار الفخارية و"الزير" التي تحافظ على نقاوة المياه وبرودتها. كثير من أهل القدس كانوا يضعون الزير أمام بيوتهم في المدينة العتيقة "كسبيل" ماء للعطشى المارين، وعادة تربط في "أذنه" "كيلة"، أو "كوز" أو "طاسة" لشرب الماء منها. كما كانت كثيرٍ من بيوت حارة النصارى المسيحية تضع تمثال السيدة العذراء أمام الدار ويشعلون شمعة نذراً لها. كانت متعة كبيرة مراقبة نساء القرية وهن يصنعن الأطباق من القش المصبوغ بالألوان الجميلة لتقديم الطعام عليه، فوق "طبلية" من الخشب، لتكون بمثابة طاولة، ولكنها قصيرة وأقرب إلى الأرض حيث الجلوس. وانتشرت هذه الأطباق في أسواق القدس التي كانت تعج بالقرويين الى جانب المنتوجات الصيفية، من القمح والعدس والسمن والعسل والأجبان والزيتون والمخللات، التي يحملونها "بالتنكة" المصنوعة من صفائح معدنية أو في الجرار الصلصالية. وبالمقابل كان القرويون يرجعون بأحمال من الألبسة والأطعمة المتنوعة ليعودِ الحراكُ الاقتصادي والاجتماعي على الطرفين بالفائدة المشتركة. ولعبت المرأة القروية دوراً واضحاً في الإنتاج الاقتصادي وتسويقه في القدس، كونها سافرة تعمل إلى جانب الرجل، ومنهن من احتفظت بالعائد في حسابهن الخاص، ولتصبح أكثر قوة في عائلتها بسبب وضعها الاقتصادي. ووجدت كثير من النساء في القرية أقوى من الرجال نتيجة عملهن والاعتماد على النفس.

بيوت ريفية

كانت سعادة أهل القدس تزداد كلما ذهبوا إلى الأمكنة الريفية المتغيرة المعالم والدور والزرع وحياة الناس المختلفة. وتمتد إلى القرى المحيطة بالقدس ومنها، لفتا، وعين كارم، سلوان، العيزرية، الطور (جبل الزيتون)، بيت صفافا، وبتير، وبيت لحم، ورام الله، وأريحا، وقالونيا وأبو غوش، وتصل إلى وادي البادان في نابلس وقراها. وتمتع أهل القدس أيضا بجمال ساحل فلسطين يافا، وحيفا، وعكا. وقد امتلك البعض بيارات وبساتين فيها .وحرص الكثيرون من أهل القدس، وخاصة من الموسرين والطبقة البرجوازية على بناء بيوت ريفية يقضون فيها العطل في فترة الصيف. فقد استمتع فيضي العلمي أحد وجهاء القدس مع عائلته وأصدقائه بقضاء أوقات سعيدة في قرية "شرفات" القريبة من بيت صفافا، حيث بنى بيتاً صيفياً للعائلة

* عين عمدة للقدس عام ١٩٠٦ وانتخب نائبا في البرلمان العثماني في اسطنبول وهو والد موسى العلمي احد رجالات فلسطين ووالد نعمت العلمي الناشطة في الحركة النسائية، زوجة جمال الحسيني.



علي عثمان الأخ الأكبر من بيت صفافا الذي سيصبح عالم اجتماع يحتضن أخيه الصغير خليل الذي سيصبح سفيراً ويجلس على الأرض ابراهيم الذي سيصبح استاذ علم الاجتماع. مع الأخوات من منتصف الثلاثينيات



المعلمات المقدسيات في قرية بيت صفافا ...ميحة سماره (يسار) وعلا الحسيني الثانية يمين مع بنات عائلة عثمان بالثوب القروي في الاربعينيات



فيضي العلمي والد موسى العلمي مع زوجته والدة نعمت العلمي الناشطة في الحركة النسائية ١٩١٩



عبدالله زلاطيمو مع زوجته ربيحة غوشة والأولاد عارف الواقف وأخيه والبنات هيفاء وعفاف ١٩٣٢

تمتعت بها ابنته نعمت العلمي التي أصبحت ناشطة في الحركة النسائية منذ العشرينيات. وظلت ذكريات وصور الريف الفلسطيني وعلاقتها بالقرية قوية في وجدانها. وحرصت سيرين ابنة نعمت في ان تدون ذلك في كتابها "ذكريات من القدس". وسجلت صداقتها مع البيئة الجميلة الخضراء تحت شجرة البلوط العتيقة التي خلقت علاقات تضاهي متانة الشجرة مع بنات القرية وحياتهن الحرة. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت العائلة محظوظة كونها موسرة لتستمتع شتاءً "بشمة الهوا" والعيش في بيت ريفي آخر لآل العلمي "أبو موسى" في (أريحا) حيث أنعمت عليها الطبيعة بجمال آخر ممزوج برائحة أزهار البرتقال في الربيع وبرائحة الياسمين والفل والمدادات "المجنونة" المتسلقة على الأشجار بألوانها المتداخلة شتاء، والحنون والأزهار المرحة والحشائش الخضراء كسجاد عجمي جميل. كما تمتعت عائلة الداوودي، والدجاني، والسعدي، وحمودة، بالتنزه بين أشجار الموز والحمضيات في العوجة القريبة من القدس، حيث يمتلكون مساحات زراعية واسعة فيها مياة جارية.

وأمضت هند الحسيني ابنة المدينة مع والدتها وإخوتها الذكور الخمس بالريف الفلسطيني أجمل الأوقات. وكان والدها طاهر الحسيني قد بنى بيتاً ريفياً في قرية "أدنبة" القريبة من يافا قبل أن يعين خلال الحرب العالمية الأولى حاكماً لطرابلس. إلا أنه توفي بمرض التيفوس ولم تحظ العائلة بسعادة عائلية كاملة. ومع ذلك فللريف وشجره تأثير على تخفيف المآسي وخلق متعة خاصة، إذ استمرت (أم برهان) بعد وفاة عميد العائلة العيش في بيت القرية الذي تحيط به بيئة أقرب إلى البيئة البدوية الريفية بسبب ما تضفيه سنابل القمح الذهبية على المكان صيفاً من خصوصية. ومن أجل إبقاء العلاقات العائلية دافئة وصلة الرحم متواصلة، كان المكان يستضيف العائلة من الأعمام وأبنائهم وبناتهم لقضاء وقت مع هند وأمها وإخوتها الذين كان لهم أيضاً بيت جميل في الشيخ جراح حوّلته هند عام ١٩٤٨ إلى "دار الطفل"، لتُأوي فيه أطفال دير ياسين المنكوبين. ومن أهل الريف تعلّمت هند التراث الشعبي الفلسطيني، وأتقنت التطريز الجميل الذي كانت تعتز به كجزء من التراث والهوية.

وكان أهل القدس يعتبرون القرى مكملة للمدينة وجزءاً منها رغم تمسّكهم بحياة المدينة الأكثر تعقيدا والأكثر عصرية. بالإضافة إلى ذلك فقد حاولت السلطات البريطانية خلق تفرقة بين أهل المدينة والقرية. وظهر التمييز بين الفلاح والمدني في نابلس وقضاها، والقدس، إلا أن التكامل الحياتي والمعيشي والمصاهرة بين العائلات خلقت وحدة اجتماعية متناغمة مع زيادة الوعي والثقافة. وفشلت سياسة الاستعمار التي كانت تتبع سياسة "فرق تسد" على المستوى السياسي والاجتماعي.

* قطنت هند الحسيني رحمها الله عمان جارة لي في أم أذينة لعدة سنوات، ظلت تمارس هوايتها بالتطريز حتى مماتها، وأهدتني قطعة جميلة من شغلها وهي تتذكر السيدة (سميحة صالح) من لفتا التي علمتها التطرير وهي من لفتا .

وأمضت عائلة زلاطيمو المقدسية وقتاً ممتعاً بالريف الفلسطيني الذي وفّر لهم معارف وحياة جديدة. فقد بنى عبدالله زلاطيمو بعد انتقاله من حارة باب حطة في البلدة القديمة لوادي الجوز بيتاً ريفياً في قرية "عين قينيا" غربي رام الله في الثلاثينيات لقضاء أوقات سعيدة مع العائلة والاستمتاع بجمال الطبيعة. وظل البستان حول البيت المزروع بالزيتون والتين والعنب والرمان والخوخ، يذكّر عارف زلاطيمو وإخوانه وأخواته بطفولة سعيدة ساهمت في صنع جزء من شخصيتهم المرحة.

وكان الفتى الذي سيصبح بعد النكبة طبيباً ناجحاً عندما يعود لبيته في وادي الجوز من رحلته للقرية يصف لأقرانه الذين يلعب معهم في الحارة، كيف اصطاد عصفوراً من نوع "الفري" أو "الشنّار" وكيف وقع على وجهه وهو يطارد أرنباً لاصطياده دون نجاح. ويعبّر لأصدقاء الحارة الفتيان، أبناء أبو ناجي القدح، وكامل العفيفي، وفائق عفيفي، وأولاد الدقاق، وأولاد حسين الداوودي، وأولاد أبو هشام نسيبة تمنياته لو أنه يعيش في عين قينيا بشكل دائم.

سعادة الأم ربيحة خليل غوشة زوجة عبدالله زلاطيمو والبنات الصغيرات والأولاد عارف وإبراهيم وهيفاء وعفاف وفادية كانت لا تقل عن سعادة الأولاد خاصة "وأم عارف" تضفي على رحلة "شمة الهوا" جواً خاصاً من السعادة، وهي تعزف للزوج "والأسلاف والسلافات" على "العود" وقد تعلمته من زوجها "أبو عارف" الذي تعلمه بدوره من رامز الزاغة الموسيقي الفلسطيني الذي كان يعمل في فرقة الإذاعة الفلسطينية.

وتعلم الأولاد في العطل المدرسية صنع مطبق زلاطيمو المشهور الذي حرصوا على تناوله في وجبة الإفطار تحت ظلال الشجر. وصنع المطبق الذي أتقنه أجيال آل زلاطيمو المقدسية كما الجد محمد إبراهيم زلاطيمو الذي تخصص بصنعه في القدس.

وكان قد ورثه عن والده الذي افتتح محله في سوق خان الزيت عام ١٨٦٠ ليصبح هذا الطبق من أطباق القدس المشهورة. وكثيراً ما وصف أحد أفراد العائلة عن كيفية صنعه، لمن يسأل: "من الطحين والسميد والجبنة البلدية النابلسية". يظل هذا الطبق التراثي لليوم يحمل الطعم والمذاق نفسه الذي حملته العائلة معها بعد النكبة إلى عمّان وأماكن أخرى في البلدان العربية.

وقضى رشيد محمد زلاطيمو مع عائلته الكبيرة الزوجة وسبعة أولاد وأربع بنات وقتا دافئا في فصل الشتاء في أريحا. حيث كان لهم بيتٌ وبستان موز وبرتقال وباباي وبلح، وكان بجوار بستان الحكومة قرب قصور الشيخ صباح، كما تذكر نوال زلاطيمو زوجة عيسى القاسم من لفتا. وقد تكاملت المدينة والقرية بالمصاهرة والتقارب العائلي.



الحاج اسماعيل محمود النجار زعيم قرية لفتا في العشرينيات والثلاثينيات عضو الجمعية الاسلامية والمسيحية منذ انشاءها ١٩١٨ في القدس



القديم والجديد، صفية العبيدي زوجة الحاج اسماعيل مع زوجة الحفيد سلوى والحفيدات نائلة ، سميرة ، نوال ، والجارة ميريام اليهودية ١٩٤٧



بيت الحاج اسماعيل محمود النجار مختار قرية لفتا

بساتين موز أبو نملة

وجذب الريف أهل القدس ليس فقط "لشمة الهوا"، إذ كان للبعض بساتين مزروعة بالأشجار المثمرة كمصدر للإنتاج والتجارة. وكان أحدهم حسن نسيبة الذي كان يقضي أوقاتاً مفيدة في بستانه المزروع بالزيتون في قرية (صفا) قضاء رام الله. واستقطبت أريحا أصحاب الأعمال والتجار الذين كان لهم مزارع موز كمشاريع اقتصادية ناجحة، وكان لهم بيوتاً ريفية يقضون فيها فصل الشتاء. وشكلت مزارع الموز في أريحا مصدراً اقتصادياً جيداً درّ على ملاكيها مداخيل كبيرة. وكان من أبرز موزعي الموز من أهل القدس، جمال الحسيني، علي محي الدين الحسيني، الحاج جودت الحلبي، ميخائيل حنانيا، ديب الداوودي، توفيق وفا الدجاني، ربحي النشاشيبي، حنا خلف، إلياس طوطح، جورج صلاح وشريف الريماوي، إبراهيم أبوغوش وشركاه، يحيى قرش، عارف كردية، وجميل نزال وأخوانه وغيرهم. وكان لإسماعيل حمودة من لفتا أراض واسعة في أريحا تزرع بالموز، وكذلك أراض في شرق الأردن (مأدبا) تزرع بالقمح، وكذلك للحاج إسماعيل النجار أراض في الغور تزرع بالموز والحمضيات.

بالإضافة إلى ذلك، كان لعدد من أهل القدس من الطبقة الغنية بيارات في يافا، مزروعة بالبرتقال والكلامنتينا والخشخاش، التي كان إنتاجها يصدّر إلى أوروبا ويدر مدخولاً جيداً. وقد وصلت كمية الحمضيات المصدرة بين ١٩٣٥ - ١٩٣٦ من (١٫٤٥٠٫٠٠٠) - (١٫٩٠٠٫٠٠) طن تقريبا. وتأتي بعد كمية "الموز" الذي كان يزرع في أريحا، وبلغ من (١٫٧٥٠٫٠٠٠) - (٢٫٠٠١٫٠٠٠) طن، وكان موز "أبو نملة" المفضّل لدى أهل فلسطين[١٥].

وقضت نساء القدس وقتاً حراً في بيارات يافا المملوكة من الأهل والأصدقاء وظلت في ذاكرة من زار القدس، وخاصة في موسم (النبي روبين) الذي يقام في مصيف لا يبعد كثيراً عن يافا. وفيه مقام ومسجد "للنبي روبين"، حيث يقام بين حزيران وتموز من كل عام. وكانت الاحتفالات مبهجة لمن يأتيها من المدن القريبة، ويشاركون في غناء الأهازيج الجماعية:

يا رايح على روبين سلم لي على الحلوين

يا رايح على السكه هات لي معك شكله

يا رايح عالمنشية شوف لي واحدة شلبية

يا روبين يا روبين يا زهرة الحلوين

---

١٥ عادل جبر، "مستقبل تجارة الحمضيات" مقالة دليل والتجارة والصناعة. ١٩٣٧-١٩٣٨، القدس ص٣٨-٣٩.

وتمتع المصطافون بفرق "الجناكي" المتخصصات بالغناء في يافا، حيث كانت تحضر وتقيم حفلات تساهم في خلق جو من الفرح، بالإضافة إلى اشتراك كثير من الفرق المسرحية المصرية، وكذلك مشاهدة أفلام ليلى مراد، وعبد الوهاب، وأنور وجدي. ومن الطريف أن النساء في القدس كن يشترطن على العريس لقضاء شهر العسل في روبين ويقلن كما تذكر فايزة المهتدي عن رواية لأمها:

روبّني....

أي تريد قضاء شهر العسل في "روبين".

وأصبح المكان له خصوصية في ذاكرة من زاره من العرسان والمصطافين من أنحاء فلسطين. وسجّل الموسيقي المقدسي واصف جوهرية صوراً وقصصاً عن أجمل أيام "شمة الهوا" والشطحات التي تمتع بها في قرى أكناف القدس مع الأصدقاء والشخصيات المقدسية المعروفة الذين أحبوه. فقد أحّب الفن منذ حداثته وتعلم العزف على العود، كما تعلّم العزف على الربابة والأهازيج والدبكة والأغاني الشعبية من القرويين، وامتهن الموسيقى ومتّع أهل القدس بعزفها. وكانت قرية عين كارم المكان المحبب لأهل القدس لقربها وجمال طبيعتها المميزة بكثرة الأشجار المثمرة والفواكه الطازجة والمياه العذبة، والأزهار اليانعة. وظل "مقهى العرب" لصاحبه أبو عبد، ملتقى الأصدقاء "الرجال" للعب الورق وسماع الموسيقى من الأسطوانات.

وكان بين المصطافين المعروفين لقضاء وقت سعيد في عين كارم كان فخري النشاشيبي رئيس بلدية القدس (١٩٢٤)، حيث كان يحب حياة المرح، وقضى أوقاتا سعيدة في بيته الصيفي الذي استأجره في القرية ليطرب مع الأصدقاء بسماع عزف جوهرية وسامي الشوّا عازف الكمان الفلسطيني. وتمتعوا دون زوجاتهم بسبب التقاليد وعدم الاختلاط بصحبة الممثل نجيب الريحاني القادم من مصر مع زوجته بديعة مصابني، وكذلك سمعوا للشيخ محمد الصفتي من مصر وفرقته الموسيقية التي أطربت بنغماتها نخبة من أصدقاء النشاشيبي.

وأحب جوهرية زيارة صديقه يحيى حمودة في قرية لفتا، وقد تعرّف عليه وعمل معه في دائرة حاكم القدس ١٩٢٨، وتوطدت علاقته به لما لحموده من خصال حميدة وحسّ وطني عال كما تصفه جوهرية. وظلت صدقية ووجيهة بنات يحيى حمودة، وأية ويسرى جوهرية بنات واصف يتذكرن الزيارات العائلية بما فيها حمل الفواكه الطازجة وخبز الطابون التي كانت لواصف أحسن هدية يعود بها للبيت[١٦].

---

١٦. المذكرات الجوهرية (١٩١٨–١٩٤٨) مؤسسة الدراسات الفلسطينية ٢٠٠٥ تحرير وتقديم عصام نصار وسليم تماري.

كانت القرية توحي للزوار أن الهواء النقي والخضرة الدائمة تجعل المكان مصدراً للسعادة وشمة الهواء التي يبحث عنها أهل المدينة. وغنّت النساء القرويات وهن يستقبلن الشمس مبّكرات ليقمن بالواجبات البيتية ثم اللحاق بالرجال في الحقل للعمل:

يا شمس اقفيلي تني أعجن عجيني

وقعدنا الصغير يناغي في السرير

يا قماطة حرير من عند الخليل

وسعد الشباب والشابات في القرى بالعمل معاً جنباً لجنب، كون المرأة القروية سافرة لا تغطي الوجه كما كانت المرأة في المدينة تلبس الحجاب. وكان موسم حصاد الزيتون وعصره، موسماً للتعارف في الحقل وفي كثير من الحالات انتقاء العروس من بين البنات النشيطات. وظهر هذا في الأغاني الشعبية وهم يرددون:

ثلاث بنات يا خالي أما الزغيرة تحلالي

تمشي حط وبشيل ونط غزال فط من قبالي

أما الوسطى يا خالي أما الوسطى تحلالي

تمشي هز بثوب القز غزال فز من قبالي

تمشي هل وخصري انحل غزال فل من اقبالي[17]

رائحة خبز الطابون

وعرف أهل القدس وبناتها الحياة الاجتماعية للقرية الفلسطينية، عن كثب سواء في زيارات عابرة أو الإقامة في بيوت الأقارب أو البيوت الريفية التي يملكونها. وظل "الطابون" أو "الفرن القروي" في الذاكرة وهن يشاهدن المرأة القروية قوية البنية المتواضعة تواضع الأرض تخبز فيه وتقوم بأعمال البيت والحقل دون كلل وتتنافس مع بنات العم والجارات على العمل المتواصل والمتنوّع.

١٧ عن حياة القرية والريف الفلسطيني انظر :عطية عبدالله عطية، عين كارم، الحقيقة والحلم، ١٩٩٢، عمان.
- لفتا، (رقم (١٢) القرى الفلسطينية المدمرة، جامعة بير زيت، شريف كنعانة ولبنى عبد الهادي، ١٩٩١
- زكريا صيام، القدس مدينتي، لفتا قريتي، ١٩٦٩.
- ابراهيم عيسى عثمان، الحياة الاجتماعية في قرية بيت صفافا، الشروق، ٢٠٠٥.
- حكاية قرية ، قرى فلسطينية المدمرة عام ١٩٤٨ في منطقة القدس. +المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٠.

وسعدت بنات القدس بمشاهدة الطابون الذي لا علاقة لهن باستعماله ككثير من القرويات. فالطابون يختلف عن فرن أهل المدينة فهو من صنع المرأة وبمساعدة القريبات والجارات تبنيه من الطين أو الصلصال. ويبنى على شكل قبة مستديرة لها فتحة في الأعلى، وله باب معدني له مقبض يرفع لإدخال الأرغفة التي تستقر على الأرضية الداخلية المفروشة بحجارة بركانية ملساء تسمى "الرضف" تُجلب من الواد تكاد تكون ذات أحجام متساوية. ويوقد الطابون بطريقة خاصة لتسخينه إذ يلف على محيطه الخارجي حطب، أو "جلّة" مصنوعة من روث الدواب بعد تنشيفه، أو "بالجفت" وهو بواقي بزر الزيتون بعد عصره. وتوضع في قلب الطابون الأرغفة المعجونة بطريقة تبدو وكأنها خاصة في "الباطية" الخشبية من طحين الزيرو الأبيض الاسترالي المستورد، أو من طحين القمح البلدي المفضل لدى القرويين. يظل الرغيف دون حراك في قلب الطابون حتى "يحمّر" وتبشر رائحته المغرية بأن الخبز جاهز للأكل. واستغلت النساء الطابون لشواء اللحم "والمعلاق" يوم العيد وما طاب مذاقه من شواء ومنه "فقس" البيضة كاملة على وجه الرغيف لتنضج بقلبه بشكل متكامل. وحرص أهل الريف على إهداء الأهل والأصدقاء في المدينة خبز الطابون لتكون أثمن هدية يقدرونها كونها من اختصاص أهل القرية. كان أهل المدينة يحبون خبز الطابون، لخصوصيته ونكهته كونه يخبز في "فرن" يختلف عن أفران القدس المنتشرة في الحارات والتي لا "رضف" أو "حجر" فيها تحفر في قلب العجينة فراغات تتشكل كلوحات فنية في قلب الرغيف.

وتذوق أهل المدينة والقرية بلذة طبق "المسخّن" المشهور في قرى فلسطين الشمالية والتي أصبحت من الأطعمة الوطنية التراثية الفلسطينية المعروفة. وتطبخ من لحم الدجاج والبصل والسماق وزيت الزيتون التي توضع على خبر الطابون دون غيره ليصبح الطبق المفضّل لدى أهل القرية والمدينة في الشتات وليفاخروا بتراث الأجداد وليحافظوا عليه.

واشتهرت نساء الخليل وقراها بإعداد طبق "القدرَة". ويحضّر من الرز ولحم الخاروف الذي يوضع في قدر خاص من "الطين" يُطمر فيَ حفرة حولها النار أو يوضع في الفرن حتى ينضج على نار هادئة. وكان أهل الخليل الذين يسكنون القدس يسعدون عندما يقضون نزهاتهم في بلدتهم الخليل ويستمتعون بأكل القدرة، ويرجعون محمّلين بالعنب المطبوخ "الملبن" يفاخرون به وهم يوزعون الهدايا على الجيران. وتميّزت المدن والقرى الفلسطينية بتخصصات نسبت اليها، مثل الكنافة في نابلس، والمسخن لطولكرم والقضاء، والسمك ليافا وغزة، والقدرة للخليل.

وأحب الرجال المنسف الذي يتناول بالاصابع ويطبخ من اللحم واللبن الذي يوضع فوق الأرز في "صدر" صينية واسعة تعده نساء القرية. كما أتقن طبخه الرجال إذ كانوا يشاركون بطبخه عندما تكون كمية الطعام كبيرة وتحتاج لجهد مضاعف، مثل مناسبات الأعراس

والطهور ونجاح الأولاد في المدارس أو الجامعة، وعقد البيوت الجديدة، بالإضافة لتقديمه بكرمٍ كبير للضيوف من كبار الشخصيات والمسؤولين الذين يزورون القرية.

أفران خبز المدينة

لم يكن تعب المرأة في المدينة بقدر تعب القروية التي تقوم بالعجين وخبزه في الطابون. فخبز المدينة كان مختلفا بعد أن يخمّر يقطع إلى أرغفة، ترسل على "طبلية" خشبية يحملها أجير الفران لخبزها بفرن الحارة وإعادتها. ويكون الخبز كماج، أو الخبز المنقوش، أو الإفرنجي مستطيل الشكل. وكان أكثرية أهل القدس يعتمدون على الأفران العامة التي يقوم الرجال بالعمل فيها. وكانت تحمى بالحطب قبل انتشار الأفران الكهربائية والغازية. وكان الناس أيضاً يرسلون أكلات خاصة تطبخ بالأفران وليس على البريموس أو بابور الكاز الذي كان الأهم في المطبخ للطهي سواء أكان نمرة (٤) أو نمرة (٨) الذي كان يحمل على رأسه "قدر" يتربع فيه خروف العيد. وظل البابور يذكّر أهل فلسطين بمنزلته الكبيرة في المطبخ قبل استعمال أنواعا أخرى من الوقود، وقد أصبح اليوم من القطع التراثية في بيوت من يحمل ذاكرة الوطن. استعمل أهل القدس الحطب للوقود والفحم الحجري، في تدفئة الغرف "بالكانون" وكان الحطب يباع في الدكاكين منها محل صالح إبراهيم مجج، شارع سليمان ص.ب ٨٧٤، ت ٧١١. واعتمدت أفران القدس أيضاً عليها لتظل موقدة تخدم أهل القدس وتوفّر لهم الخبز الساخن، وكعك العيد، والخاروف المحشي، واللحم بعجين، وصينية اللحمة، واقراص السبانخ.

وشهدت أفران القدس ازدحامات وحركة في الأعياد الإسلامية والمسيحية، حيث كان "خروف العيد" وكعك العيد، من حلبة وتمرية وكنافة تخبز بشكل يكاد يكون جماعياً. وظل أصحاب أفران القدس يتذكرون عملهم الذي كان الأهم، لأنه يتعامل مع رغيف الخبز للغني والفقير. ففي حارات القدس ظلت ذاكرة فرن الصفدي في وادي الجوز، ومخبز إبراهيم خضر داخل باب العامود، وكان متعهداً أيضاً لتوريد الخبز العربي والإفرنجي إلى المستشفيات والمدارس والأديرة والمنازل، "والفرن الوطني" في حارة النصارى لأصحابه نقولا اشتكلف وديب خليل بطشون. وعرفت المخابز بدورها مطحنة القدس الكبرى في شارع مأمن الله منذ عام ١٨٧٦ وشركة المطاحن الشرقية لمحمود درويش الداوودي في باب العامود رقم ١٢٠ لترفد المخابز بالطحين، وليتذكرها أحفادهم. وظل مخبز أبو سنينة في حارة الشرف التي هدمها اليهود المعروفة اليوم بحارة اليهود" يطعم أهل القدس الخبز والكعك بسمسم، ويوصل الطلبات للناس. فرائحة الكعك لم تتغيّر من حارة لحارة أو فرن لفرن.

وشاركت مطاحن القهوة في القدس في خلق خصوصية لأزقة المدينة وهي تنشر رائحة البن لتختلط مع الروائح المنبعثة من الأفران أو محلات العطارين. واشترى الناس البن العدني

والبرازيلي من محل منيب عبد الرحمن في حارة النصارى، شارع الخانكي ت ١٤٢٦ ومن مطحنة البن العصرية لصاحبها فريد بيوك في نفس الشارع ت ٦٤٠. ومن مطحنة البرازيل في باب خان الزيت لصاحبها عثمان صالح عبد اللطيف الذي ورثتها العائلة أبا عن جد، لتتذكرها العائلة في الشتات.

غرباء في المجتمع (الغجر)

وبسبب التنوع بين الناس الذين استقروا في المدينة فقد وجد بين الطبقات الاجتماعية في القدس شريحة اجتماعية فقيرة مهمّشة تعرف "بالنَّور" أو "الغَجر" وهم مجموعة من عشيرة ذات أصول هندية لهم صفات خاصة، من ذوي البشرة السمراء، والشعر غامق السواد انتشروا في المنطقة منذ مئات السنين. وقد سكنوا في القدس في باب العمود، وباب الأسباط وباب المغاربة في بيوت متواضعة، وكذلك في خيام مترهلة سميت "بالخرابيش". وعملوا في مهن وصناعات يدوية بدائية. وكانت القرى إحدى الأسواق التي يعتمدون عليها في حياتهم الاقتصادية البسيطة كصناعة وبيع الأدوات المنزلية المستعملة في المطابخ القروية، مثل "الدست" أو القدر النحاسي الواسع الذي يُطبخ فيه الخروف، والصواني النحاسية الكبيرة لتقديم المنسف، والقدر الفخاري لطبخ القدرة، والباطية المصنوعة من الخشب للعجين، ومقاور الكوسا. بالإضافة إلى ذلك كانوا يقومون بزيارة القرى "لتبييض النحاس" وبيع المسابح وبعض أدوات الطرب كالربابة وقراءة الطالع. وكانوا معروفين "بالسن الذهبي" الذي يزين فَمهم عندما يضحكون، إذ كان تركيب سن الذهب أحد مهنهم، ليصبح سن الذهب للبعض مؤشراً على أنهم من "الأغنياء". وكثيراً ما كان الناس يسألون بعضهم عن مبيّض النحاس الذي ينتظرون قدومه الى الحارات أو القرى ويعدون طناجر النحاس والقدور والصدور، والصواني لتبييضها ويقولون:

- هل أتى المبيّض أبو سن ذهب؟.

وعرف أهل القدس وقراها، الغجر بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم من مأكل وملبس. ولفتت فساتين بناتهم النظر لوضعهم الاجتماعي البسيط، وكانت تتميز بالألوان الزاهية المطبوعة بالورود، ذات الخصر المزموم وعلى أسفله كشكش. وكن يتصرفن ويتكلمن بلغة عشيرتهن وتسمى "بالدوم" وهي لغة محادثة وليست لغة مكتوبة. واشتهرت نساء الغجر بقراءة

* أحب بعض الناس حياة النَّور، ووجدوا في حياتهم حرية وطرباً وكان أحدهم مصطفى وهبي التل شاعر الأردن الذي نظم شعرا بيّن فيه علاقته بهم في عشيات وادي اليابس. وقال شعرا :» بين الخرابيش لا عبد ولا أمه / الكل زط مساواة محققة. ولا أرقاء في أزياء أحرار تنفي الفوارق بين الجار والجار. انظر عايدة النجار - بنات عمان أيام زمان.(ذاكرة المدرسة والطريق) دار السلوى للدراسات والنشر، عمان ٢٠٠٧. ص ٧٥

الطالع، وكان في القدس وقضاها مشعوذون ومشعوذات، يتفرقون في الشوارع والأزقة وتسمع النساء تستقطب المارة بالمناداة:

بصّارة ... برّاجة... نشوف البخت... نفتح بالودع.

كان الناس يتجمعون حولها وهي تفرد الودع على الرمل، وتبدأ باسترجاع ما تحفظه من عبارات وجمل. وكانت البصارة تخيف بعض النساء بقصص الخرافات وعمل حجاب لكي يبطل الخطر الذي تنبأت به عن قصد من أجل بضعة قروش. بالإضافة إلى ذلك فالمرأة التي تقوم "بالشعوذة" كثيرا ما أعطت النصائح لمن يقصدها إذا ما تأخرت ابنتها عن الزواج، أو بإعطاء وصفات لإيجاد عريس أو لفت نظر القريب أو ابن الجيران، أو لفسخ خطبة لبنت غريمتها التي خطبت قبل ابنتها، فمهاراتها الخبيثة كانت مطلوبة في مجتمع كان بينه من يؤمن بالشعوذة والسحر والخرافات.

وتتذكر سيدة وقعت تحت الأعيب إحدى الضاربات بالودع تقول:

– "كان مكرها وخبثها سببا في خراب بيتي وطلاقي من زوجي".

وعرف أهل القدس وقراها من الغجر قبل النكبة مطربون لهم شعبية كانوا يغنّون في الأفراح في القرى ويعزفون على الربابة والآلات الموسيقية، ومن بينهم اشتهر المطرب جميل العاص الذي عرفته القرى بآلته الموسيقية قبل هجرته للأردن، وكذلك المغني عبده موسى.

نافس هذه الشريحة المهمّشة، باعة كانوا يتجولون في حارت القدس، وهم يجرّون عرباتهم، وينادون بصوت له نغمة غنائية تجلب الزبائن.

– خيطان، ابر، أمشاط وبُكل، دبابيس، جرابين محارم،

بالإضافة إلى ذلك كان الباعة من صغار التجار يتجولون أيضاً في القرى حاملين حملهم الخفيف ليصل لنساء القرية اللواتي كن ينتظرن باعة الأقمشة. ويتذكر أهل قرية بيت صفافا بائعين يهوديين كانا يترددان على القرية، إبراهيم وموسى، يحملان الأقمشة. على ظهريهما من بضاعتهم المرغوبة من الحبر والبفت وخيطان DMC لعمل الأثواب وتطريزها. كما كان عيسى القنبر من سلوان، يحمل البضاعة ويبيعها لمن يريد من النساء بالدين.

الفصل الخامس

البنت الشلبّية



سلوى الماضي سعيدة بإبنتها البكر عريب عارف النجار

٥

أن تلد امرأة طفلا في القدس لم يكن حدثاً عادياً، فقد كان يخلق حركةً وجواً مختلفاً عن المألوف ليس للعائلة فقط، بل للأهل والجيران الذين يقطنون داخل السور أو خارجه. فالولادة لها طقوسها وعاداتها الشخصية والجمعية الموروثة والحديثة في المدينة كما باقي مدن فلسطين وقراها.

ردود الفعل لدى ولادة الطفل، تكاد تكون متشابهة سلباً أو إيجاباً للأهالي الذين ينتظرون ويستعدون لاستقبال المولود الجديد. ولأنه لم يكن باستطاعة الأطباء والعلم حتى منتصفِ القرن العشرين في القدس كما في أوروبا والغرب الأكثر تقدماً معرفة جنس الجنين، فقد ظلّ نوعه لغزاً في رحم الأم خلال الشهور التسعة مدة الحمل الطبيعية. فالأم والأب والعم والعمة، والخال والخالة والحماة والأهل والجيران أيضاً، كانوا يخمّنون ماذا ستكون هذه الكومة من اللحم في بطن الأم

بنتا .... أم ولداً؟.

ويسمع صوت النساء الأكثر فضولية وثرثرة من الرجال وهن يطلقن الملاحظات والتخمينات فتقول إحداهن للحامل:

- إنت حليانة كثير ...
- يعني بدك تجيبي بنت.
- وتقول أخرى،
- شوفوا ظهرها ومشيتها المرفوعة القوية ... بدها تجيب ولد.....

وفي فترة الحمل "تتدلع" الحامل على الأم والحماة والزوج، وخاصة عندما "تتوحم" على طعام أو فاكهة، وتُلبى طلباتها وهي تتناول المخللات الحامضة أو الجرنك والليمون

والكرز، وحتى الفواكه غير الموجودة في وقتها، كما تمنع من القيام بالأعمال المنزلية المتعبة، خوفا على الجنين من السقوط.

داية الحارة

وعندما يبدأ المخاض، تستعد "داية الحارة" المشرفة على صحة الأم خلال فترة الحمل، للحدث المهم، وتكون على أهبة الاستعداد ليلاً ونهاراً لإحضارها بسرعة للقيام بعملية الولادة في البيت عندما يحين الميعاد.

كان للداية أو القابلة منزلةٌ خاصة لدى أهل القدس يعرفون عنوان بيتها. ووجد في كل حارة داية، فأمينة طوطح تسكن دار منّا في حارة السعدية، ورمزية المهتدي تسكن في عمارة الارناؤوط في باب السلسلة، وجوليا هيمة في البقعة الفوقا كما جوليا هشة. واميلي عبود عنوانها في دار جميل سليم في كولونية اليونان وفاطمة أخوس في المصرارة، ومدلله بركات الجبشة في حارة النصارى وزهية بستيه في باب السلسلة، قرب هوسبيس النمسا، وفاطمة عبد سقاالله في باب حطة، وجوليا شامية في دار أبو علي، في حارة النصارى ورجينا سكر مستوصف الأحداث، باب السلسلة، وربيعة شريف دار حاج خليل عروت، باب حطة، ماري شهلة مستشفى الحكومة للولادة، ونساب طنوس، وشفيقة مصيص، في البقعة الفوقا، ولبيبة ناصر، عمارة على الغولي، روميما، وميلادة قبطي في مستشفى الحكومة. "وبهية" عفيفي وكانت تسكن وادي الجوز والذي سوف يصبح ابن أخيها كامل العفيفي طبيباً للعظام بعد النكبة. وكان أولاد الحارة يحبون "العمة بهية" عمة صديقهم في لعبة الفوتبول، وكانوا يقطعون اللعب ليركضوا نحوها وهي راجعة لبيتها بعد ولادة طفل جديد في الجوار، ويقولون مبروك... مبروك... ولتوزع عليهم الملبس إذا كانت مبسوطة. وقد عرفت قرية لفتا (عاقلة) رائدة القبالة التي درست "القبالة والتمريض" في الجامعة الأمريكية في بيروت، وقد تزوجت من ابن عمها د. على عاقلة الذي درس الطب في نفس الجامعة. ولتظل تعمل إلى جانبه قبل النكبة في حيفا، ثم في مستشفى عاقلة في عمان بعد النكبة. وقد حضرت إلى القرية من بوليفيا حيث هاجر والدها وكان عمرها ١٢ عاماً، عندما عادت لفلسطين.

أطباء وطبيبات

لم تقتصر الولادة على عمل القابلات، بل أخذ كثيرون من أهل القدس بالذهاب إلى الأطباء المتخصصين في المستشفيات الحكومية والعيادات الخاصة لتوليد النساء بدل القابلات وإن كنّ المفضلات. ومنذ الثلاثينيات وجدت بين نساء القدس طبيبات رائدات في هذا المجال رفعن بعض العبء عن عاتق القابلات، بل أخذن ينافسنهن. وظلت الدكتورة عبلة فوزي التي



رائدة القبالة والتمريض عاقلة من قرية لفتا



الدكتورة سلوى العتيقي خوري
عملت في مستشفى الولادة
في القدس



الدكتور علي عاقلة وزوجته عاقلة مع اطباء وطبيبات



الدكتور سامي خوري مع زوجته جريتا طقطق وزميله وزوجته في مستشفى الهوسبيس

عملت في مستشفى الحكومة في ذاكرة المدينة، وكذلك الدكتورة لورة مغربي المتخصصة بأمراض النساء والأطفال موضع ثقة الجميع، وعيادتها في باب العامود وتتذكرها الأمهات والجدات لأنها ولّدت فلذات الأكباد من الأبناء والبنات. وعملت الطبيبات الرائدات جنباً إلى جنب مع الزملاء الأطباء. وأشرفت الدكتورة سلوى خوري العتيقي خريجة الجامعة الأمريكية في بيروت على ولادة البنات والأولاد في المستشفى الحكومي في القدس، في حقبة الثلاثينيات والأربعينيات. كما ساهمت الدكتورة شارلوت نيقولا سابا من رام الله في مجال الصحة لتصبح من الرائدات بعد تخرجها من لندن.

وأصبح الآباء والأمهات يعجبون بمهنة الطب ويفضّلونها على مهنة الهندسة التي أخذت عائلات القدس بالاهتمام بها لأولادهم. ولم يكن ذلك من فراغ، فقد ساهم الأطباء بالعناية بالصحة العامة وصحة الأطفال والنساء وزاد عددهم في المدن الفلسطينية بعد أن درسوا في الخارج رغم سياسة الانتداب البريطاني بعدم تشجيع تعليم العرب، وكانت منحازة لتعليم اليهود. الا أن حلم كثير من العائلات المقدسية الغنية قد تحقق تعليم أولادهم الطب والعلوم الأخرى في مصر، وسوريا، ولبنان، والعراق، وأوروبا. وكان حماس الطلاب كبيرا لبعض العائلات من الطبقة الوسطى أيضاً، وقد حرص اسحق عبد اللطيف من القدس وله "ملحمة" في حارة خان الزيت لتعليم ابنه المجتهد درويش عبد اللطيف الطب، وقد لاحظ استعداده لذلك، وكان الولد يعمل بالعطل الصيفية في دكان والده، واستمر بذلك بعدما أرسله والده للقاهرة لدراسة "طب الأطفال". وظل فخورا بعصاميته وهو يساهم في تعليم نفسه. وأسس الطبيب وزوجته عائلة متخصصة من الأطباء بعد أن تزوج من قريبته د. زينب عبد اللطيف التي درست طب الأسنان في القاهرة بعد النكبة* في الخمسينيات.

وظهرت في القدس بين العائلات البرجوازية والوسطى شريحة اجتماعية من الأطباء لهم منزلة محترمة بين الأهل والأصدقاء. وبرز من أطباء القدس قبل النكبة ١٩٤٨، عدداً ظلوا في ذاكرة المدينة بعد الشتات منهم: د. سامي خوري و د. محمود دجاني، وعيادته في شارع مأمن الله رقم ٣٦، وحسام سعود وعيادته في عمارة البلدية القديمة في باب الخليل، وعزّت طنّوس في شارع مأمن الله، وحنّا عطاالله في عمارة حنضل في مأمن الله، وكان اختصاصي بالأمراض الداخلية وأمراض النساء، وتليفون العيادة ١٩٨٨ ورأفت أمين فارس، وكان يعمل في دائرة الصحة المركزية، و د. حسين فخري الخالدي، (البلدية) و د. توفيق كنعان، و د.نايف أمين حمزة ود. إبراهيم علم الدين في دائرة الصحة، ود. برنابي، ود. يعقوب نزهة، وتوفيق باز، وجورج فرح شارع مأمن الله، ود. داوود بولس ود. فوتي فريج في شارع مأمن الله ت

* أبناؤهم : د. حسين عبد اللطيف، طبيب أطفال د. حسام عبد اللطيف طبيب أسنان، وحفيدهم درويش عبد اللطيف طبيب أسنان.(بعد النكبة)

٣٦٤، ود. توفيق ميناسيان، داخل باب العمود، ود. ثيودور كتفاجو، جورة النسناس، وفاهان كلبيان في شارع البرنسس ماري ود. بطرس أبو سابا المستشفى الايطالي، ود. خليل بديري في مستشفى مار يوحنا للعيون ود. عمر بديري، باب الخليل و د. حداد باب العمود وسعيد دبّاغ مختبرات الحكومة المركزية. ود. محمد شقير، دائرة الصحة المركزية، ود. ميخائيل شماس، ود. فرالدجيس، الباب الجديد، ود. عبدالله المغربي باب العامود، ت ١٣٨٦ ود. توفيق ميناسيان[١٨].

بالإضافة إلى ذلك، فقد أخذ الناس يهتمون بالصحة بشكل عام وبالأطباء المتخصصين ومنهم "أطباء الأسنان، وكان بينهم بنت "شلبية" رائدة هي نهيل الدجاني زوجة د. محمود طاهر الدجاني الذي تخرج من الجامعة الأمريكية عام ١٩٣٢ وقد تعرف عليها في بيروت لتعود معه إلى القدس. وكانت عيادتها في شارع مأمن الله رقم ٣٦. ويتذكر أهل القدس أطباء الأسنان الذين كان أولادهم وبناتهم يتهربون من الجلوس على "الكرسي" وفتح الفم لينخر فيه طبيب الأسنان الحفر ويرقعها أو يخلع الضروس، ومن بينهم د. إبراهيم جورج، ود. برهان عبد الهادي، شارع مأمن الله ود. محمد نجيب ود. نزهة في شارع مأمن الله، ود. إميل خضر، ود. سليم الخالدي عمارة الراهبات، ود. خليل في الباب الجديد.

ووجد في القدس عدد من الأطباء الأرمن، منهم "كيورك باخشيجيان، عيادته في باب الخليل، وبيير ماركريان، في شارع يافا، والكساندر بينوس، في الباب الجديد، وهرانت يردوميان، شارع جوليان واكوب كيراكوسيان، في سوق البزار، وغيرهم وقد أتقنوا مهنة صنع وتركيب الأسنان الاصطناعية ككثير من المهن الدقيقة الأخرى[١٩].

وساهمت جمعيات نسائية عربية وأجنبية بالعناية بصحة الأم والطفل، وكانت تقدم خدمات مجانية لنساء القدس والقرى المحيطة بها. واهتمت الجرائد اليومية **فلسطين الدفاع والكرمل** بنشر المقالات المتعلقة بالصحة والنظافة وتعليم المرأة العناية بالطفل. كان الاهتمام واضحاً بالعناية بالصحة العامة، ومعالجة الأمراض التي كانت معروفة في ذلك الزمن مثل السعال الديكي، والحصبة وداء الخانوق، والحمى النفاسية، والأمراض الصدرية. وكان مستشفى الحكومة في المسكوبية التابع للروس يستقبل المرضى الكبار والصغار، حيث ضم داراً للولادة وفرعاً للجراحة وأخرى للأمراض الباطنية وفيه مدرستان للأمراض الباطنية واحدة لتدريب الممرضات وأخرى للقابلات. ولم تنس الجدات كيف عالجن الأحفاد المصابين بالحصبة بإلباسهم ثوباً أحمرَ "ليهزم المرض". كما كن يحضرن وصفات خاصة من الأعشاب

١٨ من ذاكرة العائلات وإعلانات الجرائد، وأوراق خاصة.

١٩ دليل التجارة والصناعة والحرف والمهن العربية في فلسطين وشرق الأردن ١٩٣٧– ١٩٣٨، ومن ذاكرة العائلات وأوراق خاصة.

لإزالة الإحمرار من الجسم، بالإضافة لتلبيس المريض حجابا صنعه شيخ الحارة لإبعاد الشر عنه. كان مرض السعال الديكي أو "الشهقة" يعالج بإبعاد المصاب عن بقية الأطفال خوفاً من العدوى. وكان الأهل يأخذون الطفل المصاب الى مكان فيه هواء نظيف تحت أشجار "الكينيا" التي تعتبروها دواء ناجعاً.

وانتشرت المستشفيات المتخصصة في المناطق المختلفة في القدس مثل المستشفى الإيطالي حتى عام ١٩٣٩، ومستشفى الأمراض السارية التابع للحكومة ويقع على مفترق الطرق بين بيت لحم وبيت صفافا والقدس، ومستشفى تيخو الملكي للعيون، ومستشفى البرص بين حي الطالبية من الشمال وحي المصرارة من الجنوب والحي الألماني من الشرق. إلا أن هذه المستوصفات وغيرها لم تكن تفي بالحاجة وخاصة للفقراء. ونظراً لقلة عددها كانت المستشفيات تعج بالمرضى القادمين من القرى المجاورة لعدم توفر مستشفيات متخصصة ومستوصفات لهم، مما كان يزيد في تهميشهم وعدم الاهتمام بهم كما سكان المدينة. وأخذ القرويون في مجتمعاتهم أيضاً بتشجيع أولادهم لدراسة الطب، ومن قرية لفتا عرف د. محمود العاصي. وبرز الدكتور علي عاقلة.

مولود جديد

لم تكن ولادة البنت مصدر سعادة لكثير من النساء والرجال ليس في القدس فحسب، بل في مدن وقرى فلسطين وكأن عدم الترحيب بالمولودة الأنثى إرثٌ تناقلته الأجيال. وكان إذا ما سمع الجيران وأهل الحارة زغرودة تلعلع من الشبابيك يعرفون أن القادم "ولد" وإشارة واضحة على التحيّز للذكر منذ الطفولة. وكثيراً ما سمع الوالد الزغرودة وهو مشدود الأعصاب ينتظر ولادة زوجته على المقهى المجاور لبيته. وشهد مقهى زحيمان وقليبو في باب العامود، ومقهى دعدس وسمارة في حارة النصارى وقهوة الباشورة في طريق باب السلسلة، فرحة الرجل، خاصة إذا كان الولد بكراً، بعد سماع الزغرودة. ليعود مسرعاً بعد أن يوزّع الحلوى على أصدقائه وقد انتظروا معه الخبر السار وهم يحتسون القهوة والشاي و يدخنون الأرجيلة التي تساعده على أن ينفث أنفاسه المكنونة قبل تلقي الخبر السار في حالة الولد أو غير السار، لمن يُرزق بنتاً.

ولم يبخل الآباء، فكانوا يكافئون الداية التي تطلق "زغرودة البشارة"، بهدية ثمينة، وكأنها السبب بجنس المولود، خاصةً اذا كان ولدا وبعد أن تضربه على قفاه لإطلاق "صرخة الحياة"، التي ترفع صوت الوليد بالبكاء والإعلان عن الخروج للحرية من رحم أمه. وكان هذا البكاء ينزل على قلب الأم والأب كالبلسم. أما الهدية فغالباً ما تكون قطعة قماش سوداء من الحَبَر الأسود أو الكريب الجورجيت لخياطة ملاية أو كاب أو فستان.

أطفال سعداء



علي أول يوم مدرسة



باسمة وأمينة شقير الطفولة البريئة واللعب بالثلج



غيث في "عرباية" من محلات زنانيري في القدس



حجير ، يركب دراجة هوائية من صنع والده في بيت لحم ١٩٣٠

كانت الهدايا تشترى من الأجواخ والأقمشة والأصواف من محلات (المانيفاتورة) الكثيرة التي كانت منتشرة في أسواق القدس العتيقة، ومأمن الله وشارع يافا. أكثرهم نشاطاً تجار من أهل الخليل هاجروا للقدس وتوزعوا بين الثوري وباب حطة والشيخ جراح. وقد استحوذت عائلة بركات على نسبة كبيرة من هذه التجارة المربحة، منهم أمين بركات وإخوانه وسليمان بركات وأولاده والشيخ عبد الباري بركات وأولاده وكانت محلاتهم في سوق البيزار. أما عبد المجيد وسعيد بركات وعمر بركات في سوق التجار وظل محل عزت عبد الرزاق بركات في حي الشماعة حتى عام ١٩٤٨ حيث نقل إلى سوق البيزار ليعمل به ابنه نافذ بركات حتى ١٩٧٦ [٢٠].

ومن تجار أهل الخليل الذين عرفوا بتجارة الأقمشة والمانيفاتورة عبد الرحمن أبو خلف (أبو فايز) الذي افتتح محله عام ١٩٣٨ في سوق الخواجات في البلدة القديمة ونقله إلى حارة النصارى في سوق البيزار ليظل يعمل فيه الأولاد والأحفاد. وسكن صالح ناجي جمعة السلايمة وهو من اهل الخليل ويسكن في باب السلسلة وكان دكانه "للمانيفاتورة" في باب الخليل .أما قريبه محمود شعبان السلايمة الذي كان " عامل طراشة" فكان يسكن قي الجوار، وقد سجن أكثر من مرة لنشاطه ضد الإنجليز مع الكثيرين من أهل البلدة القديمة في سنين الثورة. ويقول حفيد الجدين، د. خالد صادق السلايمة " أننا في العائلة كنا شريحتين، إحداها برجوازية والثانية من الطبقة العاملة".

كانت أكثر المحلات تستورد البضاعة من الشام وإيران ومنها قماش المالطي والبفت والحرير، وقماش القنابيز "والشدادات" "الزنار" من الحرير العجمي والقطن، كما "اللفات" التي يستعملها الشيوخ، وكذلك الطرابيش، والحطة والعقال. ويبدو أن استحواذ آل بركات على السوق أهّل الشيخ عبد الباري بركات أن يكون بين أعضاء الهيئة الإدارية في الغرفة التجارية العربية في القدس في سنة تأسيسها عام ١٩٣٦. وبرز الحاج طاهر بركات في العائلة الكبيرة. وتشكلت غرفة تجارة القدس من أعضاء الغرفة التجارية في القدس: أحمد حلمي باشا رئيس،*

---

٢٠ مقابلة مع السيد نافذ بركات، عمان، ٢٠١٠/٥/١٧ روى رفضه بيع المحل خوفا من تسربه لليهود الذين قاموا بالاستيلاء على كثير من المحلات والبيوت في البلدة القديمة.

* أحمد حلمي عبد الباقي (١٨٨٢-١٩٦٣) سياسي وطني واقتصادي، عمل في المجلس الإسلامي الاعلى وقام بعد هبة البراق بتشكيل اللجنة المركزية لإغاثة المنكوبين في فلسطين. اشترك عام ١٩٣٠ في تأسيس البنك العربي في القدس مع عبد الحميد شومان. أسس بعد ذلك البنك العربي الزراعي، وبنك الامة العربية، وشركة صندوق الامة لانقاذ الاراضي من سرقة اليهود. ترأس غرفة تجارة القدس، ١٩٣٧. سجن لاشتراكه في اضراب ١٩٣٦ نفي الى سيشل مع الوطنيين « د. حسين الخالدي، يعقوب الغصين، فؤاد سابا، رشيد الحاج ابراهيم عين عام ١٩٤٨ « رئيس حكومة عموم فلسطين «له ديوان شعر «ديواني» نشر لاول مرة عام (٢٠٠٢). كان متفائلا وقال في مطلع قصيدة له تحت حرف الياء :

تضيء لك الليالي حين تبدو   بسيم الوجه وضاح المحيا
اذا ما شئت ادراك الاماني   فقل للنفس للاقدام هيا

الشيخ عبد الباري بركات نائب رئيس الشيخ شبلي جمل، نائب رئيس، شكري ديب، أمين صندوق، حسن قليبو، عضو، قسطندي سلامة، عضو، كامل وفا الدجاني، عضو، يوسف البينا، عضو، انضوني حلبي، عضو، إلياس جلاد، عضو، فؤاد النشاشيبي، عضو، فائز المهتدي، عضو، عبد الرحمن الجبشة، عضو، وجورج أسعد خضر، سكرتير، وكان مركز الغرفة الرسمي في القدس، شارع جوليان ص. ب (٢٤٦) ت ٩١٠.

بالإضافة إلى ذلك، فقد أقبل عدد كبير من عائلات القدس من الطبقة الوسطى على إيجاد محلات تجارية لبيع الأقمشة والملابس الجاهزة في الأسواق داخل وخارج السور منهم، الشهابي، عرفة، العسلي، عقل، ناصر، وقنواتي وسمعان، شاهين أو الشركة العربية للمانيفاتورة، حيث كان البعض يبيع بالجملة والمفرق، ومنهم عكرة، فريج، قرنفل، قنقر، مرقة، منّه، الشخشير، المهتدي. ومن محلات الألبسة الموزعة في السوق، توفرت لنساء القدس احتياجاتهن من المعاطف والفساتين والبيجامات، والألبسة الداخلية، وأدوات الزينة والشنط والبرانيط، وكافة لوازم الخياطين والخياطات، والأحذية الحديثة والروائح العطرية، وكلسات النايلون. ومن بين هذه المحلات محل أسعد وهندية، في باب الخليل رقم ٣٦، وحنا جهشان شارع يافا، ومحل حزبون في شارع يافا، وحنضل إخوان شارع مأمن الله، وحنوش وملكيان، شارع يافا، ويوسف طبّاخ حارة النصارى رقم ٥، وعبد عابدين وابن أخيه في السوق الجديدة قواس سعيد قواس في شارع مأمن الله. كانت المحلات تنتشر في سوق افتيموس، ومأمن الله، والدباغة، وباب الخليل، والبيزار، وسويقة علون، وشارع يافا. وعرف محل عبدالله العمري من بيت صفافا في شارع يافا وكان محبوباً من القرويين من أهل بيت صفافا، وعين كارم وبتّير، والمالحة، ولفتا وكانت زوجته شما إسماعيل النجار من لفتا، حيث كانت المصاهرة قوية بين أهل القرى. كان التاجر محبوباً كونه ناشطاً في "حركة الفتوة"، التي أسست عام ١٩٤٤ لتهيئ الشباب وتدربهم على حمل السلاح لمحاربة الصهيونية، بالإضافة إلى تنظيم حركة "النجادة" الذي استقطبت الشباب.

نوع آخر من الهدايا التي كانت تمنح للوالدة والاقارب كان من الذهب. وكثير من الأغنياء والوجهاء أهدوا الزوجة التي ولدت صبياً خاصةً إذا كان البكر أو الذي ولد بعد عدد من البنات إسوارة مبرومة ذهب عيار (٢٢)، أو "حية" أو "عقد" أو "حلق". كانت النساء "الكبار" يتخلين عن قطعة من مصاغهن الثمينة التي ورثنها من الأمهات والجدات، مثل شعيرة ذهب، أو "كردان"، وهو عقد مرصع بقشرة الألماس وكان معروفا زمن الحكم العثماني، أو اسوارة دبابة، أو حية، أو سنسال، أو حلق ذهب خيري، عقد كارب أو لولو، وذلك للتعبير عن محبة الحماة للكنة او للبنت.واشترى الرجال والنساء من محلات الصاغة المنتشرة في القدس منها ارتين بابكيان وسركيس بهنسيان، ومحلات شحادة زخريا، المتخصص بالصياغة والحفر

بالمينا والذهب في حارة النصارى، واندرواس وعكرة في سوق الدباغة وكان يبيع بالجملة والمفرق. ويعقوب زخريا في شارع يافا، وكان يبيع خواتم نقشت عليها رسوم ملوك العرب والأماكن المقدسة وتركزت محلات الصياغة الأرمن في سوق الدباغة وسوق الصياغ وحارة النصارى. وحفظت النساء عنوان إبراهيم وسكريجيان في السوق الجديدة رقم ١٢٧، وظلت النساء المحظوظات يلبسن الهدية ويتذكرنها، ويهدينها للبنات والحفيدات مع قصص سجلتها الذاكرة عن تلك الأيام السعيدة، عن أسواق القدس وخصوصيتها. كان رجال القدس يعرفون كل من يزور السوق من الرجال أو النساء وإن كن محجبات. وكثير منهم عرفوا النساء من أولادهم الأطفال أو الشباب الذين كانوا يرافقون الأمهات والأخوات، أو من البنت الصغيرة التي تمسك يد أمها وهم يسألونها:

- – إنت بنت مين يا شاطرة؟

الحمد لله على السلامة، البنت شلبية

كان "للداية" التي ولّدت الأم وللشاهدات على الولادة من القريبات أساليب نسائية خاصة للتخفيف من الحالات النفسية السيئة لمن أنجبت البنت ولتقليل حجم الصدمة للبعض تقول الداية:

- الحمد لله على السلامة ... مبروك العروس ...
- البنت شلبية. شلبية كثير ... ما شاء الله ... بيضا وشقرا وعينيها زرق ... شلبية ... شلبية كثير ....

وظلت صفات البنت الشلبية وكأنها متوارثة وتحكم جمالها صفات أحبّها الناس، وأصبحت نمطية عندما يبحث الناس عن عروس صفاتها كما كانت الجدات يرددن وكما سجّلنها في التراث:

طويلة مثل شجر الزان

وعودها ملان

وفمها صغير مثل خاتم سليمان

وخدودها تفاح الشام

وسنانها لولو ومرجان.



درويش بسيسو يلبس طقم صوف و كلكول
من شغل أمه



رائدة العمل الاجتماعي كاترين شكري مع جورج وماري



رندة النجار في ثوب عيد أول سنة من عمرها



أوفيليا بطرس ، ٩ سنوات بثوب المناولة

فالبنت المحظوظة بمثل هذه الصفات الجمالية، مرحّب بها أكثر من البنت السمراء، إذ قد تضمن العائلة للطفلة من يوم مولدها عريساً من العائلة، ابن العم، أو الخال، أو من العائلات الميسورة، التي كانت تتقارب بالزواج والمصاهرة. أما إذا كانت البنت المولودة سمراء، وهن الأكثرية بين الفلسطينيين، فتقول الداية والنساء للوالدة وكأن في كلامهن تعزية مبطنة:

- ما شاء الله ... سمرا وعيونها واسعة، ودمها خفيف.

يقلن ذلك دون معرفة إذا ما كانت فعلاً دمها خفيف، وإن كان البكاء يزيدها عدم قبول "كالشلبية" ذات البشرة البيضاء.

ولم تكن الفنانة اللبنانية فيروز قد غنّت بعد أغنيتها الجميلة قبل النكبة التي رفعت من معنويات "البنت السمرا" وأهلها بعد أن تغيّرت "نسبياً" مقاييس الجمال في الخمسينيات. وعبرت فيروز عن مشاعر عميقة للأم أو أي إنسان يشعر بالحب نحو البنت التي يجمّلها ذكاؤها وتعليمها والمحبة الحقيقية الصادرة من القلب كما عبّرت بالغناء الجميل :

سمرا يم عيون وساع والتنورة النيلية

المطرح ضيق ما بيساع راح حطك بعينيي

وغنت

ردي منديلك ردي   بيضا والشمس حدي

بكرة بيجي محبوبك   وبيلاقيك مسودي

وغنت للبنت الشلبية :

البنت الشلبية

عيونها لوزية

حبك من قلبي

يا قلبي

إنت عينيّ

فغريزة الأم والاب تظل قوية تجاه البنت والولد لدرجة المساواة بالعيون" كما في أغنية فيروز الا لمن تأصلت فيهم روح الكراهية لسبب شخصي أو تقليدي. ونتيجة لذلك فقد تأثرت

بعض البنات بمشاعر سلبية والشعور بالنقص بسبب هذه التقاليد المقيتة. ومنهن بنات رائدات في مجالات مختلفة، ليصبحن أجمل الجميلات بالمفاهيم الإنسانية العصرية المتطورة، مثل كلثوم عودة إبنة الناصرة، التي أحبتها القدس وشهدت على زواجها بعدما لاقت عدم قبول الأهل في الناصرة.* ومع ذلك فحب المرأة والرجل المقدسي والفلسطيني للبنت والولد، جزءا من محبة متجددة ومتواصلة ويعتبر من أعمق المشاعر الإنسانية الحميمية، رغم كل العادات والتقاليد ومواصفات جمال البنت التي صنعتها تقاليد نساء ورجال غير متنورين.

خمسة وخميسة صلّوا على النبي

وبدافع من موروث خفيّ كانت الأمهات يؤمن بالسحر والخرافات ويخفن على البنت الجميلة والولد، وإن لم يكن "وسيماً" من العين والحسد. ومنذ الولادة كانت الأم تثبّت مصحفاً من الذهب أو كفاً ذهبية "خمسة وخميسة" أو "خرزة زرقاء" أو "عين زرقاء" بدبوس على "الكوفلية" التي كان الطفل "يقمط" بها أو على ملابسه بحيث تكون مرئية تخترق "عين الحسود" التي تضمر له الشر. كثير من الأمهات أيضاً كنّ يطلبن من أحد الشيوخ عمل حجاب أو حرز ليحمي الولد مقابل بضعة قروش. بعض النساء كن يمتنعن عن إظهار الولد لبعض النساء في حفل "السبوع"، خاصة للمرأة التي لم تنجب أولاداً، أو التي تسمى "أم البنات" لأنها أنجبت أكثر من بنت قبل أن ترزق بولد. وعندما تقدم الوالدة الطفل للحضور يقلن:

- صلّوا على النبي.... اللهم صلي على محمد
- وإذا كانت الديانة مسيحية يقلن:
- باسم الصليب ... يا مسيح.... يا عدرا **
- وتثبت الأم صليباً من الذهب وتشعل شمعة

وتقول الحاضرات:

- ما شاء الله ... الله يحفظه....
- عين الحسود فيها عود

وكانت بعض النساء الخائفات من الحسد يرددن بصوت عال:

---

* انظر ص ( ) من هذا الكتاب عن كلثوم عودة.

** أي مريم العذراء

عين المرا فيها شنشرا وعين الرجّال فيها مسمار

والعين اللي ما تصلي عالخضر أبو العباس تنحط بالنار

وظلّت هذه الأقوال في ذاكرة نساء المدينة من جيل الثلاثينيات والأربعينيات وقد أصبحن أكثر انفتاحاً على الحياة العصرية. وتذكرت بعض الجدات عادات وتقاليد كانت تمارس في مثل هذه المناسبة خاصة بين النساء "السلافات" اللواتي كن يسكن في بيت العيلة الكبير، ويراقبن بعضهن بحسد وغيره. وأطلقت النساء في مثل هذه المناسبة الزغاريد:

ايي ولدت وقامت ايي وعلى فراش الحرير نامت

ايي والحمد لله بسلامتها ايي وسيد الصبيان جابت

وحفظت أكثر "النساء" دعاءات تتعلق بالحسد مثل:

رقيتك واسترقيتك من كل عين شافتك وما صلت على النبي

ومن عين أمك وأبوك ومن عين أختك وأخوك

ومن عين اللي يحبوك، ومن عين كل اللي شافوك

وتبلى كل عين ما صلت على النبي.

ولم يخلُ بيت من بيوت القدس في النصف الأول من القرن العشرين وقبله من "طاسة الرعبة". وهي مصنوعة من النحاس، مزينة بآيات قرآنية من الداخل والخارج وأدعية وابتهالات دينية، استعملتها النساء بوضع الماء فيها وسقايته للطفل الخائف، وهي تردد...

- حوطتك من عين اللي ما يحبوك
- كش برة .. كش برة يا عين الحسود
- عين الحسود فيها عود

وتتذكر زهرة الشهابي، ما كانت والدتها وصديقاتها يمارسنه من عادات وتقاليد تتعلق بالحسد ويقلن إن الولد إذا ما أكثر من البكاء أو بدت عليه مؤشرات مرضية:

- صابته عين.

وكن يقمن برش عتبة البيت بالتراب الذي مرت عليه من يعتقدن أنها حسودة، ويشعلن البخور ويضعن شروش ثومة: ... لكي:







تعويذات لدرء العين



فاطمة البطمة مع ابن أخيها حسن مصطفى من بتير يلبس الطفل تعويذة



وداد ، أنيسه ، زينب ورشا درويش من المالحة



بدرية أبو نعمة من بتير وابنها وجيه

- تطق عين العدو.

لم تقتصر هذه العادات والمعتقدات على أهل المدينة بل كانت أكثر عمقاً في المجتمع الريفي، حيث نسبة التعليم أقل بين النساء والرجال. ولم تنحصر هذه المعتقدات في طبقة معينة، إذ كان معمولاً بها في الطبقات الفقيرة والغنيّة. فالاعتقاد بالعفاريت والأرواح الشريرة والجن التي تصيب الناس فتسبب لهم الأذى وجدت في المجتمع الفلسطيني، ومارست كثيرات عادات لإبعاد الشر مثل إشعال البخور وقراءة بعض الآيات القرآنية وخاصة سورة الفلق: [٢١]

– قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد. (صدق الله العظيم)

وتباهت نساء القدس بوضع الشراشف والمخدات المطرزة بالأزهار، "وبالتنتنة" على الأسرة وقد اختزنتها النساء لتفاخر بها أم المولود أمام النساء في أيام "نفاسها" بعد الولادة. وقد تعلمت كثير من الأمهات والجدات التطريز في مدارس الراهبات، أو مدرسة السلزيان الإيطالية في المصرارة التي تركت بصماتها على اهتمام البنات بالفن الجميل. وكانت المرأة النظيفة والمرتبة توصف من النساء بأنها:

"ست عيّوقة".

أي صاحبة ذوق عالٍ

واهتمت النساء من الطائفة المسيحية في القدس بإعداد لباس التعميد الأبيض، بعد الولادة وتنافسن على شرائه من المحلات الراقية في شارع يافا والمستوردة من أوروبا. وقد احتفظت كثيرات من الأمهات والجدات بثوب " التعميد" الأبيض ومنهن من "طرّزته" بنفسها وتناقلنه من جيل لجيل. كانت للمسيحيين طقوسٌ خاصة للتعميد تتم في الكنيسة بحضور الأهل والمقربين، ومناسبة فرح للعائلة يسعدون بها. والأمهات الموسرات في مناسبة الولادة يلبسن قمصان النوم الحريرية وفوقها الروب والشال على الكتف.

أثاث محلي ومستورد

وفتّحت البنت الشلبية والولد عيونهم في بيوت القدس العتيقة أو الجديدة، والتي تتراوح بين بيوت كبيرة واسعة أو صغيرة طبقاً للوضع الاقتصادي والاجتماعي للعائلة على عفش له خصوصية. وكانت غرف الأغنياء مفروشة "بعفش" بأثاث أحضر من تركيا زمن الحكم العثماني

٢١ توفيق كنعان، رائد البحث الفولكلوري الفلسطيني ١٨٨٢–١٩٦٤، في سعيد مضية، مصدر سابق. أيضا، نمر سرحان الاعمال الفلكلورية الفلسطينية للدكتور توفيق كنعان عمان، المركز الفلسطيني للفنون الشعبية ١٩٨٨.

أو من دمشق. أرائك الصالونات مغطاة بالقماش الدمشقي الجميل. وبعضه مقصّب وخشبه مطعّم بالصدف والأسلاك الفضية. تتوزع في الغرفة أكثر من مرآة ذات براويز من نفس النمط، وطاولات صغيرة، بالإضافة للبرادي من ذات اللون الزاهي تزيّن الشبابيك العالية، لتحجب أو تكشف عن النور والفضاء. وفرشت العائلات المقدسية أيضاً البيوت بعفش مصنوع في القدس أو يافا أو حيفا زمن الانتداب البريطاني وقبله. كما اعتمدت المدن الأخرى على محلات مدينة القدس كونها العاصمة. ففي يافا عُرف محل حسين شهاب الدين في شارع المحطة، وكان يبيع عربات أطفال انجليزية أو ألمانية في حيفا وعبد الرزاق وعبد الفتاح حب رمان الذي كان يبيع الأثاث العصري، ومحل جميل موسى عصفور. وفي يافا أيضاً كان معمل البيروتي في شارع البطحة، ومحل علي الدباغ في شارع العجمي، ومحل وديع منّه.

وتباهت بعض النساء بأنها ولدت أولادها على أسرة حديدية أو نحاسية في غرف مفروشة بأثاث مستورد من أوروبا. بالإضافة لذلك كان التجار يروجون لبضاعتهم بأنها "مستوردة" لجذب الزبائن مثل محل سليم بندك إخوان في شارع مأمن الله، ومعمل سحار أخوان، ومعمل كاروز ومعمل حبيب النونو في شارع القديس بولس. وتحولت "المباهاة" بمصدر الأثاث إلى المصنوعات الوطنية، بعد أن احتلت دار الأيتام الإسلامية (شنلر) مكانة كبيرة بين الناس وقد أصبح إنتاجها يضاهي المستورد. يزيد غرف النوم والجلوس والاستقبال دفئا وخصوصية بفرش السجاد العجمي أو البسط الملونة، التي تُدفأ بالفحم "بكانون النار" في الشتاء لتزيد الغرفة حميمية قبل تطور نظام التدفئة ليصبح هناك مدافىء على الكهرباء والتدفئة المركزية في البيوت العصرية. واستقطبت دار الأيتام الإسلامية الصناعية في القدس، أهل المدن، كما أهل البلدات والقرى بعد أن أثبتت وجودها بالصناعة الوطنية، من أثاث خشبي وأثاث من الخيزران الذي لاقى شعبية بين الناس. ولم تختلف البيوت وفرشها في بعض القرى القريبة من القدس عن بيوت الطبقات الاجتماعية العليا، إذ كانت بعض بيوت قرية لفتا وسلوان وعين كارم، جميلة وعصرية من الحجر الأبيض والوردي ومفروشة بالأثاث من مخازن القدس المشهورة.

لم يكن في كثير من بيوت أهل القدس من الطبقة الشعبية الفقيرة غرفٌ مخصصّة للنوم لصغر البيت، وكان يوجد في بعض الغرف جدار فيه فتحة "الخزانة" أو ما يشبه الخزانة، تغطى بستارة من القماش تسمى بالتركية "باليوك" وبالعربية "بالركسه" لحفظ اللّحُف والمخدّات و"المرتبات" وفرشات النوم، والأغطية والملايات، والتي تستعمل ليلاً للنوم على الأرض دون استخدام الأسرة، "التخوت" وكانت النساء تحافظ على إبقاء الفرشات في حالة جيدة، وخاصة قبل الولادة، حيث يقوم "المنجد" فوق سطوح البيت بتنجيد صوف الفرشات بعصاه وطريقته الخاصة، لكي يجدد شباب الصوف، ويجعل النوم عليه أكثر راحة وهو "منفوش". وكانت الأرض في بعض البيوت تفرش بالحصيرة وبالبسط الصوفية، المصنوعة في شنلر.

ونامت نساء القدس في غرف النوم المفروشة بالخزائن الخشبية المصنوعة في (شنلر) أو عند محلات الموبيليا والنجارين في المدينة. إلا أن الكثيرات من الأمهات والنساء في القدس وأكنافها حافظن على خزائنهن الشخصية في غرفة النوم وهو "الصندوق الخشبي" المطعّم بالصدف أو النحاس. وقد صنع خصيصاً للبعض منذ زواجها لتضع فيه ملابسها وعطورها وجهازها. وقد استبدلت النساء بالصندوق الخشبي في الثلاثينيات والأربعينيات، ما يسمى "البوريه" وهو خزانة لها عدة أدراج، فوقها مرآة كبيرة، وتسمى اليوم "بالتواليت" وتوضع عليه المرآة وأدوات الزينة من كحل، وزجاجات من عطر شانيل الفرنسي، والبودرة، والحمرة المستوردة من أوروبا للطبقة البرجوازية. بخلاف نساء الطبقة الشعبية والفقيرة اللواتي كن يحلمن بهذه الكماليات الدخيلة. وكانت الكثيرات يستعملن الروائح الشعبية التي يشترينها من دكاكين العطارين، مثل روح الورد، والبنفسج، بالإضافة للكحل والحناء.

وراجت في القدس محلات بيع سرائر للأطفال، أو صناعتها عند النجار لتوضع في غرفة نوم الأم لكي تتمكن من إرضاعه رضاعة طبيعية. وكانت عربات الأطفال "الكرّوسة" تستورد من لندن وألمانيا للطبقة البرجوازية، تسعد الأمهات وهن يدفعن الأطفال بهذه العربات "الإفرنجية"، مثل جيرانهن الأجانب في أحياء المصرارة والشيخ جراح والبقعة والقطمون خارج شوارع القدس العتيقة. وتنبهت المحلات التجارية لذلك فاستوردتها محلات زنانيري في شارع مأمن الله، ومحلات بوتاجي ومحل حسين شهاب الدين في يافا في شارع المحطة من المحلات التي كان أهل القدس يشترونها منها. كثير من العائلات القروية كانت تضع المولود، في "مرجوحة" تهزّ الأم بها ابنها أو ابنتها لتسرّع النوم ولترتاح من عناء يومها الطويل، سواء في الحقل أو البيت. وكانت المرأة العاملة في الحقل، تصطحب ابنها معها حيث تضعه الطفل في "حذل" أي قطعة من القماش أو من النسيج تحمله فيه على ظهرها، أثناء العمل في الحقل.

صور على الحائط

جدران غرفة الجلوس أو الصالون الذي أول ما تقع عيون الطفل عليها أو تراها الزائرات عادة ما تكون مزينة بصور فوتوغرافية لصاحب البيت أو للجد عميد العائلة الممتدة. فأكثر العائلات من آل الحسيني والموالين لهم منذ العشرينيات ومنذ أن برز الحاج أمين "كزعيم" وطني رفعوا صورته في بيوتهم. وكثير من العائلات زيّنت جدران غرف الاستقبال، بصور رمزية استُجلبت من التراث العربي والبيئة الريفية والمحلية، كصورة الجد وهو يمسك "رسن" الحصان أو يمتطيه رمزاً للبطولة والفروسية، وأيضا للآباء والأجداد القنباز والحطة والعقال أو اللفة. وأخذ الشباب صوراً بالحطة والعقال لتأكيد الشخصية القومية. وكما رفعت صورة الاباء والأولاد العسكري، وقد ذهب بعض الشباب للحرب ولم يعودوا أو توفوا بسبب مرض التيفوس

أو الكوليرا التي حصدت أرواح عدد من الناس، وقد سُميّ عام ١٩١٥ "عام الجراد"، الذي قضى على الأخضر واليابس وسبب الأمراض والفقر للكثيرين من أهل فلسطين[٢٢]. كانت بعض البيوت تتباهى بصور صاحب البيت بصحبة المندوب السامي في فلسطين للدلالة على قربه من "السلطة" وإن كانوا قلة. فهؤلاء المسؤولون البريطانيون كانوا رمزاً للحكم الاستعماري والعهد الذي أصدر وعد بلفور الذي قاومه الوطنيون لإعطائهم اليهود "وطناً قومياً" في فلسطين على حساب شعبها الأصيل.

كما زيّنت البيوت وحتى المقاهي في المدن والقرى بصور الشهداء الثلاثة فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزير، أبطال هبة البراق ١٩٢٩ الذين أعدموا بتاريخ ١ يونيو ١٩٣٠ ورفع الناس صورة الشيخ عز الدين القسّام الذي أسماه الفلسطينيون "أبو الوطنية" وقائد ثورة الفلاحين عام ١٩٣٥ ليظل رمزاً للنضال ضد الاستعمار الصهيوني البريطاني. واحتفظت العائلات بنسخ من الصحف الفلسطينية **الدفاع وفلسطين والكرمل، والجامعة الإسلامية** التي نشرت صور وأخبار استشهاده وهيبة جنازته التي أصبحت أثمن الوثائق التاريخية للقضية الفلسطينية. ووضع كثيرون من الناس صور المجاهد القسّام متحدين السلطات في الصالونات متباهين ببطولته مع رفاقه الذين استشهدوا في أحراش يعبد، واعتزت مجالس ومقاهي وبيوت الفلسطينيين في القدس والمدن والقرى كلها بصور الأبطال مثل عبد القادر الحسيني بطل معركة القسطل الذي استشهد عام ١٩٤٧ ليستمر الاعتزاز بصور الشهداء في حركتهم لتحرير فلسطين ولإقامة الدولة الفلسطينية التي ما زالت هدف المناضلين.

كثير من بيوت الفلسطينيين كانت مزينة بالرسومات والصور التراثية. فقد أحب القرويون كما أهل القدس والمدن الأخرى رسومات (عنتر وعبلة) المطبوعة على القماش وكأنها تعزّز دور المرأة بالوقوف إلى جانب البطل ذي الشوارب الطويلة واللحية الكثّة، التي تعبّر عن الصورة النمطية للرجل العربي الوسيم والشجاع في الحروب، بالإضافة لصور ورسومات أبي زيد الهلالي. وتحمل صورة عبلة بنت مالك عبارة وتصفها:

- وكذا النساء خلال عقود

أما في وصف عنتر أبو الفوارس فتقول العبارة:

- "فخر الرجال سلاسل وقيود".

٢٢ يصف العسكري احسان الترجمان حالات كثيرة للفقر وتعاسة النساء «المومسات» اللواتي قدمن على هذه المهنة بسبب الفقر، انظر يوميات جندي مقدسي (١٩١٦-١٩١٥)، سليم تماري، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، القدس ٢٠٠٨.

كما زُيّنت بهذه الصور التراثية جدران المقاهي التي كان رجال القدس يقضون أحلى الأوقات وهم يستمعون من الحكواتي إلى قصصها، حيث كانت جزءاً من الثقافة الشعبية وكأنها تتواصل مع التراث لإحيائه. وكانت عروض الحكاواتية في المقاهي تجذب المتسامرين، وكذلك عروض الدُمى المتحركة المسمّاة "كراكوز عواظ" التي تجذب الكبار قبل الصغار، وقد انتشرت في أكثر المدن الفلسطينية وسيلة للتسلية، بالإضافة إلى صندوق العجب الذي كان صاحبه يتنقل به من حارة لحارة، ويلتف حوله الكبار والصغار لمشاهدة ما في الصندوق الذي كان ينادي صاحبه .

- تع تفرج يا سلام.
- على عجايب الزمان.

وعلى طاولة مستديرة في غرفة الجلوس مغطاة بمفرش مزخرف وضعت عائلات القدس في بيوتها صوراً لأفراد العائلة التي كانت تؤخذ عند المصورين المهنيين. كما أخذت لنساء المدينة صوراً وهن يلبسن أثواب أهل القرى المطرزة الجميلة وهن يحملن "جرة ماء" على الرأس. ولحفظها كانت الصور توضع في براويز فضية مصنوعة في اسطنبول، أو من خشب الزيتون المصدّف المصنوع في القدس وبيت لحم، أو في ألبومات عائلية يعرضونها على الأهل والأصدقاء. وكان ذلك بعد أن انتشرت استوديوهات التصوير في القدس التي ظلت في ذاكرة المدينة. وكان أكثرها في شارع يافا وتقوم بالتصوير وطبع الصور وتكبيرها وبيع جميع أنواع لوازم التصوير. وكان محل البينا إخوان داخل الباب الجديد مشهوراً داخل البلدة القديمة، وكذلك محل يوسف شامية في شارع القديس لويس. أما شارع يافا، فقد جذب الزبائن لمحل رصاص ومحل رعد ت (٧٧٦) الأوسع في خدماته حتى شملت تصوير مناظر من الأراضي المقدسة، وأخذ الصور خارج المحل للمدارس، بالإضافة لمحل يعقوب سليمان وشركاه ص ب (١٠٣٧) ومحل م. عبده تصوير شمسي وتكبير وتلوين، بالإضافة كان في محله مصورة خاصة بالسيدات، وذلك لجلب النساء التقليديات. وكان هناك عدد من المصورين الأرمن، أشهرهم صاحب أقدمها استوديو غرابيد كركوريان الذي أتقن أخذ الصور للأماكن المقدسة التي كان يبتاعها السياح[٢٣]. وبرزت بين أهل القدس مصوّرة أنثى وُلدت في الناصرة وعاشت في بيت لحم هي كريمة عبود. وقد أتقنت التصوير الشمسي في بداية عملها، ثم طورت المهنة إلى التصوير الفوتوغرافي بالألوان، وافتتحت مشغلاً في القدس أصبح معروفا بين النساء اللواتي فضّلنها على الرجال، وشعرن براحة أكثر وهن يأخذن صورهن في البيت أو المحل، لتسجل اسمها كرائدة في هذا المجال.

٢٣ إعلانات في الصحافة الفلسطينية، فلسطين، الدفاع، الكرمل.
- للمزيد عن التصوير الفوتوغرافي، عصام نصار، في دراسات في التاريخ الاجتماعي عن بلاد الشام، قراءات في السير والسير الذاتية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٧.

واليوم يستعمل الباحثون الصور الفوتوغرافية المتوفرة للأفراد والجماعات في القدس كمرجع لدراسة الحياة الاجتماعية تضاف إلى مراجع التوثيق الأخرى، خاصة وإسرائيل تحاول طمس كل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية لمدينة القدس. وهي تستمر بتهويدها رغم نضال الشعب الفلسطيني المستمر برجاله ونسائه وأطفاله لإقامة دولة فلسطينية مستقلة.

زهرة الخشخاش

كثير من الجمعيات الخيرية والاجتماعية اهتمت بتعليم الأمهات في المدن والقرى أصول تربية الأطفال، بالإضافة للقابلات المدربات على العناية بالولادة والطفولة التي تعتمدها الحكومة. ووضع في مناهج المدارس مادة التدبير المنزلي وتربية الطفل. كما كان الاهتمام بالصحة والرياضة ينظر إليها بشكل إيجابي كزينة وجمال للمرأة. وكان بين أوائل المتخصصات بالتدبير المنزلي ديانا السعيد بنت القدس وقد نالت مع قلة من بنات فلسطين درجة البكالوريوس من كلية البنات في بيروت في أواخر الأربعينيات. وبدا واضحاً اهتمام الرجال المتعلمين بتثقيف الزوجات لاتباع الوسائل الحديثة والعلمية في تربية الأطفال، كما في العلاقات العائلية التي وصلت لدرجة راقية في الأربعينيات. ولوحظ ذلك بوضوح من خلال المقالات الكثيرة من النساء والرجال في الصحافة الفلسطينية. ومع ذلك ظلت كثير من الطقوس والعادات المستوحاة من التراث معمولاً بها في المجتمع المقدسي في المراحل المختلفة من حياة الطفل ومنذ ولادته بما فيها "البنت الشلبية"، التي ظلّت لها معاملات خاصة منذ سن الطفولة والمراهقة والشباب ويوم عرسها، وبعد ذلك.

ومن العادات التقليدية أن الأمهات كن يستعملن وصفات شعبية عندما يكثر الطفل من البكاء دون معرفة السبب. وإذا لم يستجب للحب والحنان "والهدهدة" في حضن أمه أو في "السرير الهزاز" تظن أنه مريض. واستعملت الأمهات أنواعاً من النباتات البرية كعلاج. وعرفت الأمهات ما سمي "بزهرة الخشخاش" التي كانت تنبت في "الخلاء" "البرية". أو تشترى من سوق العطارين في القدس القديمة. وكان يُغلى ويُعطى للطفل العصبي كثير البكاء قبل النوم، ليستكين وينام ليلته ونهاره بسعادة ويريح أمه، تحت تأثير تخدير العشب الشيطاني "الأفيون" الذي كان اسمه المتداول بين الناس "أبو النوم"، دون معرفة آثاره الخطيرة. واستعملت الأمهات الأعشاب البرية "البريئة" والمفيدة لتخفيف معاناة الأطفال وهي ما زالت معروفة ومستعملة ليومنا هذا. فالبابونج، والحلبة، والزعتر، والميرامية، واللوز المهروس، والنعنع، والزهورات، وبزر الكتان، والحبة السودة تستعمل لتسكن الألم، أو المساعدة على النوم. بالإضافة إلى ذلك، كانت الأمهات يضعن السكر المخلوط باليانسون في "شاشية" صغيرة مربوطة

"كاللهاية" ليستمتع بها الطفل ويتلذذ بحلوها وهو "يحلم مع الملائكة". مثل هذه الأعشاب كانت تخزّن في البيوت لاستعمالها من قبل الكبير والصغير في حالات نزلات البرد، أو المغص أو التعب، أو قلة النوم. وكانت بعض الأعشاب غير المعروفة تسبب الأخطار الصحية على إثر الوصفات من "عطار جاهل" كثيراً ما أخذ دور الطبيب المتعلم رغم وجود صيدليات موزّعة في أنحاء القدس. وإذا ما حدث عارض في العائلة، كان بالإمكان مهاتفة إحدى الصيدليات العربية لطلب أو استشارة الصيدلي إيصال الدواء للمنزل. ولم ينس أهل القدس صيدلية انطون حلبي وإسحاق حلبي في باب العمود هاتف رقم (١٢٣) ومحفوظ سعيد هاتف رقم (٤٢٧) أو صيدلية الجاعوني، وقف العنبوسي في باب الخليل، وصيدلية يعقوب عبد السلام الحسيني، داخل باب العمود هاتف رقم (١٩٣٠) وصيدلية العلمي بقربها، أو صيدلية عطاالله إخوان في شارع مأمن الله هاتف رقم (٤٩٤). ومحمد الخالدي في سوق افتيموس، وحسين الشهابي في العيادة الطبية الإسلامية، قرب هوسبيس النمسا، وسابا صايغ، صيدلية البقعة التحتا، وصيدلية عطاالله عطاالله، شارع مأمن الله، ومصطفى العلمي، باب العمود، وفؤاد سليم العيد، صيدلية حلبي، باب العمود، والصيدلي نسيب نصار في صيدلية مستشفى الحكومة وغيرهم*. وكان الصيدلي يعد بين الناس معالجاً له منزلة محترمة وموثوق بعلمه. وكان أكثر صيادلة القدس قد درسوا الصيدلة في الجامعة الأمريكية في بيروت في الأربعينيات.

أغنيات لهدهدة الأطفال

كان الأطفال يستجيبون لمناغاة الأم وهي تتحايل على الصغير لكي ينام وتقول:

آو.... آو .... نيني .... نيني....

يا اللّلا نام

يا اللّلا نام

لاذبحلك طير الحمام

روح يا حمام لا تصدق

باضحك على سعد لينام

آو.... نيني.... نيني...

وغنّت الأمهات أغنية للبنت علها تنام:

* كثير من أهل القدس من الشيوخ والأحفاد يحفظون عناوين بيوتهم ودكاكينهم، وبعضهم يحمل المفاتيح لليوم.

وبنتي راحت عالساقية

تملي وتشرب وتسقيني

والساقية بلاطها ذهب

وحيطانها مرمر وصيني

نامي يما يا حلوة

أحسن يجيك الحرامي

يوخذ حلقتك منك

ويحرمك لذيد المنامي

وهو يما هو

وخاف الأطفال من القصص المتعلقة بالغول والغولة، والتي اعتقد الكثيرون أنها تتجول في القدس العتيقة وتزور البيوت. وخافوا من "البعبع" أو الضبع الذي يضبع الإنسان ويسير وراءه ويصبح مثله متوحشاً، وكان خوف الأطفال من "البعبع" كرمز لشيء مخيف مجهول، كما خافوا من "أبو رجل مسلوخة"، أكثر من خوفهم من الحرامي، وظلت مثل هذه القصص في ذاكرة التراث الشعبي.

ونام الأطفال على قصص الأمهات وإن كان بعضها مخيفاً، مثل حديدون والغولة، وليلى والذئب، وحلم الأطفال مع الملائكة، والأم تحكي قصة ساندريلا، والبطة السوداء، والشاطر حسن، وعلاء الدين والفانوس السحري.

ولإسعاد الأطفال ودفعهم للتفاعل مع الآخرين غنّت الأمهات:

هيك بيطيروا العصافير

هيك بدور الدولاب

هيك بزقفوا الأطفال

زقفوا زقفوا		يا ادين صغار

بكرة الصبح عالبكير		بنلقط ورد وياسمين

وغنّت الأمهات للأطفال أغان شعبية تراثية، عرفتها الأمهات في القدس كما بقية المدن الفلسطينية، وسعدن وهن يلعبن مع البنات والأولاد الصغار بعد السنة الأولى من العمر، وقد أخذوا يتجاوبون ويفهمون قول الأمهات. وتفاعلت الأمهات مع الأطفال وهن يغنين معهم باللمس والحركة والدغدغة ويرددن الأهزوجة التي يتفاعل معها الأطفال بالضحك...

يا باح .... يا باح

يا عرق التفاح

أجا العصفور يتوضا

على بركة ال الفضا

هذا شوا وهذا نتفه

وهذا اكلوا

واحد قال ... وين حصتي

زي.... زي..... زي....

كما سعدت العائلة مع الطفل والأم تلعب معه وتهزّه بين رجليها:

حج الله يا حج الله

سمن وعسل في الجرة

ناكل انا وحسن

ونرمي عمر لبره....

وغنت الأم المقدسية لأطفالها أغاني مرح وحركة وهي تردد:

إحنا التلاتة سوا مثل عمود الهوا

فينا واحدة قصيرة ترمي العقد بالعيدة

هون مقص وهون مقص فينا عرايس ترقص رقص

وحكت الجدات للحفيدات والأحفاد قصصا وخرافات، ساهمت في توسيع الخيال وهم في سن البحث عن المعرفة المبكرة. وكانت بعض الحكايات منتشرة في جميع أنحاء فلسطين

وما زالت ذاكرتي أهزوجة غنيتها بطرب بنغمة غنائية مع بنات وأولاد الحارة.[٢٤]

طلع الشيخ عتوتة والتوته بدها سلم

والسلم عند النجار والنجار بده مسمار

والمسمار عند الحداد والحداد بده بيضة

والبيضة عند الجاجة والجاجة بدها قمحة

والقمحة بالطاحونة والطاحونة مسكرة

فيها ميه معكرة

هون مقص وهون مقص

هون عرايس ترقص رقص

وفي الواقع، طغت مشاعر "الأمومة الطبيعية" على علاقة الأم مع الطفل، ولم تحرم الأمهات البنت من حبها، الذي كان يتساوى مع محبتها للولد في كثير من التصرفات. وعبّرت الأمهات عن ذلك في عرس البنات، والدموع تختلط مع دموع الفرح لفراق البنت وانتقالها لبيت الزوجية. وأحب الآباء بناتهم وفي كثير من الأحيان ساووها بمحبة الولد أو أكثر. ورغم انشغال الآباء وخروجهم للعمل فقد قضى الكثيرون الوقت مع بناتهم، وتتذكر أمينة بنت الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين محبته لبناته وتقول كان "لا يخرج من البيت قبل أن يلعب الرياضة ويتناول طعام الإفطار معنا."

رقص وغناء في السبوع

بعد أسبوع من الولادة كانت العائلة تقيم حفلة "السبوع" للمباركة وللاطمئنان على صحة الوالدة "النفسة" وكثيراً ما تعرضت النساء لحمى النفاس الذي أدى للموت بعد الولادة. بالإضافة إلى ذلك فإن المناسبة أيضا للاطمئنان على صحة الطفل الذي كان يمرّ بأصعب مرحلة من وجوده في واقع الحياة خارج رحم أمه الذي كان يحميه من التأثيرات البيئية المتغيرة.

وتسمع الحارة الطبل والزمر سواءً كانت للولد الذكر أم البنت الأنثى ومناسبة السبوع عادة شأن نسائي، يقتصر على النساء فقط من الأهل والأصدقاء، ويعمّ الفرح لأن الوالدة والمولود بخير. وتقدم العائلات في هذه المناسبة مأكولات وحلويات حسب المستوى

٢٤ للمزيد : (أهازيج الطفولة المبكرة،) جمع وإعداد تغريد النجار، السلوى للدراسات والنشر، عمان ٢٠١٠.

الاجتماعي والاقتصادي للعائلة، وإن كانت الطقوس واحدة. فمن كازوز بارد في الصيف إلى الشاي والقهوة، والمكسّرات "النقل" كاللوز والجوز وبزر البطيخ الذي تحمّصه النساء بالماء والليمون والملح والفلفل ليكون طازجاً للمناسبة. "وفستق العبيد"* السخن الذي كان بائعه المشهور في القدس وهو من أصل سنيغالي إفريقي أشهر من أن يعرّف لأهل المدينة. أما حلويات أو "مطبق زلاطيمو"، فكانت متعة أهل القدس ونسائها اللواتي حاولن صناعتها في البيت دون نجاح. إلا أن شراءها ساخنة ومصنوعة في محل زلاطيمو في باب خان الزيت كانت وكأنها مباهاة أمام الضيوف، وكانت تقدم المهلبية أو الهيطلية، والبوظة من صنع الستات، تزين بالزبيب المشهور والمستورد من السلط في شرق الأردن، وكان الجيد منها يستورد من محل الياس عيسى المعشر. بالإضافة إلى ذلك كانت الهريسة والزلابية والتمرية من بين أصناف الحلويات التي تقدم للضيوف في المناسبات السعيدة. ويتذكر عدلي المهتدي وكان عمرة ١٣ عاماً كيف كان يظل في البيت يوم "استقبال أمه الشهري"، ليساعد في تقديم القهوة ويسعد بتذوق ما يقدم من الحلويات التي كان له نصيبٌ منها. ويتذكر كيف كان الرجال يسألونه عن البنات الجميلات اللواتي يحضرن الاستقبال.

وفي الثلاثينيات والأربعينيات أصبحت النساء يتقنّ صنع قوالب "الجاتو" أو الكعك بأصنافه على الطريقة الغربية، مثل كعك الحجر والبسكوت الذي يوضع دائرة في وسطه تملأ بالتطلي "المُربى"، كما تعلمن صنع البودنج وكعكة الشوكولاته، "والانجلش كيك" المحشوة بالمكسرات. وقد تعلمنها من الجارات الأجنبيات، وفي دروس التدبير المنزلي في المدارس الأجنبية والحكومية ومن المجلات النسائية التي كانت بعضهن يقرأنها ويشترينها من المكتبات المتواجدة في القدس. وسعدت النساء بمشاركة الأهل والجيران والأصدقاء بالاحتفالات السعيدة المعروفة بين الكثير من أهل القدس من الرجال والنساء وقد تغيّرت العلاقات الاجتماعية لتصبح أكثر انفتاحاً بين الجنسين، وأصبح الاختلاط واضحاً ومقبولاً بين المثقفين، وخاصة بين المسيحيين العرب ومن الأجانب في البلد، وأصبحت الزيارات العائلية بين الأصدقاء مقبولة وتضيف متعة خاصة للناس.

وتشاركت الحارة في القدس القديمة بزفّة ابن الجيران بمناسبة "الطهور" ولم تكن سعادة الولد الذي لا يزال جرحه غضاً يتألم منه بقدر سعادتهم. فالتهاني كانت تنهال على "أبو الولد" الذي سجّل بالدم ذكورة ابنه المرحّب به منذ الولادة. وشهد على ذلك حلاق الحارة الذي كان يقوم بعملية الطهور وكان له عدة مواهب منها حلاقة الشعر بالموس وخلع الضرس، من غير بنج، "بكماشة" بالإضافة للطهور. واشتهر في العشرينيات في القدس القديمة "ميّا الحلاق"

* كانت هذه التسمية العنصرية مستعملة مع الأسف وتميز بين البشرة السوداء والبيضاء، وتشير المعلومات المكتوبة ومن ذاكرة أهل المدينة الموروثة وجود «عبيد» مملوكين من بعض أصحاب المال والنفوذ في القدس.

المعروف بأبو عبدالله وكان يشعر بأهميته وهو يحمل شنطته بما فيها من "عدة"، كغيره من الحلاقين أصحاب المهنة وكأنه طبيب الحارة الذي لا يمكن الاستغناء عنه. وتطوّر طهور الولد في الثلاثينيات والأربعينيات ليصبح على يد طبيب في المستشفيات الحكومية، خاصة إذا وصل الولد على "شهوة". فالأغنياء كانوا يقومون بتوزيع "كيس أبو خط أحمر" من الرز أو السكر، أو يذبحون خروفا، "للوفاء بالنذر" الذي وعدوه إذا ما رُزقوا بولد. وكانت عملية الطهور تبعث الفخر والسعادة في القرى بشكل أكبر، إذ تشترك القرية بجميع "حمائلها"، بالزفة والمشي وراء المحتفى به وهو مرفوع على حصان "مزين". وكانت النساء تشارك بالمناسبة وتطلق الزغاريد والأغاني الشعبية كما يقمن بالرقص والتلويح بالمحارم البيضاء التي ترفعها الأيدي.

لم تكن تجمعات النساء في حفلات المباركة تكتمل من غير تقديم الهدايا للطفلة أو الطفل، وهي واجب يعد "دين محبة" بين الناس. هدايا الأهل كانت من الذهب بين الطبقة البرجوازية والوسطى والملابس للطفل. كثير من النساء كن ينسجن طقماً من الصوف بأنفسهن مستعملات الصنارة أو الإبرة لحياكة الطقية "والكلكول". للبنات من اللون الزهري وللولد من اللون الأزرق وتقول الكريمة:

– مبروك من كثرة محبتي لكم، هذا من صنع إيدي .

بالإضافة إلى ذلك، كانت تقدم النقود كهدية في هذه المناسبات كمناسبة الأعراس أيضاً وخاصة بين أفراد العائلة الواحدة. وتجلت السعادة في مناسبة الفرح دوماً، إذ تقوم النساء بالتعبير عن مشاعرهن بالرقص والغناء في الجو النسائي فقط. ويظهرن بين بعضهن مكنونات المواهب ويبرزن الجمال ومفاتن الأنوثة المخفية، بما يلبسن من فساتين حرصن على انتقائها لمثل هذه المناسبات. كان تنافس "السلافات" أي زوجات الأخوة في العائلة الواحدة يعبّر عن نوع العلاقات العائلية، فمنهن من كنّ على وفاق ومحبة ومنهن من كانت إحداهن تقوم بالرقص لتخفي "شماتة" إذا ما كان المولود "بنتاً"، أو تحاول تغطية غيرة مخفية لولادة الولد الذي سيرفع من شأن سلفتها "أم الولد".

وعندما تبدأ الطفلة أو الطفل بالحبو والمشي البطيء تسمع أصواتاً ترتفع بنغمة فيها محبة ودلال:

- دادا ... يالله ... يالله... دادا.... يا ما شاء الله ....

وذلك لتشجيع الطفل على المشي والوقوف على رجليه وعندما يقف دون مساعدة، أو يخطو ... بضع خطوات... تزداد البهجة وكأنه قام بعمل كبير لم يقم به طفل آخر قبله..... ويرتفع التصفيق من الحضور، ويغني الجميع بصوت سعيد:

دادي بطة بطـة	دادي نقل القطـة
دادي شطة بطـة	دادي عالمحطـة
دادي الله معهـم	دادي ويرجعهـم
دادي يا ما شا الله	دادي دخيل الله
دادي يا محلاهـا	دادي يا مغلاهـا
دادي خط العتبـة	دادي محلا الرقبة
دادي دادي	سبقتنا الـولادي

وللتعبير عن المحبة التي لا حدود لها تضم الأم طفلها البنت أو الولد وتقول بسعادة:

بحبك قد السما ونجماته	وقد البحر وموجاته
وقد الهوى ونسماتـه	وقد الطير وغنياته
وقد الراعي وغنماتـه	وقد الشتا ومياتـه

وكانت السعادة في بيوت أهل القدس، تزداد بازدياد الأطفال، الذين يُعدون "كعزوة" وسند للعائلة، وتراوح متوسط أفراد العائلة، تسعة أو عشرة أفراد.

أما في مرحلة فطام الطفل عن الرضاعة الطبيعية من الأم بعد عام أو أقل يبدو ذلك عملية صعبة. فالطفل الذي كان يتمسك بثدي أمه لمدة ليست قصيرة ليس للغذاء فقط، بل للحنان والعطف والشعور بالمحبة الخاصة، يصبح مهدداً لفقد ذلك، وبالبكاء والتشبث بصدر أمه يقاوم. كانت بعض الأمهات تضع على الثدي عصير "نبات شديد المرارة" وهو مستحضر من "الصبار المُر" وقد نجح في أكثر الحالات مفعوله في إبعاد الطفل عن الثدي وفطامه. وعند بداية ظهور الأسنان ورغم صحة الطفل نتيجة لذلك لم يؤخر العائلة من الاحتفال "بالسنونية"، حيث تصنع النساء "حلوى" من القمح المسلوق مع السكر والزبيب والمكسّرات ليقدم للضيوف الذين يبتهجون في هذه المناسبة التي يرونها هامة في حياة الطفل ونموه، واحتفالا بأنه تجاوز مرحلة الخطر.



علي النجار الكبير مع حفيده الأول علي عارف النجار
دادي يلا يلا دادي يا ماشاء الله



عمارة علي اسماعيل النجار في شارع يافا روميما



الفصل السادس

العِلْمُ جَمالٌ



٦

أصبحت العائلات المقدسية ترى في التعليم ضرورة، للبنت لكي تكون "شلبية" أو جميلة، وإن كان الاهتمام بتعليم الذكور أكبر ليس من الأهل فقط، بل من سياسة الحكومة التي أنشأت عدداً من مدارس الأولاد في المدن والقرى يفوق عدد مدارس البنات. ورغم ذلك تضاعف الإقبال على تعليم البنات وزاد بشكل ملحوظ في الثلاثينيات والأربعينيات. وتباهت العائلات بالبنات اللواتي أصبحن "مثل الأولاد"، متعلمات ويحلمن بالعمل بعد التخرج وإن كانت الوظيفة محصورة في التعليم.وردد طلاب وطالبات المدارس في الطفولة:

يا مدارس يا مدارس يا مكلنا ملبس خالص

والملبس بالكباية أشكرك يا معلمتنا

ع نظافة مدرستنا

علم للأولاد والبنات

وكان اهتمام الفلسطينيين بالتعليم قد بدأ منذ مطلع القرن العشرين تحت الحكم العثماني بفضل الدستور ١٩٠٨، إذ كانت إحدى مواد الدستور العثماني المعروف "بالمشروطية" تنص على ضرورة تعليم البنات. وحتى عام ١٩١٤ توزع التعليم على ثلاثة أنواع، "الحكومية والإرساليات والأهلية". وبسبب تهميش اللغة العربية وتشجيع تعليم اللغة التركية، أقبل الناس على إرسال أولادهم إلى مدارس الإرساليات بدل الحكومية التي تواجدت في القدس كما المدارس الأهلية الخاصة. وكان هذا النوع يستقطب أولاد الطبقة المتوسطة والغنية التي يمكنها دفع الأقساط، ولأنها بشكل خاص تهتم بتدريس اللغة الانجليزية واللغات الأجنبية لأهميتها في الالتحاق بوظائف مرموقة في الدوائر الحكومية بعد التخرج. وكان أبرزها مدرسة المطران والتراسنطة للأولاد التي اهتمت بتعليم اللغة الانجليزية والفرير التي اهتمت بتدريس اللغة الفرنسية، وقد خرّجت هذه المدارس كثيراً من رواد فلسطين وفتحت الطريق أمامهم

لإكمال الدراسة في أوروبا، والحصول على تعليم يؤهلهم للعمل في البنوك والمؤسسات التجارية والحكومية [٢٥].

وبهذا البعد الطبقي الذي أفرزه الواقع الاقتصادي، حُرمت كثير من البنات من دخول المدارس التي تعلم اللغات. كما أن هذا البعد أهّل أبناء الطبقة البرجوازية من الاستحواذ على الأعمال في المؤسسات الهامة. ومع ذلك حظيت قلة من بنات القدس منذ أوائل القرن العشرين بالحصول على تعليم اللغات في المدارس الأهلية. وأقبل الأهالي على إلحاق البنات بالمدارس الداخلية والخارجية التابعة للإرساليات. وتنافست المدارس على استقطاب البنات. كان "المسكوب" الروس، السبّاقون لافتتاح "السمنار" أولى مدارسهم للبنات في بيت جالا ١٩٨٢. وقد خرجّت عدداً من الشخصيات الثقافية والتعليمية والتربوية بينهم خليل بيدس رائد القضية الفلسطينية وسليم قبعين وانطوان بلان والأديب اللبناني المعروف ميخائيل نعيمة. وكان من بين الخريجين كلثوم عودة المولودة في الناصرة التي أصبحت مشهورة عالمياً لذكائها وتميّزها بالعلم والمعرفة في فلسطين، كما في روسيا، حيث استقرت بعد زواجها من طبيب روسي.

واهتمت الطائفة المسيحية الأرثوذكسية، بإنشاء المدارس في أكثر المدن والقرى الفلسطينية لتدريس منهجها في اللغة العربية، إلى جانب اليونانية والصلوات الدينية. وفي خضم التنافس الأجنبي لموطئ قدم في القدس، أنشأت البعثة الفرنسية مدرسة الفرير لتعليم البنات اللغة الفرنسية التي اعتبرت زينة إضافية للبنت الشلبية في نظر المجتمع، كما اللغة الايطالية التي تعلمتها في مدرسة السلزيان في المصرارة، بالإضافة إلى الألمانية والانجليزية التي تعلمنها في مدرسة الشميت العريقة. وكذلك تعلمت البنات اللغة الانجليزية في مدرسة الفرندز في رام الله والتي أنشأتها نبيهه ناصر ابنة القسيس حنا ناصر لتنجح المدرسة وتتطور فتصبح "جامعة بير زيت" إحدى أعرق الجامعات الفلسطينية. وكانت بعض البنات يتقن ثلاث أو أربع لغات يتباهين بها الأهل أمام الأصدقاء وتميّزهن عن غيرهن من البنات. وخرّجت هذه المدرسة بنات ليصبحن قائدات مثل عصام عبد الهادي، التي كانت تنظم القصائد الوطنية في أواخر

---

٢٥ خصصت المعارف ٥٪ من ميزانية الحكومة سنوياً للمعارف وهي نسبة ضئيلة، مما دفع بالبلديات والمؤسسات الوطنية للتبرع بمبالغ مالية كافية لإنشاء المدارس وأنفقوا عليها. وبلغ عدد الطالبات في المدارس الحكومية عام ١٩٢٠-١٩٢١، في بداية الانتداب ما مجموعه ٢٫٧٨٦ طالبة، مقابل ١٣٫٦٥٦ طالبا. وتضاعف في السنة الدراسية ١٩٢٩-١٩٣٠ ليصل إلى ٤٫٧٨٢ طالبة، مقابل ١٨٫١٧٤ طالباً. وفي عام ١٩٣٥، في فلسطين ١٥ مدرسة للبنات. وبين ١٩٤٥-١٩٤٦ بلغ عددها ٥١٤ مدرسة بلغ عدد الطالبات فيها ١٦٫٥٠٦ من مجموع ٨١٫٠٢٤ طالباً.
للمزيد حول التعليم، نبيل بدران، نبيل أيوب التعليم والتحديث للمجتمع العربي الفلسطيني، الجزء الاول، منشورات مركز الأبحاث الفلسطينية ١٩٦٩.



صغيرات وكبيرات بنات مدرسة الشميت للبنات ١٩٣٠



مدرسة القرية في الثلاثينات



الهيئية التدريسية لمدرسة الشميت في الثلاثينيات
عرف منهم سستر انجليكا صف أول والمعلمة مليحة أبو خضرا تحت القوس

الأربعينيات لتستمر في وطنيتها ونشاطاتها السياسية والاجتماعية بعد النكبة، ولتبرز كرئيسة لاتحاد المرأة الفلسطيني وتمثل المرأة في المؤتمرات العالمية *.

اهتم المجلس الإسلامي الأعلى بالتعليم، وقد دعم كلية مدرسة المعارف التي أسسّها الشيخ محمد الصالح في باب الساهرة داخل السور عام ١٨٩٦ بعد أن أعيد فتحها بعد الحرب. وقد خرّجت الكلية عدداً من الطلاب في العشرينيات، أصبحوا شخصيات لها دورها في المجتمع. ويتذكر أهل القدس منهم: الشيخ عبدالله غوشة، والشيخ يوسف ياسين، ود. حازم نسيبة، ورشاد الشوا من غزة، وعوني الدجاني، ومحي الدين الحسيني، وراسم الخالدي والمهندس رجائي النمري، وقد عُرفت المدرسة بقوة منهجها. كما استضافت الكلية عدداً من رواد الفكر والأدب، بينهم الشاعر الرصافي، وضياء الطبطبائي، وإسعاف النشاشيبي، وخليل السكاكيني، وعجاج نويهض. وسجّلت الكلية ذاكرة العلم والأدب إلى جانب اهتمامها بالدين الإسلامي. وقد عُقد فيها أول المؤتمرات الإسلامية عام ١٩٣١، وكذلك مؤتمر علماء فلسطين ١٩٣٥ و ١٩٣٦.

وبرزت الشيخة زهرة الصالح قريبة الشيخ محمد الصالح مدرّسة لبنات القدس في القرآن الكريم وتجويده في زاوية دار أبو السعود في الحرم الشريف. وقد اهتمت بتعليم بنات القدس وهي تجلس على مرتبة مرتفعة، وكانت عندما تقدم الدروس بصوتها العالي تستريح من فترة لأخرى وتتناول بيضة مسلوقة، وسكراً فضياً لتسلك الصوت الجميل الذي أتقنت به التجويد كما روت تلميذاتها. ودرس على يدها عدد من البنات ومنهن: بهيجة ونعيمة الصالح لتفتح أمامهن حب التعليم وتحمّل المسؤولية. وبعد وفاة الشيخ والدهما استلمت بهيجة ثم نعيمة إدارة المدرسة وحافظت العائلة بعد النكبة على اسم المدرسة "روضة المعارف" التي أنشئت خارج الوطن، في عمان، وفي السعودية، ولتظل تحمل ذاكرة الرواد.

لم يتأخر "المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى" لتأسيس مدرسة فأنشأ في العشرينيات "مدرسة البنات الإسلامية" التي درّست البنات على مقاعدها في القدس القديمة فقط المنهج العلمي المعاصر، بعد أن كانت الكثيرات يتعلمن في مدارس الكتاتيب القراءة والقرآن الكريم. وكانت مثل هذه البدايات في تعليم لغة القرآن تضمن صحة النطق واللفظ. وبرزت هذه المدرسة بين سبعة مدارس، خاصة للذكور هي: كلية وروضة المعارف الأهلية، الكلية الإبراهيمية،

* عصام عبد الهادي مناضلة فلسطينية ولدت في بلدة طولكرم (١٩٢٨). درست الابتدائية في مدارسها، ثم الثانوية في مدرسة الفرندز في رام الله. ناشطة سياسية في حقوق الإنسان وقضايا المرأة. ترأست الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، أبعدت إلى الأردن عام ١٩٦٧، لتستمر في نضالها مع النساء الفلسطينيات بعد النكبة. حضرت المؤتمرات النسائية العالمية لتمثل المرأة الفلسطينية خير تمثيل، وقد شهدت على اثباتها ذلك، كما حضرت مؤتمر المكسيك للأمم المتحدة عام ١٩٧٥.



الشيخ محمد الصالح مؤسس روضة المعارف عام ١٨٩٦ في البلدة القديمة



الطفلة ابتهاج عرفات بثوب
التخرج من ختم القرآن كما كانت
العادة متبعة في فلسطين



بهيجة ونعيمة الصالح مع الهيئة التدريسية والطلاب في مبنى المدرسة في باب الساهرة



خريجات مدرسة صهيون مع الهيئة التدريسية بينهم : مس أرتيني والطالبات هدله الأيوبي ولهلمين خوري ، ديانا سعيد ، نهاية قصري ، عافيتني باتيان ١٩٤٦



طالبات المدرسة الإنجليزية بينهن من عمان : الشاعرة ثريا ملحس الثاني من اليمين وزريقات وحورية المفتي وربيعة عبدالهادي



خريجات الفرندز ١٩٤٠ أديبة برغوثي ، اكرام بديري ، ماجلاكوك مارجريت ، ونابديان كاثرين جابر ، ماري كعبيي ، نجلاء السقا ، ليندا صباغ و نجيبة صباغ



بنات مدرسة الفرندز ١٩٣٦ . نينا حداد، اللا مرمورة، ڤيرا صفوري، أڤلين سعيد، ياسمين زهران

المدرسة المحمدية، مدرسة الفلاح، مدرسة الحكمة، ودار الأيتام الإسلامية. بالإضافة إلى ذلك درست البنات في ثلاث مدارس حكومية في القدس مقابل تسع مدارس للأولاد، هي: مدرسة المأمونية القديمة والمأمونية الجديدة، ودار المعلمات. أما المدارس الحكومية للأولاد فكانت الكلية العربية، والمدرسة البكرية، والمدرسة العصرية، ومدرسة المصرارة، ومدرسة الشيخ جراح والكلية الرشيدية، والمدرسة العلوية، ومدرسة البقعة. وكان يدرس فيها الطلاب من مسلمين ومسيحيين، ومن جميع الطبقات الاجتماعية.

تعليم الآباء والمثقفين

فاخر أهل القدس "بالكلية العربية" الأشهر بين المؤسسات التعليمية العربية فقد تأسست عام ١٩١٨- ١٩١٩ كدار للمعلمين بجهد المثقفين الفلسطينيين. وكان أول مديريها خليل السكاكيني الذي تبعه خليل طوطح حتى عام ١٩٢٥ وهو ابن القدس الحاصل على شهادة ماجستير في التربية من جامعة كولومبيا في نيويورك. وعرفت الكلية لكل أهل القدس لتوسط موقعها في باب الساهرة في مبنى يملكه زكي نسيبة وقبل أن يصبح اسمها عام ١٩٢٨ "الكلية العربية الحكومية" تحت إدارة أحمد سامح الخالدي المربي المعروف. وقد أصبحت من أهم المؤسسات التعليمية ليس في فلسطين فحسب بل في الوطن العربي حتى عام ١٩٤٨. فالتعليم فيها كان يصل إلى الصف الرابع ثانوي فما فوق، وقد أدى طلابها عام ١٩٢٩ امتحان المتروكوليشن الذي يؤهل الطلاب الالتحاق بالصف الثاني في الجامعات الأمريكية، وتطورت الكلية لتصبح كلية جامعية تقدم طلابها لامتحان البكالوريوس عام ١٩٥١ والتي لم تتحقق كما كان هدف مديرها احمد سامح الخالدي بسبب النكبة ١٩٤٨. وقد تميز أساتذة وطلاب الكلية العربية بالثقافة العالية الارتباط بالأرض والروح الوطنية. ففي عام ١٩٢٥، قام الأستاذ درويش المقدادي برحلة على الإقدام مع تلميذه وصديقه نقولا زيادة. وجاب مساحات واسعة من بلدات وقرى فلسطين والشام، شملت: القدس، البيرة، رام الله، بتين، سنجل، بير يعقوب، نابلس، سبسطية، سناتور، دنين، مرج بن عامر، الناصرة، جبل طابور، كفر كنا، حطين، طبريا، الطابقة، صفد، الخولة، منابع الأردن، بانياس، جبل الشيخ، حاصبيا، مرجعيون، قلعة الشقيق والنبطية [٢٦]. وفي عام ١٩٣٤-١٩٣٥ نقلت إلى مبناها الجديد على جبل المكبر، حيث أقيمت على أراض واسعة بين أشجار الزيتون على هضبة تشرف على وادي القدس الجنوبي. وأضيفت لها صفوف لتدريب المعلمين وقد عُرفت بدار المعلمين، وتميّزت بمكتبتها الغنية بأمهات الكتب في جميع المجالات بلغ عددها ٧٠٠٠ كتابا.

---

٢٦ تاريخ الإذاعة الفلسطينية، هنا القدس، ١٩٣٦-١٩٤٨، دمشق ٢٠١٠، الطبعة الأولى.

– انظر علي حسن البواب، الحركة الفكرية والثقافية والفنية في القدس في الفترة الحديثة والمعاصرة، القدس الإسلامية، تحرير محمد هاشم غوشة، ٢٠٠٩. ص (٣١٧-٣٤٦).



طلاب الصف الرابع ثانوي في المدرسة الرشيدية ١٩٤١ مع الهيئة التدريسية بينهم حسن عرفات، وموسى خوري، وعبدالحافظ كمال، وحسني الأشهب، والحاج مير، محمد رشيد العدناني، بدر فاهوم، ابراهيم الشهابي، جمال بدران، أكرم الدقاق و محمد سعد الدين، وجبرا ابراهيم جبرا، حفص السقا، سمير الشهابي، ابراهيم بكر، عمر العقاد، جمال بدران، عبدالرحمن النجاب، زكي الغول، منذر الفاهوم، ثابت الطاهر



الفريق الرياضي في مدرسة الرشيدية مع حسن عرفات المدير وأعضاء من الهيئة التدريسية ١٩٤٧

ارتبطت أسماء الكثيرين من المشاهير من المثقفين بالكلية من طلاب وأساتذة منذ نشأتها، إذ ضمّت الطلاب والأساتذة المميزين، ومن بينهم الأساتذة إسحاق موسى الحسيني، جميل علي، عبد الرحمن بشناق، درويش المقدادي، سليم كاتول، محمود كاتول، مصطفى الدباغ، معروف الرصافي (عراقي) نقولا زيادة، وصفي عنبتاوي، أحمد طوقان، حسن عرفات، والحاج مير، جمال بدران، عادل جبر، جورج معمر، رشدي شعث، توفيق حلاق، حبيب الخوري، نخلة زريق، جورج خميس، علي حسن عودة، وضياء الخطيب، ويوسف قدورة، وعبد السلام البرغوتي، وجبرائيل كاتول، وحظي الطلاب بسماع محاضرات من الأدباء والعلماء المشهورين، بينهم إسعاف النشاشيبي، والشيخ نديم الملاح، والقس الياس مرمورة، والسير رونالد ستروس حاكم القدس، وصاحب مجلة النفائس العصرية خليل بيدس، محمد فياض، محمود الغول، وفايز الغول، وكامل العسلي ووصفي حجاب، وعبد الحميد ياسين وتوفيق صايغ[٢٧].

كان لمدرسة الرشيدية أثر في مواصلة تعليم مبدعين من أكناف القدس من الأجيال التالية، إذ درس فيها في طفولته الأديب القاص محمود شقير وهو من مواليد جبل المكبر ١٩٤١ وله إبداعات قصصية وكتابية وحضور ثقافي مميّز، كما درس فيها الأديب القاص خليل سواحري وهو من مواليد جبل المكبر عام ١٩٤٠، ويعد من رواد القصة القصيرة في الستينيات، وكتب في مواضيع مختلفة.

وكان لهؤلاء الرجال المتنورين أثرٌ في المساهمة في خلق وعيّ يعزز تعليم البنت ونهضتها في العقود اللاحقة، خاصة وقد عملوا في مجال التربية لتعليم جيل جديد من الآباء والأمهات. وقد بلغ عدد طلاب الرشيدية عام ١٩٤٥-١٩٤٦ المدرسي ٣١٠ طالبا منهم ٣٦ طالبا يدرسون في الصفوف العليا التحضيرية للطب والهندسة.

وبرز من طلابها الرواد الذين أصبحت لهم مساهمات فكرية وأدبية وإدارية من بينهم: إحسان عباس، أنيس قاسم، خيري حماد، عبدالله الريماوي، جبرا إبراهيم جبرا، ناصر الدين الأسد، ذوقان الهنداوي، عبد اللطيف الطيباوي، محمد يوسف نجم، والأخوان هاشم وعبد الرحمن الياغي وثابت الطاهر. وبفخر يذكر زكي الغول مدرسته وأساتذته الذين ساهموا في الحفاظ والتمسك بالهوية الوطنية كما ساهموا في خدمة العالم العربي وفي نهضة المرأة، كأساتذة وآباء وإخوة.

ويتذكر الحاج زكي الغول الذي حصل على شهادة المترك من الرشيدية عام ١٩٤٤، تحت إدارة حسن عرفات أساتذته موسى خوري أستاذ اللغة الإنجليزية، وعبد الحافظ كمال

---

٢٧ الموسوعة الفلسطينية، مصدر سابق، جزء (٣).

أستاذ العربية، وحسني الأشهب، والحاج جبر أستاذ الرياضيات. ظل الحاج مير المميز بدقته في ذاكرة الحاج زكي وطلاب صفه، ويتذكر كيف كان يؤنب الطلاب الذين لا يرون أقلامهم لتصبح مثل "رأس الإبرة".

وتروي فريدة العسلي زوجة المؤرخ المقدسي كامل العسلي، طُرْفة عن زوجها ظل يرددها بشوق وحنين عن أستاذه الحاج مير الذي درسه عام ١٩٣٩ .وتتلخص أ نه في إحدى المرات دخل الحاج مير الصف بعد معلم العربي وصفي حجاب الذي كان قد أنهى الدرس المتعلق بكتاب (الأغاني) لأبي فرج الأصفهاني الذي يضم أشهر تراجم المغنين والموسقيين العرب. ولاحظ اسمين على اللوح هما (زرياب) ومعلمه (إسحاق الموصلي) مغني الخليفة هارون الرشيد زمن العباسيين. فما كان من الحاج مير إلا أن نادى الاسمين لاعتقاده أنهما لطالبين كانا معاقبين من المدرس قبله. وظلت هذه الطرفة محببة بين طلاب الصف يرددونها كما كامل العسلي للأصدقاء.

تأسست مدرسة الرشيدية في القدس ١٩٠٦ لتصبح تحت الانتداب من أفضل المدارس الحكومية استقطبت أهل القدس والقرى المجاورةومن طلاب القرى الذين درسوا فيها، علي عثمان وأخية إبراهيم عثمان من بيت صفافا، ومن بتير حسن مصطفى ومن المالحة أمين درويش، ومن العيزرية علي سعيد خلف ومحمد خلف. ومن لفتا محمد صيام الخطاط الموهوب الذي وضع كتبا للخط في المناهج المدرسية. كما أقبل الشباب القروي على الدراسة في المدارس الأجنبية منذ العشرينيات بينهم عارف علي النجار من لفتا، الذي درس في "سانت جورج"، وكذلك جمال ناصر، ومحمد ومصطفى النجار، ويحيى حمودة من لفتا * .

وفي الأربعينيات قويّ نشاط القرويين وحماسهم للتعليم والثقافة والعمل الصحفي وللانخراط في الحياة العلمية بشكل واضح، وقد زاد بازدياد الوعي الفلسطيني بالخطر الصهيوني، بالإضافة لتهميش الريف من قبل القيادات المدينية. وقام عدد من المثقفين

* يحي حمودة ولد في لفتا، ١٩١٠، درس المرحلة الابتدائية في مدرسة الرشيدية ودار المعلمين ثم معهد الحقوق في القدس وأتم دراسة الحقوق في الجامعة الأمريكية في بيروت بترشيح من أحمد سامح الخالدي، وعمل في المحاماة في القدس ١٩٤٣. انخرط في العمل العام والسياسي منذ كان طالبا في الرشيدية، شارك في مظاهرات ١٩٢٠ مع زملاء المدرسة ثم تصدى لليهود في هبة البراق ١٩٢٩ مع أهل بلدته. وشارك في ثورة ١٩٣٦ المسلحة ضد الاستعمار الانجلوصهيوني. اعتقل مرارا في أكثر من سجن وزامل في السجون المناضلين، حمدي الحسيني، وصبحي الخضراء، وقدري طوقان، وهاشم السبع، وجميل وهبة، وصالح عبده، وغيرهم. كتب في الصحافة، وأسس عام ١٩٥٠ (مجلة الهدف). انتخب رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٨ بعد أحمد الشقيري. مارس المحاماة وساهم في تأسيس نقابة المحامين الأردنيين مع شفيق ارشيدات، عبد الخالق يغمور، وجبرا الأنقر، ويعد من أعلام النضال الوطني الفلسطيني والقومي.



طلاب واساتذة الكلية العربية باليونيفورم الذين انتقلوا اليها من الرشيدية يتوسطهم المدير احمد سامح الخالدي



طلاب الكلية العربية قسم التربية ١٩٣٢ مع الهيئة التدريسية بينهم أحمد طوقان، وصفي العنبتاوي والحج مير

القرويين الذين درسوا في الرشيدية ثم في الجامعات الأمريكية بأخذ زمام المبادرة لتأسيس "ناد" يجمعهم من أجل العمل العام وتطوير المجتمع. وتأسس " نادي بيت صفافا الرياضي الاجتماعي" بمبادرة من موسى عثمان المعلم في مدرسةِ النهضة في القدس وعلي عثمان الطالب الجامعي في الجامعة الأمريكية في القاهرة، وقد شكل النادي فريقا لكرة القدم من أبرز لاعبي المنتخب الفلسطيني، أثبت وجوده ليؤسس بعد ذلك (الاتحاد القروي) الذي ضم معظم قرى المنطقة وقياداتها الشبابية المتعلمة برئاسة أمين درويش (المالحة) وبينهم سعدي الكرام (المالحة) وعائلة شومان أصحاب البنك العربي (بيت حنينا) وعارف النجار (لفتا) وأولاد شاهين (سلوان)، وكان أكثرهم من كبار المقاولين الذين دعموا النادي مادياً. وأقبلت القرى بحماس ومنافسة لتعليم الأولاد. وكان طلاب القرى "يمشون" إلى مدارس القدس، ويدرسون فيها الثانوية لعدم وجود مدارس في القرى [٢٨]. من بين طلاب قرية لفتا عيسى القاسم الذي درس الابتدائية في مدرسة القرية ثم الثانوية في الروضة. ويتذكر من أولاد صفه ربحي أبو الحاج ووليد وخالد الحاج حسن وموسى وعلي أبو الراغب وأولاد أبو الراغب من عمان. وكانت المدرسة تحت إدارة إسحاق إبراهيم الحسيني .ويتذكر محي الدين الحسيني الذي أصبح زوج أمينة الحسيني ابنة عمة الحاج أمين مفتي فلسطين. ومن أولاد صفه في الروضة في باب الساهرة حسين المصري عزيز ووائل السجدي ويتذكر بشكل خاص دروس الرياضة.

كان للمرأة القروية نصيب في حماسة الشباب القروي ووعيه، فقد فتح نادي (بيت صفافا) مدرسة للبنات، كانت احد الأسباب لوقوع خلافات بين جيل الشباب المتعلم والجيل القديم. وتحمّس الكثيرون من القرية على إنشاء مدرسة للبنات، وقاموا بجمع التبرعات من الأهالي. ويتذكر أهل القرية أن بائعة الحليب "الأمية" تبرعت بخمسة جنيهات من جيبها وعرقها .وقد نجح النادي بإقامة المحاضرات التي تعالج مشاكل المجتمع المحلي، ومنها الصحية والتربوية المتعلقة بتوعية المرأة والرجل. بالإضافة إلى ذلك نشطت القرى بإنشاء مدارس البنات بمساهمة أهل كل قرية، فمثلاً أسست عريفة النجار "مدرسة بنات لفتا" في منتصف الأربعينيات وقبل أن تتحول إلى حكومية. وكانت تتجول في القرية وتزور العائلات لتشجيع الأهالي لإرسال البنات للمدرسة، خاصة وأنها قدوة في المجتمع وقد تلقت تعليمها في مدرسة السلزيان الإيطالية في القدس وتعلمت اللغات، وظلت هذه الرائدة ناشطة في العمل العام ومساعدة المحتاجين بعد النكبة، كما شقيقتها رفقة النجار خريجة الشميت التي استلمت إدارة مدرسة بنات الزرقاء في الأردن بعد النكبة مباشرة بالاضافة لتعليمها الإنجليزية.

٢٨ إبراهيم عثمان، مصدر سابق.



عبدالله الشهابي من القدس مدير مدرسة المساحة



طلاب المدرسة الصناعية الثانوية في حيفا ١٩٤٣ وتضم الطلاب من أنحاء فلسطين بينهم من اليسار: سليم الواوي، عبدالله يونس، سليمان طريف، محمد أبو حجلة، عفيف حجير، علي أبو الرب، سابا عيسى السرياني، محمود عثمان، مصطفى عبدالحفيظ



أساتذة مدرسة المساحة العامة بفلسطين ١٩٤٤



القاص خليل السواحري مع أولاد مدرسته في جبل المكبر قبل التحاقه بالرشيدية



القاص محمود شقير من جبل المكبر مع ابنته أمينه تيمنا باسم شقيقته من طلاب الرشيدية في القدس

معهد الحقوق يخرج المحامين

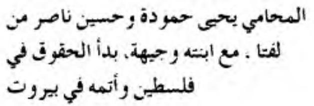
وأقبل الكثيرون من أهل القدس على دراسة الحقوق في "معهد الحقوق" في القدس وقد أنشىء في أواسط القرن العشرين لتدريس الأنظمة والقوانين التي سنتها سلطات الانتداب ولتخرّج عددا من المحامين بعد اجتياز امتحانات المعهد. وقد تخرج من عدد من الأساتذة منهم: احمد الشقيري* ويحيى حمودة وكمال الدجاني، وليد صلاح، عجاج نويهض، كمال ناصر، محمد عبد الرحمن خليفة (الأردن)، عدي البيطار، صبحي حجاب، عادل جبر، وعادل زعيتر وعمل الخريجون من المعهد ومن الجامعات الأمريكية ومن لندن في المهنة في القدس. وبرزت أسماء مرموقة في هذا المجال وأصبحوا من أبرز المحامين الشرعيين والنظاميين منهم: عمر الصالح البرغوثي، العمارة المركزية، شارع يافا ت ٥٧٧ ص.ب. ٤٢٩، الشيخ عارف الخطيب الجماعي، جميل بك الحسيني، جودت الكاظمي، ساحة اللبن، والشيخ جراح، الشيخ عبد الغني كاملة، مغنم مغنم، العمارة المركزية شارع يافا، ت ٣٤٢ فرع في عمارة مغنم وعصفور، عبد اللطيف خماش، فؤاد النشاشيبي، حسين ناصر (لفتا)، نصري نقولا نصر، باب الخليل ت ٣٨٦، انسطاس حنانيا، شارع يافا ص.ب. ٢١٤ ت ٤١٢. عبد الغني الخالدي، حسن صدقي الدجاني الشيخ أديب رمضان السراح، الشيخ عطاالله السروري، عزيز شحادة، جورج صلاح العمارة المركزية شارع يافا بريد ٧٦٩ ت ١١٢، فؤاد عبد الهادي، شفيق عسل، حنا عطاالله، الشيخ أحمد العوري، خضر عويضة، باسيل فرج الله، داوود القطب رشدي المهتدي، وسعيد علاء الدين، وأمين درويش من المالحة. -

وكان المحامون قد توزّعوا تحت الانتداب في مدن فلسطين: من بينهم في حيفا وديع البستاني(لبناني عاش بفلسطين) مكتبه في شارع يافا ت ٤٩٩ ،وكان مختصا "حقوق وأراضي" أمين جرجورة، وأنيس الخمرة عمارة البنك العربي، الشيخ عبد العزيز الصبّاغ، محمود الماضي ومعين الماضي (إجزم / حيفا)، وفي صفد عبد الغني النحوي، وطبريا فائز الطبري، (وطولكرم) صبحي الخضرا وأحمد الشقيري (عكا)، قرب محكمة الصلح، وحسن حبيب حوا، والشيخ مصطفى بسيسو وفهمي الحسيني، والشيخ حسن شكري الشوا، وفائق الكيلاني من غزة وعمل خريجو المعهد في عمان "شرق الأردن" ومنهم بهجت التلهوني، نوري جعفر، بسيم الخماش، رفيق صلاح، سامي شمس الدين، فؤاد عبد الهادي، عارف العنبتاوي، والشيخ نديم الملاح، رفيق صلاح وإسماعيل زهدي. ولم يكن هذا التخصص قد ظهر بين النساء لممارسة المحاماة قبل النكبة.

---

* أحمد الشقيري، أصبح أول رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ تبعه يحى حمودة عام ١٩٦٨ ليكون الثاني، وقبل ياسر عرفات.

من أوراق الغرفة التجارية والصناعية ١٩٣٦–١٩٣٧


المحامي يحيى حمودة وحسين ناصر من
لفتا . مع ابنته وجيهة، بدأ الحقوق في
فلسطين وأتمه في بيروت





مجموعة من طلاب مدرسة لفتا مع استاذهم محمد عبدالله ربيع ١٩٤٧
أسست المدرسة عام ١٩٢٩



طلاب مدرسة الفريندز ١٩٤٣ بينهم منذر عناب يحتضن الكرة
وناجي نصار ، علي البشير ، منذر عفيفي و شوقي شحادة
و أسعد سروري

الأمهات الرائدات المعلمات

ساهم تعليم الذكور في التأثير على تعليم البنات ليصبح الرجال فخورين بالبنت المتعلمة والمرأة الناهضة قبل وبعد النكبة. وقد فاقت المدارس المسيحية الخصوصية كل المدارس في عددها، إذ بلغت (٣٧) مدرسة من بينها مدارس مميزة للبنات منها: مدرسة تراسنطة للبنات، المدرسة الأرثوذكسية للبنات، ميتم تراسنطة للبنات، كلية الشميت الألمانية للبنات، مدرسة كنيسة يسوع للبنات، مدرسة سيدة صهيون الانجليزية، مدرسة البنات الانجليزية، ومدرسة الأمة. وقد خرّجت هذه المدارس بنات يتقنّ اللغات وتأثر البعض بالحضارة الغربية ومناهج التعليم المتنوعة المنفتحة على العالم. [٢٩]

حلم كثير من الأهالي أن تصبح البنات بعد التخرج "معلمات" في إحدى المدارس، بينما الحلم أن يصبح الأولاد أطباء أو مهندسين. بعدما كان الأكثرية قبل ذلك يحلمون بأن يكونوا معلمين. ودفع إقبال الناس على التعليم سلطات الانتداب إلى إنشاء المدارس وإن كانت قليلة. وتحيّزت للمدن أكثر من القرى ولمدارس الأولاد أكثر من مدارس البنات. وأسسّت الحكومة عام ١٩٣٥، "دار المعلمات القروية" في رام الله لتعد معلمات للتدريس في القرى التي لم يكن فيها مدارس للبنات، وكان الإقبال عليها كبيراً، إذ خرّجت عام ١٩٤٥ أربعاً وثلاثين معلمة. وكانت السلطات البريطانية قد أسست كلية دار المعلمات في القدس عام ١٩١٩ في شارع الأنبياء بالقرب من حي ميا شوريم اليهودي، وكانت لا تزال تحت الإدارة العسكرية البريطانية. وكان التدريس فيها للبنات يهدف لإعداد معلمات لمدة أربع سنوات بعد صف السابع الابتدائي، ليصبحن معلمات بعد أربع سنوات، وقد تضاعف عدد الدارسات في الكلية من ٥٤ طالبة في عام ١٩٢٤-١٩٢٥ إلى ١٥٤ طالبة في العام الدراسي ١٩٤٥-١٩٤٦. وقد رحّب الآباء المثقفون بذلك بعد حرمان الأكثرية من الدراسة أو التدريس في العهد العثماني، إذ كان عدد المدارس لا يتجاوز (١٧١) مدرسة فقط. ولم يكن هناك تعليم للدراسات العليا للبنات أو للأولاد، غير هذه الكلية للبنات، و "معهد الحقوق" و "الكلية العربية" التي خرّجت جيلا متعلما حرص على تطوير العلم والمعرفة والتربية.

لوحظ الإقبال الكبير على دار المعلمات. وكانت البنات تفد إليها من مدارس أكثر المدن الفلسطينية، ويعشن في القسم الداخلي، حيث يُوفر لهن المأكل والمعيشة. تحيز المنهج في الكلية للتعليم التقليدي للبنات، إذ اقتصر في البداية على تعليم المهارات "النمطية" للبنات مثل التدبير المنزلي وأشغال الإبرة والخياطة، التي تهيئهن لدور المرأة التقليدي. إلا أن المنهج قد تغيّر، لتصبح شهادة "المتروكوليشن" كشرط للقبول للدراسة في دار المعلمات وبلغ عدد

٢٩ للمزيد أنظر نبيل بدران: التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني. مصدر سابق

خريجات دار المعلمات أكثر من (٣٠٠) معلمة توزّعن على معظم مدارس البنات، ليصبحن معلمات مؤهلات للتدريس قبل النكبة وبعدها.

وقد وثقت فاطمة علاء الدين إحدى طالبات دار المعلمات ١٩٣٨-١٩٣٩ في القدس وهي من الرملة في " أوراقها الشخصية "جزءاً من حياتها كطالبة، وعن المنهج الذي تعلمته البنات. اللغة العربية والانجليزية، والرياضة والموسيقى والخياطة والتدبير المنزلي والرسم. وقد تعرفت على جمال بدران أستاذ الرسم في دار المعلمات ليصبح زوجها عام ١٩٤٣ ولتسكن معه "في بيت جميل في رام الله، تحيط به حديقة واسعة مليئة بالأشجار والزهور" [٣٠].

وتذكرت هيفاء ملحيس البشير إحدى طالبات الكلية من نابلس، كيف رفض والدها التحاقها بالكلية وبعدها عن البيت. وبعد رحيله انضمت للكلية لتكون بين الفوج الأخير ١٩٤٦ الذي تخرج قبل النكبة. وظلت حياة البنات في المدرسة الداخلية قوية، كما في ذاكرة حلوة عبدالله زميلتها، وخاصة الطعام "غير اللذيذ" الذي كان على القائمة بشكل مستمر مثل البازيلاء الناشفة التي "عقدتنا" وكان الإفطار يتكون من "التطلي" المربى، واللبنة. وكان الأهالي يحملون البنات القرشلة والجبنة "الكرافت" والبسكوت.

وتفاخرت الأمهات والآباء في فلسطين بالقول أمام الأهل والجيران عندما كان الحظ يحالف البنت للدراسة في دار المعلمات في القدس، ويقلن:

- بنتي بتدرس في دار المعلمات.... بدها تصير معلمة.

وهذا يعني، أن ابنتهم انتخبت من بين بنات "الصف السابع" وكان أعلى صف في المرحلة الابتدائية، لأنها "شاطرة" ومميزة، وستصبح معلمة. كانت "معلمات المستقبل" يدرسن في دار المعلمات في القدس في القسم الداخلي ويتركن في عهدة (مس هيكر) البريطانية قبل أن تتولى "بنت البلد" العربية أولجا وهبة رئاسة دار المعلمات لعقود تالية وكانت مس أولجا وهبة تقوم بزيارة المدارس لتشجع البنات للالتحاق بدار المعلمات. وحرصت المدارس الثانوية لدعوتها لتسليم شهادات التخرج ليس في مدارس القدس فحسب، بل في نابلس ويافا وحيفا، وعكا، وصفد، وبعد النكبة في مدن الضفة الغربية.

وظلّت المعلمات الرائدات والقديرات في ذاكرة طالبات دار المعلمات. ولم تنس البنات سائدة جار الله وجوهرة قمر، واستر خوري، ومسز قطان، "ويسرى صلاح، وعدوية العلمي"، قبل الدراسة الجامعية في الخارج، وإنعام المفتي من صفد، التي قامت بالتدريس في دار المعلمات، الكلية التي تخرّجت فيها.وتتذكر جهينة وهبة أسماء بنات دار المعلمات

٣٠ أوراق شخصية وصور.

من خريجات دار المعلمات من مدن فلسطين بينهن : صبا الفاهوم الناصرة، ويسرى البربري وعصام الحسيني غزة، جهينة وهبة القدس، عبلة ناصر عكا، رينيه مطر ووديعة حداد حيفا، أمل قدورة صفد، بدرية دباغ يافا لطفية أبو ليلى القدس، لواحظ عبد الهادي ووسيلة عبد الهادي ونهى ملحس نابلس. لحقهن جيل عائشة التيجاني حيث ترعرعت في حيّ المغاربة في القدس وكانت بين الفوج الأول من خريجات المأمونية قبل الالتحاق بدار المعلمات. وقد أصبحت بعد النكبة من أبرز المذيعات في عمّان، وكانت تذيع بصوتها الهادئ رسائل اللاجئين لأهلهم المشردين في الأقطار العربية. وكانت بذلك تحاول العودة بالذاكرة للحارة التي هدمتها إسرائيل وللجيران والأهل الذين يبحثون عن بعض في رحلة الشتات القسرية. إلى ذاكرة بنات صفها خريجات أول دفعة من مدرسة المأمونية :حنان غوشة، ماري خيو، هند حسيني، نذيرة أبو غزالة، ملك الدجاني، منوة العسلي، سهام العسلي، جميلة نصار، عطاف الجبشة، ليلى الأنصاري، نعمتي العمد، مريم مصطفى، ورفقة العاص.

المأمونية في الذاكرة

قبل هذه المرحلة ، تعلمت بنات القدس وأكنافها في أعرق مدرسة حكومية في القدس مدرسة المأمومية .وخرّجت هذه المدرسة أفواجاً من الطالبات اللواتي درسن الابتدائية والثانوية فيها، لتصبح الكثيرات معلمات في الخمسينيات والعقود اللاحقة. بين خريجات المأمونية من بنات القدس: نوال الشهابي، بشرى السبع، يسرى أبو ميزر، ليلى غوشة، نائلة السائح، أنصاف برغوتي، نادية الخطيب، سهاد النشاشيبي، كائنات الكرد، زهرة الشهابي، فدوى زلاطيمو، عايدة الخطبة، هيام نسيبة، ليلى السمان، يسرى النمري، بهجة البيطار، وبيان النشاشيبي. وتتذكر بنات المأمونية المدرسة والمعلمات والمنهج الذي أخذ بيد البنات لمزيد من التعليم الثانوي .

كان للمعلمات في مدرسة المأمونية منزلة خاصة لدى البنات، من حب واحترام واعتراف بالجميل. وكان لكل معلمة "شلة" من البنات يتجمعن حولها عند القدوم للمدرسة وتركها، وكن يحملن الزهور لهن التي يقطفنها من بساتين البيوت. ومن المديرات والمعلمات اللواتي بقين في الذاكرة :كاميران المصري، باسمة فارس "مديرات" ،ليلى الخالدي، ندية رصاص، نعمتي قميع، عايدة الخضرا، نزهة الخالدي، سلوى الخماش، إلين حرامي، عطاف حماد، زكية ا البديري، أليس كشكشيان، "أرمنية"، فدوى أبوعكر وغيرهن.

كانت العادات والتقاليد في كثير من الأحيان معيقة لتقدم المرأة ونهضتها، وأبرزها عدم الاختلاط بين الجنسين في مجتمع المدينة، خاصة وأن الحجاب ما يزال سائداً يغطي وجه المرأة بلباس ظل لفترة قبل النكبة الفلسطينية ١٩٤٨ يعتبر رمزاً للتخلف الاجتماعي.ومع ذلك



جمال بدران مدرس الفنون في دار المعلمات
مع زوجته فاطمة وابنه راسم وليلى وسميرة



مديرة دار المعلمات اولغا وهبة مع الهيئة التدريسية بينهم سائدة جار الله وخريجات
١٩٣٦ بنهن فخرية الفاهوم رابعة يسار



طالبات دار المعلمات ١٩٤٧ مع المعلمة جريتا طقطق ، زوجة د. سامي خوري
وعايدة كمال ، وصبحية خرينو وفردوس التاجي وعايدة حوا وغيرهن



فخرية الفاهوم (الناصرة) خريجة دار المعلمات
الثانية يمين أعلى مع طالباتها بالناصرة



بنات دار المعلمات ١٩٤٦ بينهن: جهينة وهبة التي اصبحت زوجة يحيى حمودة ،
وحلوة عبدالله ، وهدى ناصر ، وحياة بلبيسي ، وسميرة فضلي وسهام الكرمي



خريجات المأمونية أوائل الخمسينيات، الصف الأول: نوال الشهابي، بشرى السبع، يسرى أبو ميزر، ليلى غوشة، نائلة السائح، أنصاف بوغوثي، نادية الخطيب، سهاد النشاشيبي، كائنات الكرد، زهرة الشهابي، فدوى زلاطيمو، عايدة الخطبة، هيام نسيبة، ليلى السمان، يسرى النمري، بهيجة البيطار، بيان النشاشيبي والمديرة باسمة فارس



المعلمات كاميران المصري، ندية رصاص وليلى الخالدي



من بنات المأمونية، ليلى السمان، يسرى النمري، بهيجة البيطار وبيان النشاشيبي



مدرسة المأمونية في باب الساهرة



طالبات مدرسة أسماء بنت الصديق بحي العجمي في يافا مع المديرة سمية جار الله، والمعلمة مريم أبو غزالة، ويظهر من الطالبات: أنعام قطان، ابتهاج سكسك، فاطمة حميد، سميحة بنات، أميمة الفرخ، عزة الدجاني ولميا الدجاني ١٩٤٧



خريجات الفرندز هند عناب، سميرة عجلوني، ليلى كرتيك، زينا رودينكو، قوجي شحادة وليلى التاجي الفاروقي



خريجات الفريندز ١٩٤٧، بينهن عصام عبدالهادي، سعاد عقل، أنيسةدياه، سلوى فاروقي، كليمانس خوري، ساتانيكا مارخوق، ساتنيك ادهانيان و عبلة زخريا



خريجات الفريندز ١٩٣٨ . قسمت أبو لبن، لمعة بسيسو، مارجريت جبرائيل وبدرية خطيب.



خريجات الفريندز ١٩٤٣ نايفة ابو كشك، مريم عايش، لوريس باندي، ليلى كنعان، فدوى حبايب، نادية حنانيا، جانيت عيسى، رينيه كوتا، جورجيت كونو، نبيلة صلاح وكيتي يوسف



مدرسة الشميت في باب العمود



مدرسة الفرندز في رام الله

لم يؤثر ذلك على تقدم المرأة الطالبة أو المعلمة في الثلاثينيات والأربعينيات وعلى الإقدام على التعليم .قلة من البنات كن يغطين الوجه، كانت بعض المعلمات يلتزمن بذلك، بإصرار من كثير من الأمهات المتأثرات بالعادات والتقاليد. وكانت مفيدة العفيفي توعظ بناتها بالالتزام بتغطية الوجه بالقول: " بغضب عليك إذا كشفت وجهك في الشارع." لأن هناك في الطريق والمجتمع من كان يراقب وإن لم يكن قريبا.

ورغم ذلك فقد استعانت دار المعلمات برجال لتعليم مساقات مثل العلوم والرياضيات التي لم يكن بين النساء من تستطيع تعليمها منهم مستر فضة، ونيقولا قطان، وجورج حنانيا. وكانوا يدرّسون في الكلية الرشيدية. وكان حلم العائلات الفلسطينية حلماً سعيداً وهم يخططون لبناتهم وأولادهم مستقبلاً ناهضاً ومشرقاً بفضل التعليم الذي أرادوه. ولم يكن أهل فلسطين يدركون تماما خطط الصهيونية وبريطانيا، لإقامة إسرائيل ووقوع النكبة، عام ١٩٤٨. ولم يتحقق الحلم لآخر فوج من طالبات دار المعلمات ١٩٤٦ قبل النكبة بأن يمارسن "سلطة المعلمة" التي مارستها عليهن معلماتهن أو للأم والأب أن يفاخروا بابنتهم المعلمة. فقد انقطعت الدراسة كما الاستقرار وتشتت الفوج كما أفواج الفلسطينيين إلى كل مكان. وضم فوج ما قبل النكبة البنات من أكثر المدن الفلسطينية، وهن: من القدس حياة البلبيسي، وسميرة فضلي، وهيلدا يوسف، ومن بيت لحم حلوة عبدالله، ومن بيت جالا ليلى النجار، ومن قرية لفتا هدى ناصر، ومن يافا ريحانة أبو مهر، وعطاف هاشم، ومن الرملة فردوس التاجي، ومن طولكرم سهام العقاد،ومن نابلس هيفاء ملحيس وعايدة كمال وزاهرة عرفات، ومن رام الله ماريكا عقال، ومن عكا ألكسندار عازر، وعايدة حوا، ومن حيفا صبحية خرينو، ومن الناصرة إنعام الزعبي، ومن جنين عدن عثمان وروضة عزوقة، ومن طبريا نعمت الحاج على الطبري، ومن اللد نجيبة بصيلة، ومن يافا هالة البيطار، ومن بيت ساحور فوز عطاالله، ومن بئر السبع إيفون الترك.

وتطورت الرغبة والحاجة لتعليم البنات التعليم العالي الجامعي وساهمت الكثيرات من الخريجات اللواتي تركن مسقط رأسهن بالتعليم، في البلدان التي عشن فيها بعد النكبة وليسجلن دوراً رياديا للبنت الشلبية، خاصة وأن مخيمات النازحين كانت بحاجة للمعلمات والمعلمين، وفي تلك السنة ١٩٤٨ سيئة الصيت من تاريخ فلسطين كانت البنات من المدن والبلدات الفلسطينية بعضهن قد تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت وكلية البنات BCW من بينهن هدى أبو لبان من يافا، ورينا أبو طبول ونجلا حمزة من حيفا، وكريستين قبيسي من رام الله، وثلاثة من القدس هن: سامية أبو رحمة، ولبيبة الحسيني، وندى مرمرة، وكان عدد من بنات فلسطين، قد سبقتهن في التعليم العالي في الجامعات الأجنبية، بينهن ماري عطاالله، فدوى الدجاني، عدوية العلمي (القدس) لبيبة صلاح ويسرى صلاح (نابلس) وقد عملن بعد التخرج

في دار المعلمات وكذلك عملت عفاف وسبأ عرفات وأصبحت عائلات فلسطين تفخر بتعليم البنات تعليما عاليا حتى في المدن المحافظة مثل نابلس، وكان الشيخ عادل صلاح والد يسرى والدكتور نديم صلاح والد لبيبة أمثلة على ذلك.

صغيرات يغنين بالإنجليزية

كانت البنت الصغيرة تتلقى التعليم في مرحلة الطفولة تحت رعاية مباشرة من الأم والعائلة في البيت، تلعب مع إخوتها وأخواتها وبنات الجيران، داخل البيت وفي الحوش وحديقة المنزل حتى السابعة من عمرها سن دخول الصف الأول الابتدائي في مدارس الحكومة. بعض المدارس الأهلية كان لديها Kinder Garten أي صف التمهيدي الذي كان الالتحاق به في سن السادسة من العمر. وسمع الأهالي والجيران البنات الصغيرات وهن يرددن أغاني الطفولة ومنها:

Twinkle, Twinkle, Little Star,

How I wonder what you are,

Up above the world so high,

Like a diamond in the sky,

Twinkle, Twinkle, Little Star,

How I wonder what you are,

When the blazing sun is gone

When there's nothing he shines upon

Then you show your little light,

Twinkle, Twinkle, Little Star,

How I wonder what you are,

وغنّت البنات الصغيرات بسعادة أغنية ما زالت في ذاكرة الأجيال:

Baaba black sheep, have you any wool?

Yes sir, yes sir, three bags full

One for the master, one for the dame

And one for the little boy who lives down the lane

تعلمت بنات الحارة من بنات المدارس الخاصة أهزوجة عن الفئران الثلاثة والتي يرددنها اليوم للأحفاد:

Three blind mice, Three blind mice,

See how they run, see how they run

They all ran after the farmers wife,

Who cut off their tails with a carving knife

Did you ever see such a thing in your life

As three blind mice?

وأنشدت بنات المدارس أغان بالإنجليزية وبشكل متداخل أغنية أحببنها وكن يتمايلن وكأنهن في "كورس" :

Row, row, row your boat

Gently down the stream.

Merrily, merrily, merrily, merrily,

Life is but a dream.

وأثناء الغناء تقسم المجموعة إلى مجموعات صغيرة... تبدأ المجموعة الأولى بالغناء... وتليها أخرى من بداية الأغنية... ثم تبدأ الثالثة وهكذا ...

ورددن قصصا جميلة وهن يتعلمن الانجليزية:

There was an old woman who lived in a shoe,

She had so many children, she didn't know what to do

She gave them some broth without any bread

Then whipped them all soundly and put them to bed

وعندما بدأ المنهج الانجليزي في الصف الرابع الابتدائي في مدرستي الحكومية وليس من الصف الاول كالمدارس الاهلية ، أصبحت البنات تتعلم القراءة والكتابة، وتركن الأهازيج للأصغر سنا. وكان الدرس التي تعلمن به الفعل الماضي بالإنجليزية يطبق في سرد بسيط ظل في الذاكرة :

Prosperos was a prince.He ruled the people of Milan. He was a good man. but he was not a good ruler.

وشعرت وأنا أحفظ درس القراءة " غيبا" من فرط سعادتي أنني أتعلم اللغة الإنجليزية لأتكلم مثل "المندوب السامي" الذي كنا نرى صوره في الجرائد مع الزعامات الفلسطينية. وكنت أحمل الكتاب وأسأل أختي الكبرى عريفة أن تسّمع لي وتنقلني التهجئة والإملاء. وقد أحببت هذا الدرس وكنت أحاول تهجئة أية كلمات مكتوبة بالإنجليزية، وخاصة أسماء الدكاكين التي نمرّ عنها في الطريق الى المدرسة من شارع مياشيرم اليهودي .

وسمع أهل القدس صوت الصغار يرتفع في حوش الدار في البلدة العتيقة، أو في حديقة المنزل تحت شجر الزنزلخت والصنوبر الظليلي خارج السور. الأخت الصغيرة تعيد بصوت عال وراء أختها الكبرى أو أمها أو أخيها جدول الضرب المقرر في منهاج الرياضيات ١٠x٥=٥٠، ٨x٧=٥٦، وتستمر موسيقى الحساب حتى آخر الجداول ١٢x١٢=١٤٤.

أصوات متداخلة تقرأ وتسمع تنطلق من بيت لآخر ومن صوت لآخر. وكأنها تعلن أن في البيت "علم ونور" وفي الحوش المجاور صوت البنت الصغيرة تسمّع درس اللغة العربية الأول: راس روس، دار دور

أو تقرأ قصة "العرندس" التي أحبّتها الصغيرات

أو دروس القرآن الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم:

"قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد."

وبنغمة ترتيل كأنها غناء تتعلم فيه التجويد وتنهي الآية الكريمة ... "صدق الله العظيم".

ذاكرة الدروس والأناشيد العربية

ضمت مدرسة المأمونية القديمة الحكومية في القدس العتيقة "المركزية" أو المأمونية في باب الساهرة، أفواجاً من البنات. وتميّزت المدارس الحكومية للبنات والأولاد بقوة منهاج اللغة العربية. وقد تعلّمنه بأسلوب سهل، خاصة بعد أن وضع المربي الوطني خليل السكاكيني "أبو سري" المفتش العام للغة العربية المنهاج المقرر للصفوف حتى الرابع الابتدائي. واعتبر السكاكيني اللغة العربية "غاية وليست وسيلة،" حيث دعا إلى الحفاظ على اللغة، لأنها كما علّمها لأهل فلسطين وشرق الأردن زمن الانتداب الذي كان يطبّق نفس المنهج وأكد أن: "اللغة قبل كل شيء هي العنصر الذي تقيّم به أمجاد الأمة، وعلينا أن نعلم الولد كرامة الأمة ومجدها في الكلمات العربية التي يقرأها ويشعر بأنه يشرف على مجده وعزته القومية من خلال الحروف والكلمات".

وفي فلسفته التعليمية دمج السكاكيني العملية التعليمية بالحركة الوطنية الفلسطينية، وتحيّز لإعطاء الأولوية للتخصص في مجالات التربية والتعليم والثقافة. ولذلك فقد اختلف مع الكنيسة الكاثوليكية التي ينتمي إليها وطالب بتعريب الكنيسة وحماية حقوق الأرثوذكس الفلسطينيين، وكان موقفه من السلطة معادياً لسياستها المتحيّزة للصهيونية. وتعبيراً عن روحه الوطنية فقد قام في عام ١٩٣٩ بتقديم استقالته وامتنع عن تقديم كلمته في حفل افتتاح الإذاعة الفلسطينية، عندما سمع المذيع اليهودي يقول: "هنا إذاعة صوت إسرائيل". وبموقفه الوطني أجبر المسؤولين لمنع المذيع اليهودي من استعمال الكلمة "مرة أخرى"، وظل السكاكيني مثالاً للمربين والوطنيين ومصدر فخر للمثقفين.

أحبَّ أهل القدس لغتهم العربية بفضل المدرسين والمربين المقدسيين والفلسطينيين وتعاون المربون والمثقفون في نقش جمال اللغة وموسيقاها في أذهان الأولاد والبنات منذ الصغر وإن اختلف أستاذ اللغة العربية الأديب محمد إسعاف النشاشيبي مع السكاكيني في منهجية التعليم. واتبع النشاشيبي الأسلوب القائم على النقل والتحفيظ ورأى فيه أسلوبا يحيي الذاكرة والتذوق الفني والأدبي، وهو أسلوب اتبعه "الخاصة" والسلف بخلاف المنهج الذي أراده السكاكيني سلساً وسهلاً وواضحاً. وظلت أساليب المدرسين والأساتذة المقدسيين الذين عملوا في سلك التعليم في ذاكرة طلابهم وأولادهم وهم يرددون كلمات د. سامح الخالدي، وعلي جار الله، وجميل الخالدي، وجميل مشبك، أو معلمات البنات، في مدرسة المأمونية اللواتي علمت أجيالا متلاحقة عايدة الخضرا، نعمتي قميع، ليلى الخالدي، صبيحة وكاميران المصري، ندية رصاص، نعمة الصالح، باسمة فارس، عليه نسيبة، زكية البديري، عطاف حمّاد، أمل مدوّر، لمعة غوشة، أليس كششيان، وإكرام الخالدي، وغيرهن. وكان من أجمل الأناشيد الوطنية التي كنت تسمعها في كل مدارس البنات والأولاد نشيد "في سبيل المجد" والذي

يعبر عن شعور وطني كان يشعر من ينشده أنه فخور بالماضي والحاضر والمستقبل. وما زال الكثيرون من أولاد المدارس في تلك الفترة يتذكرون النشيد الجميل ومعانية الوطنية وهو من تأليف الشاعر عمر أبو ريشة:

في سبيل المجد والأوطان نحيا ونبيد كلنا ذو همة شماء جبار عنيـــد

لا نطيق السادة الأحرار أطواق العبيد إن عيش الذل والإرهاق أولى بالعبيـد

لا نهاب الزمـــــن إن سقانا المحـــــن

في سبيل الوطـــــن كم قتيل شهيـــــد

هذه أوطاننا مثوى الجدود الأكرمين وسماها مهبط الإلهام والوحي الأميـن

ورباها جنة فتانة للناظريـــن كل شبر من ثراها دونه حبل الوريـد

لانهاب ..... لا نهاب

لقد صبرنا، فإذا بالصبر لا يجدي هدى وحلمنا فإذا بالحلم يودي للــردى

ندفع الضيم ونبني للعلا صرحا مجيدا فنهضنا اليوم كالطود في وجه العدى

لا نهاب .... لانهاب

أنا المحبوبة السمرا

وتعلّمت البنات الدروس بلغة عربية سليمة في القواعد واللفظ. ولخلق محبة للغة والدروس نظّم الأساتذة الأناشيد التي تساعد الطلاب على إتقان اللفظ والمعنى وتعلم الأولاد والبنات عن القهوة التي يحبّها العرب وردد الكبار مع الصغار:

أنا المحبوبةُ السمرا وأُجلى بالفناجيـــن

وريحُ العطر هندّ وذكري شاع في الصين

وربما ساهمت هذه الأنشودة بإسعاد البنت السمراء والمحبوبة مثل القهوة، في الوقت الذي كانت البيضاء هي المفضلة، إذ ظل هذا النشيد المعبّر حيّا في ذاكرة الأجيال. وكلما مرّ أهل القدس من قرب "بستان ورد" يتذكرون أيضاً ما تعلموه في الطفولة ويستحضرون الماضي السعيد:

الوردُ عندي محلُه		وكأنه لا يُمـــلُ

كلُ الرياحينِ جندٌ		وهو الأميرُ الأجـلُ

وخلق الأساتذة أوقات بهجة ومحبّة لدروس اللغة العربية، وهم ينظمون الأشعار التي اعتبرت وكأنها وسائل إيضاح للطلاب، كما في شعر إسكندر الخوري البيتجالي في وصفه للسيارة التي أخذت تنتشر في شوارع القدس والمدن الفلسطينية الأخرى، ولتأخذ مكان وسائل النقل القديمة مثل الدواب. واشترى الناس سيارات هدسون وفيديرال، وويليز، ودوج، وفادكو، وسيارات بويك وبونتياك، وكرايسلر، وبليموت، وديسوتو، وشفرولية. وانتشرت أيضاً وكالات بيع السيارات في القدس من بينها في شارع مأمن الله يوسف إبراهيم أبو خليل، وجميل حلبي، وشكري ديب، شارع البرنسس ماري وسلامة إخوان، وطنوس إخوان في شارع جوليان. وتسابق أهل القدس والمدن الأخرى على شراء السيارات التي كان أصحابها مزهوين بها، خاصة وأنها كانت قلة. وقد اشترى عمي محمد إسماعيل النجار من قرية لفتا، سيارة رولز رويس في الأربعينيات ليكون من بين أول من يقتنيها في البلد، وقد سعدت مع الأهل حينما كان يسمح لنا بركوبها، بدل "حنطور" جدي الذي كان يتميز بجمال زخرفته وحصانين نشيطين، والسايس عطية.

وردد الطلاب بعد الأستاذ بسعادة وفرح وهم يتنقلون بالسيارات التي سهّلت حياة الناس ما كتبه الشاعر والأستاذ إسكندر الخوري البيتجالي:-

سارت بنا السيّارة		كأنها طيّـارة

تستسهلُ الصعابا		وتصعدُ الهضابا

وقودُها البنزينُ		تمشي ولا تلينً

تختصرُ المسافة		كأنها جرافـة

وسعد أهل البنت والولد وهم يسمّعون لأولادهم منذ الصف الأول والثاني ما تعلموه في المدرسة من الكتاب المقرر في منهج اللغة العربية الذي وضعته مجموعة متميزة من الأساتذة هم: راضي عبد الهادي، وأحمد خليفة، ومحمد خورشيد العدناني، ووهيب البيطار، وكان إحداها التي تعود على الوالدين بالمحبة:

فأحبوا أبويكم		لتعيشوا سعـداء

وأبذلوا الروح فداهم		تجدوا الخير جزاء

وكأن الله استجاب لتنبؤات وأمانيهن الأمهات وهن يرددن ويحرّضن الأولاد كما جاء في كتب المربين ويقلن "إن شاء الله":

ربما صرت طبيباً　　　رُبما صرت وزيراً

ربما أصبحت أستاذاً　　　رياضيا شهيراً

كل ذي شأن كبير　　　كان قبلُ صغيراً

وتحمّس الشعراء في نظم الأناشيد وتنافسوا في وضع الكتب، فأصدر إسكندر الخوري البيتجالي "الطفل المنشد" ومحمد البسطامي "الشادي" في الأناشيد الوطنية.

وكان للطبيعة دورُ في خلق محبة للتعلم في المدرسة، وخاصةً التي تحتوي على قصص مسلية على لسان الحيوانات والتي أحبّها أيضاً مؤلفها إسكندر الخوري البيتجالي وهو يقرأ على الأطفال شعراً من ديوانه "الطفل المنشد":

بعوضةُ في ذات يوم　　　شاهدت ثوراً كبيراً

وحامت فــوق　　　قرنية مراراً كثيــراً

ثم استقرت فوق قـرن　　　منهما تبغي سميراً

مرت ثوان فاستحثت　　　عزمها كما تطيــرا

طارت وقالت عنك أنأى　　　أيها الثورُ شكـورا

أما أناشيد حب الوطن فكانت تغيظ بريطانيا والصهيونية، وعندما كان أهل فلسطين يخوضون ثوراتهم في الثلاثينيات ضدهم بكل سلاح، وبينهم من عمل في الإذاعة الفلسطينية. وقد أرسلت فدوى طوقان ابنة نابلس إلى الإذاعة قصيدة وطنية عام ١٩٣٩، حيث كان يعمل شقيقها إبراهيم طوقان تنشد للبلاد:

جنةُ الدنيا بلادي　　　حُبها ملءُ فؤادي

خيرُها في كل وادي　　　حُسنها للعين بادي

جنةُ الدُنيا بلادي

وتصف جمال الوطن:

في الروابي والسهول　　　في البوادي والحقول

في صباح وأصيل حسنها للعين بادي

وكان إبراهيم طوقان قد وضع نشيد موطني...الذي لا يزال نشيد فلسطين الوطني:

موطني موطني ....

الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك

والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هواك

هل أراك

سالما منعما وغانما مكرما

هل أراك

في علاك تبلغ السماء

موطني موطني

ذلنا المؤبدا وعيشنا المنكدا

لا نريد بل نعيد مجدنا التليد

موطني كوطني

الحسام واليراع لا الكلام والنزاع رمزنا

مجدنا وعهدنا وواجب إلى الوفا يهزنا

عزّنا غاية تشرف وراية ترفرف

يا هناك في علاك قاهرا عداك

موطني موطني

وشحذ عبد الكريم الكرمي "أبو سلمى" همم الأطفال وأنشد معهم "رفاق السلاح":

يا رفاق السلاح الحياةُ كفاح

فلنمد الجناح — فوق نور الصباح

وعرف أهل فلسطين والقدس من البنات والأولاد والأهالي الذين أحبّوا الوطن وعلّموا الطلاب معنى الحب، منهم وهيب البيطار، محمد خورشيد العدناني، عصام حمّاد، حسن البحتري، الشيخ البسطامي، راضي عبد الهادي، عدنان النحوي، وبرهان العبوشي ووديع البستاني.

وظل أبو سلمى [٣١] يحنّ للدار والوطن بعد النكبة، وقد علّم الأطفال قبل النكبة نشيد "داري" الذي يقول فيه:

هل تعرف داري — يا جاري — ما أحلاها

يا ليت ترى — غُرف الدار — ما أبهاها

وكانت الدور الجديدة التي يبنيها أهل فلسطين من الحجر الجميل، موضع فخر للكثيرين. وكان السكاكيني[٣٢] قد كتب لابنه سري أنشودة في عام ١٩٢٥ يعبّر فيها عن حبه لوطنه.

نحن قوم أبيّونا — لا نقر الأذى فينا

لا نُبالي منايانا — في سبيل أمانينا

يا بلاداً ورثناها — عن جدود ميامينا

إن يهاجمك زرزور — يلق منا شواهينا

رحلات مدرسية سعيدة

وكثيرا ما فرح الطلاب والطالبات وهم يستعدون لدرس الجغرافيا والتاريخ في المدارس ومنها، الرشيدية والمدرسة الأرثوذكسية الوطنية والكلية العربية ومدرسة المأمونية ومدرسة الشميت. وكانت سعادتهم تزداد وهم يحضّرون مع الأمهات زوّادة الرحلة المدرسية، والتي كانت تعد جزءاً من دروس الجغرافيا والتاريخ. وعرف طلاب وطالبات المدارس على الواقع المعالم التاريخية والدينية لمدينة القدس والقرى القريبة. لفتا، وعين كارم، وبيت حنينا، وسلوان، وبيت صفافا، وبيت جالا، وبيت لحم. كانوا يستمتعون بالرحلة لجبل الطور وجبل المكبر تحت شجر الزيتون والطلاب الذكور يحملون "مطرة الماء" وكيساً فيه خبز وزيتون

٣١ عبد الكريم الكرمي أبو سلمى، ديوان أبي سلمى، بيروت، دار العودة ١٩٨٩.
٣٢ خليل السكاكيني،كذا أنا يا دنيا، القدس، المطبعة التجارية ١٩٥٥.

وزعتر وبيضة وقطعة جبن وبندورة وحبة برتقال، يتقاسمونها مع أصدقائهم وقت الطعام. وكانوا يسيرون وراء الأستاذ يقطعون السهول والجبال والوديان، وهم ينشدون الأناشيد الوطنية ويستمتعون بالاستراحة تحت شجرة زعرور أو كهف في الطريق. وبدت الطرق لهم في تلك الأيام بعيدة، لأنها لم تكن معبدة، ولم يكن فيها بيوت كثيرة كما اليوم، وقد امتلأت بالمستوطنات والجدران العازلة التي قطعت القدس وفرقت جغرافيتها وأبعدتها عن باقي مدن فلسطين، بعد أن كانت السهول والجبال والوديان تنتظر من يبقيها حيّة تكمّل بعضها بعضاً، وتعمّر وتكبر بأهلها. وظلت هذه الرحلات في ذاكرة الطلاب وقد دوّنها جبرا إبراهيم جبرا في "البئر الأولى" [٣٣] وتذكّر طلاب القدس رحلتهم إلى قرية عين كارم مشيا على الأقدام مع أستاذهم يحيى اللبابيدي وقد تعلموا عن الطبيعة والجغرافيا أثناء قضاء وقت سعيد في أرض الوطن. إلا أن رحلات البنات لم تكن مشيا وراء المعلمة كما في رحلات الأولاد، بل كانت الرحلة تتم بالباص، يغنين وينشدن الأناشيد المدرسية ويلوحن بأيديهن من الشبابيك بسعادة للمارة، وهن يستمتعن برحلات ترفيهية.

وظلت في ذاكرتي وذاكرة بنات صفي ومنهن سميرة البرغوتي، ولميا ناصر رحلة مدرسية إلى قرية عين كارم الجميلة ومتعة تناول الطعام تحت الأشجار وشرب الماء من "العين" النبع. وتعلمت البنات عن الأماكن الأثرية والدينية الإسلامية والمسيحية في القدس، وكانت زيارة المسجد الأقصى متعة كبيرة ظلت في الذاكرة، حيث قمن بالصلاة فيه لأول مرة بعد تعلم الصلاة في درس الدين. ولم تتوان البنات الاستنجاد ببعضهن البعض وبنت أخرى ساجدة بقربها وتخفض صوتها "بوشوشة" وهي تسألها :

- إيش بعد "قل أعوذ برب الفلق....؟

ويأتي الجواب مع ابتسامة فيها عتاب على قطعها الصلاة وتجيبها:

من شر ما خلق.....

وتستمر المستنجدة بإتمام الآية الكريمة:

"من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد."

صدق الله العظيم.

كانت بعض البنات عندما تنس إحداهن خطوات الصلاة، التي تعلمنها في درس الدين

---

٣٣ جبرا إبراهيم جبرا «البئر الأولى» فصول من سيرة ذاتية، الطبعة الثانية، ٢٠٠١.



الشاعر إبراهيم طوقان مع زوجته سامية عبدالهادي وابنته عريب وابنه جعفر
الذي سيصبح من ألمع المهندسين في المنطقة العربية وعالمياً

تنظر خلسة لجارتها وهي تؤدي الصلاة بالقيام والقعود ورفع الشاهد ... وتفعل كما تفعل جارتها وتختم وتدير وجهها يمنة ويسرة وتقول:

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وتسأل البنات بعضهن بعضاً عما طلبن في دعائهن من الله وتكون الأقوال متشابهة

– أن يطيل الله عمر أبي وأمي

– أن أنجح في درس الرياضيات .

كان بين الطالبات المسلمات اللواتي تعلّمن الصلاة ودروس الدين في الصفوف، بعض الطالبات المسيحيات وظلت صورة ليلى الترزي" مسيحية " بنت صفي في مدرسة المأمونية حيّة في ذاكرتي وقد أتقنت دروس الدين الإسلامي واللغة العربية وتفوقت على الصف في درس الدين الذي لم يكن إجباريا للطالبات المسيحيات.

سعادة طالبات مدارس القدس كانت أيضاً كبيرة عندما يزرن كنيسة القيامة ويستمعن "للخوري"، يفسر لهن عن "العشاء الأخير"... و"السمكة" التي كانت كافية "لإطعام المسيح وحواريه" ويشير إلى الصورة الجميلة المرفوعة للمسيح وأمه مريم. وتضيء البنات من المسلمات والمسيحيات الشمع الأبيض في الكنيسة ويطلبن تحقيق الأماني. وظلت بذاكرتي الشمعة البيضاء التي أشعلتها. فالشموع كانت متوفرة بكثرة في القدس، حيث تُصنع في دار الأيتام السورية (شنلر) في مأمن الله ومعامل أخرى وتوزع على دكاكين المدينة. وازدادت متعة البنات في زيارة هذه الأماكن، وهن يتسابقن في الأزقة في طريق العودة ليشتري البعض منهن صليباً خشبياً مصنوعاً في بيت لحم من الدكاكين الكثيرة التي تعرضها للسياح أو مسبحة من الصدف تهديها للجد الذي كان يقصّ عليهن القصص الدينية، ويقرأ لهن من الإنجيل. أو لأنه كان يوم الأحد يصطحبهن للصلاة في الكنيسة، ويشتري لهن في طريق العودة الملبس والشوكلاتة والقضامة والبزر. كانت رائحة "فستق العبيد" السخن تحفز المارة لشرائها من الشاب عمر النيجيري المولد وقد أصبح جزءاً من أهل القدس، بعد أن حضر إليها في رحلة حج أبقته في المدينة المقدسة. واختار مكانه في ساحة صغيرة حددها لنفسه، أرضها ملساء من كثرة مشي التاريخ عليها ولتصبح وكأنها جزءٌ من التراث ومسكناً للشاب الذي كبر فيه. وقد تركها بعد النكبة ليعرفه أهل عمان في قاع المدينة "بأبو أحمد" * ويستذكرون معه رائحة القدس

* توفي أبو أحمد في عمان وقد اهتمت به الصحافة الأردنية (الرأي والغد) وهذا الكتاب تحت التأليف ونشرت قصته وصورته بتاريخ ٢٠١٠/١/٧ واعتبرته من ذاكرة المدينة.

المجبولة بعبق التاريخ. وهم يتذوقون "فستق العبيد" ذي الرائحة المغرية .

وظل صدى صوت الباعة في أسواق القدس القديمة في ذاكرة بنات القدس وهن صغيرات أو صبايا، أو جدات:

كعييك.........كعييك،

وبائع الخيار والبندورة.........

أصابع الببو يا خيار..... أمه بتحبه يا خيار

وتسمع القرويات اللواتي يبعن التين والعنب وهن يتنافسن على الزبائن.

عسل يا تين.... ندى يا تين.... يا عنب الحلواني ما أزكاك ع أسناني.

وكانت بنات المدارس يقفن لشراء الدندرمة * من البائع الذي ينادي بأعلى صوته:

دندرمة يا دندرمة   شكاريش يا دندرمة

وكانت القرويات يحملن السلال المليئة " باللوز الأخضر" والجرنك، والتوت، والخوخ، ويجلسن وراء أسوار مدرسة المأمونية والشميت، حيث كانت الطالبات يتهافتن عليها، وكان موسم "الحمص الأخضر" أو الحاملة المشوية لبائعها موسم خير، وللبنات أجمل موسم وهن يتسابقن تلبية لندائه وهو ينادي:

حاملة يا ملان... مشوية يا حاملة.

ومن أسماء البائعات الريفيات التي ظلت في ذاكرتي الطفولية كما في ذاكرة سور مدرسة المأمونية:عزيّة، وريّا، وشكرية وفاطمة، ونعمة. وكن يأتين من القرى المجاورة مبكرات ليثبتن أن المرأة القروية كانت تساهم في زيادة دخل عائلتها. ساعدها ذلك كونها سافرة وأكثر حرية في العمل من المرأة "المدنيّة"، التي لم تقم بمثل هذا العمل المرتبط بالريف والزراعة.

في انتظار فاطمة البديري والآنسة سعاد

واهتم أهل فلسطين بالبرامج الإذاعية الوطنية في الثلاثينيات والأربعينيات التي قدّمها نخبة من المثقفين الوطنيين منهم:– أبو سلمى، وإبراهيم طوقان، وعصام حمّاد. وكانت مثل هذه

* الدرندرمة وتصنع من الحليب والسحلب، مع إضافة اللوز أو الفستق، وفي حر الصيف، تصنع من الحليب ويضاف إليها قطع من الثلج.

البرامج تقلق السلطة لتأثيرها الوطني على المستمعين. واستقطبت الإذاعة في الأربعينيات الشباب المتخرج من الجامعة الأمريكية، ومن بينهم المهندس عارف النجار وحازم نسيبة. وبرزت فاطمة موسى البديري في أواخر الأربعينيات كمذيعة للأخبار السياسية لتكون الرائدة بين النساء، في هذا العمل ولتعمل مع الرجال في عمل غير تقليدي إلى جانب عصام حمّاد الذي سيصبح زوجها وليعملا معاً في هذه المهنة بعد النكبة في دمشق، حيث أسس إذاعة الشام ثم في ألمانيا. وقد ظل اسمها مرتبطاً بصدى صوتها وهي تقول: "هنا القدس" في مدينتها التي حملتها في قلبها في الشتات والغربة. وكانت فاطمة البديري قد اشتركت أيضا في برنامج المرأة والبرامج الأدبية وبرنامج الأطفال.

أما الأطفال فكانوا يرجعون للبيت الساعة الخامسة بعد الظهر ويتركون اللعب في الشارع أو الزقاق أو الحوش أو الحارة، ليستمعوا البرامج الأطفال من الإذاعة. وعرفت في مراحل مختلفة بنات القدس اللواتي قدمن برامج الأطفال. وسمعوا السلوى الخماش وهي تقص القصص. كما سمعوا لنزهة الخالدي وسميحة سمارة، التي أحبها الأطفال وهي تروي قصة "عنزة المزارع يوسف" التي ترجمتها عن اللغة الألمانية التي تتقنها كون والدتها ألمانية. كما سمعوا لهنرييت سكسك، التي ظلت قصصها في ذاكرة الأطفال والكبار وكانوا ينتظرون برامجها بشوق. وقد اتخذت اسما مستعارا " الآنسة سعاد". اختاره لها إبراهيم طوقان مدير القسم العربي. وأحب الأطفال قصصها التي كانت تؤلفها خصيصا لبرنامجها الذي كانت تقدّمه مرة في الأسبوع، وكانت الأشهر بين مذيعات الأطفال. وظلّت تحمل الاسم لأكثر من عشرين عاما قبل وبعد النكبة في إذاعة الشرق الأوسط وإذاعة لبنان. كانت هنرييت "الآنسة سعاد" تقدم برامج الأطفال في كل يوم سبت وإذاعات تربوية للأحداث كل يوم أربعاء، كما شاركت في محطة الشرق الأدنى ببرامج تربوية باسمها الحقيقي، وكتبت قصة "الأصايل الخمسة" بالإنجليزية، ترجمت للعربية.

وغنّى الأطفال معها أناشيد من تأليفها منها [٣٤]:

رددي رددي يا سهول ... واهتفي واهتفي يا هضاب

مجدنا مجدنا لن يزول ... إذ يعود الشباب الشباب

وغنّوا معها من تأليفها أيضا:

هيا نسر سير الأسود ... أوطانا نادت بنا

فلنحترم إرث الجدود ... فجدنا شعارنا

٣٤ أوراق خاصة لهنرييت سكسك بالإضافة لمقابلة لها بالهاتف ٢٠/٧/٢٠١٠.

بالعلم تزداد البلاد مجداً وزهواً فازدهار
والعلم أحجار تشاد منها صروح الانتصار

ومن مذيعات فلسطين في تلك المرحلة، سلوى السعيد، ووديعة شطارة وعزيزة الحشيمي الصالح. اللواتي قدمن النساء برنامج المرأة في الإذاعة وكانت تشرف عليه مفيدة الدباغ. وسمع أهل القدس وفلسطين أصوات الأديبات والمبدعات الفلسطينيات، من الصحفيات ماري شحادة، وساذج نصار، وأسمى طوبى، وسميرة عزام، ونجوى قعوار، والشاعرة فدوى طوقان، وسميرة أبو غزالة.

استمرت الرائدات بالعمل الإذاعي وعملن في الشتات مع عجاج نويهض، وإبراهيم طوقان، وعزمي النشاشيبي، وراجي صهيون، وعقيل هاشم، وغانم الدجاني، وعصام حمّاد، ومن بينهن سلوى خماش، وفاطمة البديري، وناهدة فضلي، وعائشة التيجاني، لتصبح هذه المهنة، في العقود اللاحقة منتشرة وبشكل ملحوظ في البلدان العربية، وتساهم فيها المرأة الفلسطينية بشكل واسع.



هنريت سكسك (الانسة سعاد) تقدم برنامج الأطفال



د. حازم نسيبة عمل
في الاذاعة



الطالبة هند خماش نجمة
برنامج حديث الأطفال
أصبحت مذيعة في BBC
بعد النكبة



فريق من المذيعين يقدمون تمثيلية على الهوا من الاذاعة الفلسطينية ١٩٤٠



المذيعة فاطمة البديري مع زوجها المذيع عصام حماد ١٩٤٧



الفصل (السابع)

أفراح وأحزان في المديـنة



٧

كانت المقامات والمقابر الكثيرة والفقراء الذين يتواجدون حولها في المدينة وأكنافها تبعث على الكآبة والحزن للكثيرين. وحتى تلك الأدعية والصلوات التي تنبعث من المساجد والكنائس التي تأخذ المارين إلى عوالم أخرى، تذكر بالموت. إلا أن المناسبات الدينية المتكررة كل سنة، قد جعلت المراسم التي تصاحبها موروثاً يُفرح الناس ويضفي على المكان سعادة جمعية، بدل الحزن والسوداوية. ساهم في فرح الناس، من يأتي إلى القدس في مواسم الحج والأعياد الكثيرة التي كانت زينة للمدينة.

حلاوة النبي موسى

ارتبط مقام النبي موسى (عليه السلام)، والاحتفالات والمراسم التي تصاحبه، بالسعادة والفرح، إذ كان المسلمون الفلسطينيون يتوافدون إلى القدس من جميع قرى ومدن فلسطين لإقامة احتفالات دينية وشعبية، في هذا الموسم. وفي هذه المناسبة السنوية كانت الوفود تتجمع في ساحات المسجد الأقصى ومحيط القدس بكاملها لترمز إلى استعدادها للدفاع عن القدس أذا ما طمع المستعمر باحتلالها. وكانت هذه المناسبة بشكل خاص تعزز الدور الديني السياسي ولمنزلة الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين وعلمه يتقدم البيارق، والناس تهتف:

حاج أمين يا منصـــــور — وبسيفـــك هديت الســـــور
فليسقط وعد بلفـــــور — فليسقــط وعــد بلفـــور
حاج أمين لا تحمل هـــــم — واحنــا شرابيــن الـــــدم
سيف الدين الحج أميـــــن — حامــي الوطـن حامـي الديــن

أجمل الصور تجلت وبقيت في ذاكرة أهل القدس وفلسطين عندما كانت الحشود تتسابق تحت "بيارق" تحمل شعارات لتميّز المجموعات بعضها عن بعض، ممثلين أهل القدس، والقرى التي تتوافد من لفتا وسلوان وعين كارم وشعفاط والعيزرية وغيرها. وكانوا يسعدون في هذه المناسبة بالرقص والدبكة وإنشاد الأناشيد الدينية والوطنية تتقدمها فرقة الكشافة التي تعزف

على المزمار والربابة والطبول. أما أهل الخليل ونابلس فكانوا ينضمون للاحتفالات المنطلقة من القدس لموقع النبي موسى بين القدس وأريحا. وبالرغم من أن احتفالات النبي موسى تعود إلى زمن صلاح الدين الأيوبي، فإن هذه الاحتفالات السنوية نشطت منذ عام ١٩٢٠ التي عرفت بثورة العشرين في القدس، فقد أصبحت المناسبة دينية وطنية للتحريض ضد الانتداب البريطاني ودعمه للصهيونية. وحرص الساسة والزعماء والمسؤولون على الاشتراك باحتفالات النبي موسى، بينهم المتصرف والقاضي الشرعي، وموظفو الحكومة الكبار والأعيان ورجال الدين يتقدمهم علم مفتي القدس. وكان التوجه للمكان سيراً للبعض أو بواسطة العربات أو ركوب الخيل، ولمدة تزيد على خمس ساعات. ترافقهم فرق الموسيقى نغمات موسيقاها عالية لتسمعها الحشود الكبيرة، بالإضافة إلى ذلك كان يرافق الحشود من يحافظ على الأمن والنظام وتحت إشراف الحكومة.

مناسبة احتفالات النبي موسى كانت الأسعد لنساء وأطفال القدس وقراها، حيث تبدأ التحضيرات لهذه النزهة السنوية، من حمل الأطعمة في سلال من القش بينها "أقراص اللحمة بالعجين" وأقراص الزيت بالزعتر والجبن، بالإضافة لشراء الحلويات التي كانت مشهورة في هذا الموسم، ومنها حلاوة المولد الحلاوة البيضاء "القاسية" "أو المشبك" بألوانه الزاهية المصبوغة بالأحمر واللون الفاقع المطعم بلون فرح خاص، وكذلك العوّامة، التي أحبّها الأطفال لأنها كروية الشكل حلوة المذاق، سهلة البلع وكأنهم يلعبون وهم يأكلون.وكان الأقارب من خارج المدينة العتيقة يزورون الأهل القريبين من المسجد الأقصى، والنساء تتسابق لاعتلاء أسطح المنازل المطلة على مكان الاحتفالات أو أي مكان يمكن الوقوف أو الجلوس فيه مع الأطفال، للتمتع بهذه المناسبة، لأنها كانت مناسبة فرح ونزهة فضلاً عن أنها دينية وطنية. كما أن النساء كانت تغتنم هذا الموسم لتنظيف الأسطح من الأدوات غير المرغوبة أو نقل قلائد البامية الناشفة، والباذنجان الصغير، والبندورة، والحمص والملوخية وغيرها من مؤونة السنة التي كانت تنشّف عليه تنقل إلى مخزن المطبخ خوفا عليها من الزحام على السطح. وكانت المؤونة تحتوي أيضاً على المفتول،والبرغل، والشعيرية.

أعياد الناس

مناسبة الاحتفالات الدينية بالأعياد للمسلمين والمسيحيين كانت كثيرة، خلال السنة. اهتم بها المقادسة من مسلمين ومسيحيين. وقد احتفوا بطقوسها وتمتعوا بشراء الألبسة الجديدة، وصنع الأطباق الخاصة، وعملوا الكعك والمعمول. وصبغ المسيحيون البيض بالألوان الجميلة في عيد الفصح المجيد وزيّنوا الأشجار في عيد الميلاد واحتفلوا برأس السنة، وصلوا في كنيسة القيامة في عيد الشعانين، وتواصلوا مع الجيران المسلمين، وتبادلوا الهدايا معهم. وقد أحببت



عبدالسلام البرغوثي مع زوجته فخرية كتخدا وأبنائه. سميرة وسامة وسعاد وسهى وسمير ١٩٤٠ بملابس العيد الجديدة



زينب وسعاد وأسمى ونفيسة وصلاح بنات الحاج أمين الحسيني بملابس العيد

عيد الميلاد وأنا صغيرة، حيث كنا نحتفل به مع جيراننا المسيحيين ويضعون لنا الهدايا تحت شجرة عيد الميلاد المزينة بالاضواء، ويقولون لنا أنها من "سانت كلوز". ولا أنسى أيضا عيد الفصح الذي كنا نبحث فيه على البيض الملون في البستان مع أولادهم وبناتهم.

ووصف جوهرية ليلة عيد الميلاد الذي احتفل بها مع العائلة لابنه سريّ الذي يدرس في أمريكا في رسالة مؤرخة ١٧يناير ١٩٣٦:" كانت ليلة أمس ليلة جميلة جداً، ركزنا شجرة عيد الميلاد في الصالون ووضعنا تحتها الهدايا، ثم أضأنا لشموع وأخذت دمية وهاله، الأولى تعزف على البيانو والثانية تشاركها في الترتيل، ترتلان ترنيمات باللغة الألمانية... ثم وزعنا الهدايا على الجميع... ثم لبسنا التيجان من الورق الملوّن، وجلسنا حول مائدة الطعام نأكل ونشرب ونضحك ونغني إلى ساعة متأخرة من الليل...".وكانت هذه الصورة الجميلة لاحتفال الأهل والأصدقاء مكررة في بيوت أهل القدس والمدن الأخرى من المسحيين.

كان كعك العيد، ظاهرة مشتركة في أعياد المسلمين والمسيحيين تهتم النساء بعملها في جو عائلي دافئ تشترك فيه البنات لنقش الكعك أو حشوه بالجوز أو التمر. ولتصبح جزءاً من الذاكرة والتراث.واحتفل المسلمون في أعيادهم التي كانت مناسبة لجمع ذوي القربى في أعياد ينتظرونها. وذبحوا الخراف في عيد الأضحى، وبعد شهر من الصيام احتفلوا بعيد الفطر وزينوا مداخل بيوتهم احتفالاً بعودة الحجاج من مكة المكرمة. واحتفلوا بالمولد النبوي الشريف. وأقاموا الموالد قرأوا فيها الآيات القرآنية بموشحات "أندلسية". واحتفلوا برأس السنة الهجرية التي كانت مناسبة دينية اجتماعية سعيدة، وقد حرصت الأمهات في ذلك اليوم على طبخ أطباق لونها "أخضر" مثل الفول، أو الأبيض من الأطباق المطبوخة "باللبن أو الحليب"، وذلك كرمز للتفاؤل وبشرى لأيام خير وسعادة. وأتذكر أكلات أمي التي كانت تطبخها في هذه المناسبة، ومنها السبانخ، والسلق، وورق الدوالي ذات اللون الأخضر، و"الهيطلية" أو المهلبية.

أهلاً برمضان والعيد

كان لرمضان خصوصية لدى المسلمين في المدينة تبدأ مظاهره بين الناس منذ رؤية هلال شهر رمضان من مساء التاسع والعشرين أو الثلاثين من شعبان من كل عام، يتم بشهادة اثنين ممن شاهدوه لدى المحكمة الشرعية في القدس.وفي هذا الشهر يصبح للمرأة أهمية خاصة للحاجة الماسة لخدماتها التقليدية في المطبخ وإعداد الأطباق الخاصة في هذا الشهر الذي يصومه الناس، طوال النهار ويفطرون مساء. كانت النساء تتحمل في هذا الشهر مسؤوليات إضافية تزيد عملهن اليومي من صنع العوّامة، والقطايف، والنقوع وإدارة توزيع المكسرات والفواكه الجافة التي اختزنها ونشفها فوق السطوح لسهرات رمضان التي تستمر عادة حتى موعد السحور الذي كان يجمع الأهل والأصدقاء.

بالإضافة لذلك، كان شهر رمضان يساهم في تعزيز منزلة ودور "الجدة" في العائلة، حيث يلتف حولها الأطفال لسماع قصص أيام زمان والحكايات. وكان هذا ذا أهمية خاصة في غياب وسائل التسلية الحديثة من راديو وتلفزيون وكهرباء في أكثر الدور. وكان للجدة تأثيرها القوي على الأطفال للصلاة وممارسة طقوس رمضان وهم يرددون وراءها ما تعلموه من التراث الموروث الذي يربطهم بمشاعر خاصة عميقة ظلت جزءا من ذاكرتهم. كان الأطفال يعدون الجدة بأن يحافظوا على النظام والهدوء في رمضان، مقابل مكافأة أيقاظهم لتناول السحور مع الكبار. بالإضافة للسهر لفترة أطول من الأيام المعتادة، للتمتع بتناول المشروبات والمكسرات الخاصة في شهر رمضان. وكانوا يشعرون كل يوم بسعادة متجددة وهم ينتظرون مدفع رمضان في ميعاد الأفطار، وهم يصيحون ضرب المدفع ..... ضرب المدفع، ويسرعون للالتفاف حول مائدة رمضان التي كانت عادة تعج بالمقبلات والسلطات وأنواع المأكولات الشهية، والحلويات التي كان الأطفال يحبونها. وبخبث وشقاوة طفولية كان الأطفال يعايرون بعضهم البعض إذا ما اكتشفوا أحدهم مفطرا ويقولون:

يا مُفطر رمضان يا مقلل دينُـــه بستنا السُودا تاكل مصارينًـــه

ويزداد فرح الأطفال في هذا الشهر، وهم يمارسون تقاليد فيها مرح خاص، وهم يسيرون وراء أحدهم يرددون وراءه:

لولا أهل الدار ما جينا يا حالية لا تعبنا ولا شقينـا يا حاليـة
ولو تودونا على الشـام يا حالية قطفنا الخوخ والرمان يا حاليـة

تفوقت حارة باب حطة على الحارات الأخرى في القدس العتيقة بنشاط الأطفال في رمضان وعبّروا عن ذلك وهم يحملون الفوانيس «المضويّة بالكاز»، ويطوفون الشوارع حاملين أكياساً من خياطة الأمهات لوضع ما يتلقون من الجيران من ملّس الحامض وحلو وهم يرددون:

وحوي يا وحـوي ايّاحــــا كل يوم بالمنديلة ايّاحــــا
رب ارزقهـــم ايّاحــــا ما تفشلهـــم ايّاحــــا
ما أكرمهـــم ايّاحــــا وحوي يا وحـوي ايّاحــــا

أما مقاهي القدس فتصبح لها خصوصية في رمضان، إذ تزدهي بالأنوار والأغاني الرمضانية، والموشحات، وأصوات «نحاسات» بياع السوس والتمر هندي والخروب والقمر الدين،

وهم يبيعونها للمتسامرين حتى منتصف الليل. ويقضون الوقت بتدخين «الأرجيلة» المعمرة بالتنباك ذي الرائحة القوية، بالإضافة للعب الورق «الشدة» وطاولة الزهر التي تتنافس حجارتها بالصوت وضحكات اللاعبين. كما هرج ومرج المتنافسون بلعب الشطرنج والدومينو يأكلون الكلاج والمطبّق على حساب الخاسر. وعند قرب موعد السحور يحمل الرجال معهم للبيت الفول والحمص والحلاوة، ليتسحروا مع فنجان «شاي غامق»، يخزنون مفعوله لليوم التالي. وقبل أن يبدأ اليوم وينتهي ليوقظهم المسحراتي صديق الحارة في حارة الشرف، وباب حطة، والمصرارة، والبقعة الفوقا، والثوري،كما في جميع الحارات والأزقة. وهم يرددون:

قوموا تسحروا يا نايمين كل سنة وانتوا صايمين

يا نايم وحد الدايم لا اله إلا الله

فيقوا لسحوركم خلي النبي يزوركم

ولم يأت نشاط وإخلاص المسحراتي من فراغ إذ كان يحرص على مناداة، أبو محمد، وأبو مصطفى، وأبو فؤاد وبقية من يسكن الحارة بالاسم ،ومن أجل «عيدية» محترمة له يوم العيد أوبعد أن يضع المسحراتي طبلته الصغيرة، وعود الخيزران رفيقاه في شهر رمضان للراحة للسنة القادمة.

أسواق القدس تصبح أكثر حيوية، وهي تعج بالناس في الأسبوع الأخير من رمضان، حيث يتدفق خليط من أهل القدس، والبلدات والقرى المجاورة لقلب المدينة. وتشهد محلات الأحذية والملابس الجاهزة، والأقمشة حركة اقتصاد نشطه في السوق. وما زال أهل القدس وقراها يتذكرون قصصاً عن ملابس العيد التي كانت أهم المظاهر المحببة للكبير والصغير، كما بقية مدن وبلدات فلسطين.وظل أحمد النمري، وعارف زلاطيمو، وسمير ناصر، وإبراهيم عثمان، وأحمد النجار، يتذكرون «البناطيل» والجاكيتات التي فصّلوها مثل الكبار خصيصا ليوم العيد، عند الخياطين في القدس. وظلت في ذاكرة الرجال، حلاق الحارة الذي كان يبدو سعيدا قبل العيد وهو يحلق للأولاد والرجال «حلاقة العيد»، ويتبادل النكات والحوادث والأخبار مع الزبائن. وكثيرا ما تبادلوا «القيل والقال» وإن كان ذلك في أيام حرم.

ولم تغب عن بال د. عارف زلاطيمو احتفالات العيد وصوت بائع المخلل «شطارة» الذي كان ينصب خيمة طويلة، مقابل مستشفى الهوسبيس أيام العيد، يحولها كمطعم في الهواء الطلق يجلس الناس متقابلين على طاولات طويلة وينادي:

– اللي ما معوا بنداينو للعيد الجاي....

حموضة.... حموضة...

مخلل الزهرة واللفت التي تباع بقرش في صحون صغيرة كانت تستقطب الناس، وخاصة النساء الحوامل والبائع ينادي بنغمة خليلية أو مقدسية:

- اللي ما معو بنداينو للعيد الجاي....

ويتراكض "العتالة" وأكثرهم من أهل الخليل في باب حطة والحارات الأخرى ليحملوا ما يشتريه المتسوقون في سلال من قش يحملون على ظهورهم بحبل ويتسابقون لخدمة المشترين لإيصالهم لموقف الباص في باب الخليل.وكان سوق اللحامين مكانا يتسابق الناس عليه لشراء اللحوم. ويتذكر أهل القدس الملحمة الجديدة في باب الخليل التي كانت تبيع لحوم الخروف والعجل والبقر، وملحمة خالد الناظر في سويقة علوان. وكانت ملحمة محمد حسن بدر في الخليل ترفد القدس بكافة أنواع اللحوم بالجملة والمفرق. وملحمة عكة التي كانت تبيع لحم جمل وبقر، وسقط من كرشات ومعاليق لها زبائنها. ينافسه في البيع اللحام أبو محمد تحت سور الحرم ورائحة المشاوي تنتشر في كل مكان، وتجذب الفقراء قبل الأغنياء، وكان الكثير من الفقراء والمعدمين يتوزعون في الأزقة والأسواق حيث يتصدق عليهم الناس، خاصة ورائحة اللحم تستفزهم والبائع ينادي:

-شوينا وقلينا وعلى النبي صلينا

وفي رمضان يتكاثر الفقراء "الشحادون" الذين يمدون أيديهم ويطلبون الصدقة... وهم يرددون أدعية لاستدرار العطف. كان العوز منتشرا بين الناس الفقراء، وكانت الفجوة الطبقية بين الغنيّ والفقير واضحة للشرائح الاجتماعية التي تتفاوت مظاهر ملابسها وصحتهاونوع عملها. وقد عاني أهل القدس وفلسطين في مدنها وقراها من الأزمات الاقتصادية المتتالية تحت الانتداب وقبله في عام ١٩١٦ الذي سُمّي بعام الجراد، حيث هجم على البلد وقضى على الأخضر واليابس. ولحق أكثر الضرر بالفلاحين الذي انتزعت أراضيهم بسبب الضرائب العالية التي فرضت عليهم ليصبح الكثيرون يعملون في أرضهم لصالح الإقطاعيين الذين اشتروا الأراضي بأسعار بخسة. وعانى أهل فلسطين من الفقر بين ١٩٢٥ و١٩٢٩ فصورة العيد كانت جميلة لمن كان يتمتع بالعادات والتقاليد والتراث وليس للمحرومين، وقد تكون هذه المناسبة بهذا المعنى المتناقض أيضا تبعث على السعادة للفقراء وهم يتلقون الطعام والقروش الإضافية من المتصدقين في هذه الأيام الكريمة.

كان للعيد بهجة تضيف سعادة خاصة لدى الأولاد والبنات والنساء اللواتي يجدن فيه كسراً للروتين اليومي، وللحلم بالفساتين الجديدة والعيدية.وسجّلت ساحة باب الأسباط في القدس القديمة صورة البنات الصغيرات من أنحاء المدينة بملابسهن الجديدة مع الأخوة "يتمرجحون" على المراجيح التي نصبت خصيصا للمناسبة. ولم يحرم عبدالله زلاطيمو بناته

هيفاء وعفاف وشادية وفادية من متعة فرحة العيد في طفولتهن وهن "يتمرجحن" ويطرن للأعالي مع ضحكات ممزوجة بالخوف من الوقوع. وبقيت هند ولميا، وسلوى ناصر يتذكرن مراجيح العيد مثلنا نحن بنات "الخال"، حيث كنا نترافق للمراجيح في ساحة الحرم وكنا نأتي إليها من (روميما) حيث نسكن بالقرب من شارع يافا. وكانت عريفة النجار ورفقة أخواتي الكبيرات يصطحبن الصغيرات ناهدة وعايدة، وسميرة ونوال ونائلة لشراء ملابس العيد من محلات عزمي طه، ومحل فايز المهتدي في شارع يافا، ولشراء الأحذية الجديدة من محلات باتا. ولا أنسى كيف كنت أضع فستاني الجديد والحذاء بالقرب من سريري ليكون أول ما تقع عليه عيني يوم العيد، وظلت رائحة الجلد تذكرني بحذاء العيد في الطفولة.

كان للأيام السعيدة طعم له خصوصية ومشاعر اختزنت في القلوب في الشتات والهجرة الطويلة. وظلت صورة الماضي في الذاكرة والأطفال يستعدون "ليوم الوقفة" لاستقبال العيد وهم يغنون:

بكره العيد بنعيد	وبنذبح بقرة السيد
والسيد ما له بقرة	بنذبح بنته هالشقرة
والشقرة ما فيها دم	بنذبح بقرة بنت العم

لم تمح صورة العيد في الطفولة من ذاكرتي الحالية حيث كنا نحن الأطفال يوم العيد نصطف وراء بعض لتقبيل يد الجد إسماعيل النجار لتلقي "العيدية" "شلن". ولم يكن أسعد منا ونحن نزور مع الأهل بيوت الأعمام والأخوال لنزيد رصيدنا من تحويشة العيد. وقد حرصنا على تحويش النقود في الحصالة "قجة" وهي إناء صغير يصنع من الفخار مغلقة من جميع الجهات، فيما عدا فتحة لإنزال "المصاري" فيها. ولتصبح بنكا لا يفتح إلا عند كسر الفخارة، لتفريغ التحويشة.

كان العيد مناسبة فرح للكبير والصغير، الأهل والجيران يتزاورون في هذه الأيام، ويتبادلون الهدايا والكعك والمعمول، ويسعد الأطفال "بالعيدية" وبلبس الملابس الجديدة. وتسمع أهل القدس يتبادلون المباركة بالأعياد الإسلامية والمسيحية، أينما ذهبت ويقولون:

- كل سنة وأنت طيب
- كل سنة وأنت سالم
- عيد سعيد..... نهارك سعيد
- عيد مبارك

- صباح الفل والياسمين

وعرف أهل القدس عن أعياد اليهود وعاداتهم.[٣٥] (رقم) وخاصة من كان يسكن في الجوار مثل حيّ مياشيرم اليهودي وروميما والقدس داخل سور (حارة الشرف). كان يوم السبت عطلة اليهود الرسمية حيث كانت احدى الفرائض الدينية التي فرضتها التوراة. كان (الشابات) يمتد لاكثر من ٤٨ ساعة، يبدأ الاحتفال من بعد ظهر يوم الجمعة حوالي الرابعة، وينتهي بعد ظهر السبت حوالي الخامسة مساء. وكان يحتفل به اليهود من فئة التلموديين "المتعصبين" ويتميزون بلباسهم الاسود وتربية الشعر "السوالف"، ولبس البرنيطة والإشارب للمرأة. الاحتفال التقليدي كان باضاءة شمعتين في كل بيت، ولتكون مضيئة كل الليل، للتمكن من أكل الطعام الذي أعدته النساء مسبقا. وفي أثناء تلك الساعات تحرم التجول والتنقل في المدينة ويكون شارع مياشيرم خاليا من السيارات والحركة لأنه محظور عليهم ركوب السيارات والعربات، والعمل، وفتح الدكاكين، واستعمال النقود. وكان اليهود يطلبون منا ونحن بقطع الشارع صباحا للمدرسة إطفاء المصباح أو الشمعة، ومقابل ذلك كانوا يضعون بالقرب منه الملبس لأخذها كشكر لنا .

وكنا نحب يوم السبت، وكأن الشارع يصبح لنا وحدنا، نركض وراء "الطابة" مع هرج ومرج لنعجّل المشوار وهم منعزلون داخل البيوت. ومن أعياد اليهود، يوم الغفران وعيد العرش وعيد الأنوار وعيد المساخر وعيد الفصح، وكانوا يحملون سعف النخيل ويصلون بصوت عال. و أتذكر من هذه الأعياد عيد المساخر، حيث كانوا يلبسون فيه ملابس ملونه تنكريه، ويسمونه (كرنفال بوريم). وأكثر ما أتذكر عن أعياد اليهود هو مشاهدة جيراننا (يونا) وابنتها الصغيرة (ميريام) بنت الثلاث سنين التي كانت تنادي والدي" أدون علي " أي عمي علي، هو عيد الفصح وفيه يعدون ويأكلون خبز الفطير في هذا الموسم الذي يعتبرونه موسم الحج. وكنا نحب الخبز الذي يعجن من غير خميرة ولا ملح، كانوا يقدمون لنا علبة كاملة من هذا الخبز ومقابله ونعطيهم الزيتون الأخضر المكبوس الذي أحبوه خاصة والزيتون من تراثنا الثقافي من زرع ومأكل. وهم اليوم يتنكرون لتلك الحقيقة ويقومون بقلعه وحرمان الفلسطينيين منه لسرقة الأرض وبناء المستوطنات عليها.

حزن في الطريق

وفي القدس أيضا أماكن ومناسبات كانت تُبدد الأفراح وتثير مشاعر الحزن خاصة عند المرور من أمام المقابر. وتختلف المقابر التي دُفن فيها أهل القدس عن المزارات والترب التي تعود إلى عصور موغلة في القدم. واشتهرت مقابر في القدس متقاربة منها مقبرة ماميلا خارج السور أكبر المقابر الإسلامية التاريخية، وهي قريبة من باب الخليل، يمر من قربها كل من دخل

٣٥ غازي السعدي، الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، دار الجليل ١٩٨٦.ص ٦٤-٦٦

القدس من باب الخليل أو خرج منه، وقد دفن فيها بعض الصحابة، وكما في مقبرة الرحمة التي تقع عند باب الرحمة. كما اشتهرت مقبرة باب الساهرة خارج السور ومقبرة سلوان. وفي هذه المقابر دفن أهل القدس وأكنافها أحباءهم، وفيها قبور لعائلات منهم: نسيبة، الدقاق، الدجاني، الحسيني، النجار، حمودة، ناصر، ستيتية، الكرد، القطب، أبو السعود، الهدمي، العسلي، الجاعوني، العلمي، الإمام، المهتدي، رصاص، معتوق، البشيتي، عبد اللطيف، حب رمان، الخطيب، النمري، غوشة، الطرشة، عبدو، بركات، درويش، الفتياني، أهرام، قليبو، عويضة، زعترة، كالوتي، خروفة، مراد، وهبة.قامت ريما النجار من مواليد بعد النكبة خارج فلسطين بزيارة المقبرة بتاريخ (١٠-١٠ – ٢٠٠٥) للتعرف على قبر والدتها سلوى الماضي وجدهاعلي النجار وشقيقته عيشة النجار والخالة عيوش حمودة والأقارب، ولترصد قبور بعض العائلات المقدسية المجاورة. وقد تركت هذه التجربة لديها شعورا بالحزن العميق على هذا "الشقاء في الحياة والموت الحياة والموت" كما عبرت عن ذلك.

كانت مقبرة باب الساهرة، القريبة من المدينة العتيقة والجديدة، مكانا يبعث الحزن في نفوس من سكن في منطقة المصرارة، سعد وسعيد، الشيخ جراح، ووادي الجوز، القريبة منها. ولقربها من موقع مدرسة المأمونية والرشيدية والشميت وسان جورج والسلزيان، وترسنطه والكلية العربية. كما كانت في كثير من الأحيان تبعث الخوف في نفوس الطلبة الصغار والكبار الذين يشاهدون الجنازات المتوجهة للمقبرة. البعض كان يظلٍ حزينا ويعتريه الخوف من الموت طوال اليوم. يزيد ذلك إذا ما شاهد أحدهم النعش محمولاً، والمشيعون يلتزمون بالعادات الجنائزية الكئيبة، للمسلمين والمسيحيين. وكانت مقابر المسيحيين تتوزع بين القدس وبيت لحم وبيت جالا ورام الله .

ولم أنس الشعور بالحزن والخوف من الموت وقد مرّت "جنازة" من قرب مدرسة المأمونية التي كنت أدرس فيها ليلازمني الاكتئاب ويجعلني أنام في سرير أمي ليلا وأنا أحتضنها لأكثر من أسبوع *. كان للموت تقاليده التي لا تنتهي بدفن الفقيد وخاصة بين النساء، إذ كن يلبسن السواد "لون الحداد" لمدة سنة أو أكثر ويمتنعن عن التزين والفرح أو القيام بالزيارات وحضور الأفراح أو الاحتفال بالأعياد، بالإضافة للامتناع عن سماع الأغاني من الراديو، أو الذهاب لدور السينما أو إقامة يوم الاستقبال. كما كانت تؤجل مواعيد الاحتفال بالأعراس لبعد "الأربعين" أو لمدة سنة، لمن كان يستعد للفرح. وكان الحداد على الميت يؤخذ بجدية تعبّر عن مشاعر الحزن الشديد على الفقيد العزيز في المدينة والقرية على حد سواء.

إلا أن نساء القرى كن يتميزن بحرية أكبر للتعبير عن الحزن من نساء المدينة. وظلت صورة بعضهن في ذاكرة "القرية" وهن "يمزقن" الثوب مع ذكر محاسن الفقيد بصوت عال وبأسلوب

* كانت هذه التجربة المخيفة عميقة في مشاعري لم أنسها، وما زلت لا أستطيع مشاهدة الأموات.

يؤثر على الحضور من النساء اللواتي يشاركن بالبكاء والنواح وبترديد القصائد الشعبية التي أجادتها الكثيرات. وظل صوت "شكرية" من قرية لفتا وأسلوبها البكائي المميز في ذاكرة من "أبكتهم". ولم تكن مهنتها "ندابة" كما في مصر، بل لأن لها شخصية قوية وقدرة على تأليف القصائد البكائية الشعبية.

ولأن ثوب القروية يتميز بتطريزه بالألوان الحمراء والألوان الفرحة في أكثرها، كانت بعض النساء يخفين "التطريز الأحمر" بقطعة قماش أسود يخيّطنها فوق صدر "الثوب" الأبرز في رموزه للفرح والسعادة. وعادة ما يقمن بإزالتها بعد "الأربعين" مدة انتهاء فترة الحداد، المتعارف عليها في المجتمع. إلا أن الزوجة والأم تظلان تعبران عن حزنهما بعدم خلع ملابس الحزن قبل مرور سنة من فراق العزيز. بعد ذلك يسمح للأهل أو الأقرباء أو الحارة من إقامة أفراحهم والتواصل في التعبير عن مناسبات الفرح والسعادة في الأعراس أو الأعياد أو الطهور، أو ولادة ولد أو الأعياد أو عقد البيوت الجديدة، حيث تعبّر النساء عن ذلك أيضا بالزغاريد والشكر. وفي مثل هذه المناسبات الحزينة أو السعيدة كان أهل الجوار والحارة يشاركون بعضهم بعضا بتقديم الطعام والقيام "بالواجب"، تعبيرا عن المشاعر الحميمية بين الناس من الأصدقاء والأهل والجيران.

بالإضافة إلى المقابر العادية، هناك الكثير من المواقع الدينية الإسلامية التاريخية والمعروفة بالترب، والخرب، منتشرة في المدن والقرى، وهي مبان مكونة من غرف متعددة، ومن أشهرها "تربة النبي داود"، وفيها مقام النبي داود، التربة الأدهمية والتربة الطشقرية، والتربة اليوسفية، وتربة الشيخ أبو قصبة، والتربة الفخرية. ويوجد في بعض هذه الترب سبيل ماء ليشرب منه من يمر مترحّما على من دفن به فيها من الصالحين. وبالرغم من القيمة التاريخية التراثية، كانت تبعث على الحزن والخوف لمن يمر من قربها وخاصة في الليل. ودأب الناس زيارة هذه الأماكن في الأعياد وتوزيع "الزلابية" على الفقراء، وخاصة قرب قبور الأقارب في مقابر العائلة.

عرس وزغاريد

عرس أهل القدس كما بقية المدن الفلسطينية كان يبعث على السعادة والفرح، إلا أنه كان يتميز بالطابع "المحافظ والتقليدي" أيضا. فقد لعبت التقاليد دورا في ذلك، وكان للأم والأب والجد والخال والعم رأي في اختيار العريس لعروسته، ويلتزم الناس باحترام رغبة الكبير في العائلة. وكان الناس يأخذون بعين الاعتبار في المدينة كالقرية عامل القرابة ويفضلون بنت العم أو العمة أو الخال أو الخالة، أو من العائلة نفسها ويرونها الأحق. وارتبطت بعض عائلات القدس ببعض بين الطبقات الاجتماعية المختلفة بالمصاهرة. إلا أن بعض العائلات البرجوازية "حصرت زواج الأقارب ببعض قبل الانفتاح على الطبقات الأخرى في الثلاثينيات

والأربعينيات، حيث أصبح التنوع في انتقاء العروس واسعا شمل المدن والقرى، خاصة وقد انتشر التعليم بين البنات. وفي السابق كان أهل المدينة يتحيزون "للطبقات" وأيضا يفرقون بين "المدني والفلاح" إلا أن هذه الظاهرة زالت في أواخر الأربعينيات. وكان عدد من أبناء القدس المتعلمين في الخارج قد اختاروا زوجاتهم من المتعلمات اللواتي التقوا بهن في الجامعة، أو صاهروا عائلات من بيروت، والعراق، ودمشق، أو من أوروبا وإن كانوا قلة، وكان أكثرهم من "النخبة السياسية". أو من بنات البلد المتعلمات في مدارس القدس.

وظلت ذاكرتي تختزن عرس شقيقي عارف النجار "الوحداني" بين سبع بنات. وقد تزوّج من سلوى محمود الماضي من "إجزم" حيفا (١٩٤٥). وقد أحبها عندما كان يزور شقيقته رفقة في مدرسة الشيمت في القدس حيث كانت تدرس. وكانت المدرسة تضم في القسم الداخلي عدداً من بنات مدن فلسطين وشرق الأردن بينهن سلمى شقيقة سلوى الماضي من حيفا، وحنان طوقان أخت إبراهيم وفدوى طوقان ونبيهة ونزيهه طوقان من نابلس ونديمة والهام الماضي من عمان، وحورية وهدى وماجدة سعيد المفتي وسعاد أبو الهدى وفاطمة وثريا ملحس من عمان، وسهام العارف من طولكرم وغيرهن.

ولأن الشاب "وحداني" كان العرس وكأنه عرس قرية لفتا بكاملها من جميع "الحمائل"، رقصوا وغنوا وزفوا العريس وحضر العرس الكبير الأصدقاء من أهل القدس الذين سُعدوا بالعادات والتقاليد الشعبية من الزفة وجمع النقوط، وخاصة النساء اللواتي رقصن رقصات "مدنية" و"فلاحية" لفتاوية.وما زالت صورة فستان العرس الأبيض الجميل الذي لبسته العروسة سلوى الماضي في ذاكرتي، وكان آل الماضي قد اشتروه من حيفا جاهزا كما الفساتين السبعة التي غيرتها العروس أمام النساء، وكان الفستان الأجمل الفستان بني اللون "والكردان الالماظ" الذي كان يزين جيدها وربما لأنها ارتبطت بالأغنية التراثية التي تقول:

لبست البنـــــي	قلعت البنـــي	يحلا لي وصالك يا نور عيني
لبست البنـــــي	قلعت البنـــي	تعالي جنبي يا نور عينيـي
لبست البنـــــي	قلعت البنـــي	ناوية تجنني الحلوة الشلبيـة

كان فستان العروس الأبيض يشترى عادة جاهزا أو تقوم خيّاطة مؤهلة بتفصيله، وتتذكر الكثيرات من بنات القدس الخيّاطة التي خيّطت فستان العرس والجهاز، وكن كثيرات بعد إقبال البنات على تعلم الخياطة. ولبست العرايس فساتين جميلة مشغولة بالكشكش والدانتل استوردت من حلب وبيروت، وكانت يافا مركزا هاما لشراء جهاز العرايس من سوقه المتأثر بالذوق الأوروبي، واهتمت العروسة بطول الطرحة التي تلبسها فوق رأسها ونوع التل الذي سيقوم العريس برفعه عن وجهها أمام الحضور وفي وسط الفرح والزغاريد المتواصلة. وقد



المحامي محمود الماضي من اجزم / حيفا مع العائلة العروس سلوى طفلة تحمل الدمية



عارف النجار العريس فخور بقوميته العربية

علي اسماعيل النجار
يتشرف بدعوتكم لحضور عقد قران ولده
عارف على الآنسة سلوى
كريمة السيد
محمود الماضي المحامي
وذلك في تمام الساعة الخامسة من بعد الظهر يوم الجمعة الواقع في
٤ شعبان سنة ١٣٦٤ الموافق ١٣ تموز سنة ١٩٤٥
في دار والدها الكائنة على طريق الناصرة في حيفا
لازالت دياركم زاهرة بالأفراح



زفة العريس عارف النجار **(لفتا)**



اهل القرية يشاركون بالدبكة والسحجة



نساء يغنين للسمراء والبيضاء في بتير كما في لفتا

تغيّرت الموضة بشكل ملحوظ كما الملابس الأخرى منذ بداية القرن التاسع عشر كما ملابس الرجال. كان فستان العروس الأبيض في المدينة متشابها بين المسلمات والمسيحيات، بالإضافة لذلك كانت كثير من العرايس في القرى يلبسن الثوب الأبيض ويشترينه من المدينة كما العروس في المدن الفلسطينية.

وظلت أغنية جميلة أخرى غنتها نساء القرية وهن يلبسن الأثواب المطرزة في الذاكرة، وقد اصطففن في صفين متقابلين، صف ينحاز للسمرا والثاني للبيضا.

وتقول المنحازات للبيضا:

إبي والسمر والبيض تقاتلوا وأنا غايب   يا ريتني حضرتهم كان نابني نايب
قولوا لجوز السمرا يا خايب ويا سايب   خوذلك مرا بيضا مثل السكر الدايب

وغنت النساء للعروس البيضة:

إبي البيضة والسمر لاقوني ع باب الدار   البيض مماليك لكن السمر أقمار
هاتوا اللبن والعسل لنعمل الأسعار   لحسة من العسل بتسوى من اللبن قنطار

وأما المنحازات للسمراء كن يجاوبن نصيرات البيضة بالقول:

إبي والسمر يا ناس خوختين بعود   إبي مين شمهم ولمهم روحه اله بتعود
إبي سبحان مين حنّن الوالدة على المولود   إبي أنا بحب السمر ولو كانوا عبيد وسود

اهتم أهل القدس كما بقية مدن فلسطين وقراها، بالسؤال عن أهل العروس وخاصة الأم والعمة، وكأنهم يتمسكون بالأمثلة الشعبية المتوارثة وهم يرددون:

"طب الجرة على تُمها، تطلع البنت لأمها"

"خذ البنات من صدور العمات."

ولهذا كانت العائلات تسأل عن الأم والعمات لمعرفة أخلاق العروس،وكانت الحماة تصف عروس ابنها بالقول:

"حلوة مثل لعبة الجبصين"

" بنت ناس من أسرة كريمة "غنية".



العروسان داوود سحار وملكة آسيس من بيت لحم



عروس بالثوب وتتحلى بالذهب



العروسان المحامي صبحي الأيوبي (القدس) و عفت البزري (صيدا) ١٩٣٢



العروسان عبدالله الشهابي ومفيدة العفيفي **١٩٣٥**

"وما باس ثمها إلا أمها "

فالمكانة الاجتماعية والمستوى الاقتصادي كانت من أهم شروط القبول للكثيرين، وكذلك التربية الحسنة، بالإضافة لصفات الجمال المحببة لدى النساء، للبنت الشلبية أن تكون بيضة، مليانة، طويلة مثل عود الزان، عيونها واسعة حوراء سوداء العيون، أما إذا كانت عيونها زرقاء فهذا "تميّز" في الجمال أو رقبتها طويلة "مثل الزراقة". كان تعارف العريس على العروس أسهل بين الطوائف المسيحية من المسلمين بسبب كونها أكثر انفتاحا على الحياة الاجتماعية وبفضل الدراسة في المدارس الأجنبية والاختلاط في الأندية والكنيسة، ولعدم الالتزام بلبس الحجاب، كما هو الحال بين العائلات المسلمة، حتى الثلاثينيات من القرن العشرين، حيث أصبح الحجاب يقل يوما بعد يوم.

كان " شكل العروس" يظل لغزاً للكثيرين من الرجال في مدة الخطبة رغم "كتب الكتاب"، أو "عقد القران" عند المسلمين الذي يعد زواجا. ولم يكن مسموحا للعريس أن يرى وجه خطيبته قبل ليلة الزفاف عندما يكشف عن وجهها الذي تغطية طرحة بيضاء من التل وعلى صوت الغناء والزغاريد وفي حضور المعازيم. ويضحك أحد المقادسة ما سمعه عن قصة أمه التي تزوجت في أواخر العشرينيات وكيفية تعرفها على والده، وكان بعد إعجاب "الرجل" "بأصابع قدم الأم" عندما أخذ التاجر مقاسها وهي تشتري الحذاء من محله، فزواجها كان بناء على إعجاب ظل فيما بعد قوياً من "رأسها لأخمص قدميها". وظلت ذاكرة "إحدى النساء" قوية وهي تسترجع كيف اختلط عليها الأمر "من يكون العريس"، عندما دخل مع أخويه لإيصاله "للوج" الذي تجلس عليه العروس. فقد تعرفت عليه عندما ضغط على يدها وهو يسلم عليها. وتتذكر عرائس أيام زمان كيف كن يحملن الشمعدان على رأسهن ويرقصن أمام "النساء فقط" ويتمخطرن ويحركن أيديهن المصبوغة بالحناء في القرية و "بالمناكير" في المدينة، حيث أخذت النساء يتأثرن بالتزين وترتيب الشعر "بالأجنبيات"، بالإضافة للملابس والموضة التي أصبحت متوفرة في دكاكين القدس والمدن الأخرى. بعض العائلات كانت تسمح للخطيب قبل العرس زيارة العروس في الأعياد، خاصة وهو يحمل الهدايا تعبيرا عن الاحترام للعائلة. كما يقدم قطعة "مصاغ" من الذهب إذا ما كان مقتدرا، ومثل هذه الهدية مرغوبة ومحببة، إذ اعتبر المصاغ "رأسمال" للمرأة، تستعمله وقت الشدة أو في حالة الطلاق والترمل. وحملت العروس معها الجرابين والفساتين والكلسات والبشاكير والأحذية والبوابيج، ومناديل الشيفون والأرواب، والشالات. بالإضافة لمكحلة ومشط الشعر المطعم بالعاج أو الفضة، والحنة أو أدوات الزينة العصرية مع زجاجات من العطور المستوردة أو المصنوعة محليا من روح الورد.

حنّة ياحنّة ياقطر الندى

كانت تتجلى الأفراح والسعادة في أيام الاحتفالات قبل ليلة العرس التي تستمر سبعة أيام

أهمها ليلة الحنة. فجمع النساء من أهل العروسين يشاركن العروس بصبغ الحنة على الأيدي والأرجل بنقوش فنية جميلة من اللون الذي يميل للأحمر البرتقالي الغامق وتقوم بنقشها الماشطة التي تتقن هذا الفن. وتتحنى كثير من النساء الموجودات وإن لم يكن بشكل كامل، فالبعض كان يطلب من الماشطة زخرفة على أصبع، من الكف أو القدم. ولم تحظ بنات المدارس الصغيرات من صبغ الأيدي بالحنة، خوفاً من مديرة المدرسة التي كثيرا ما نبّهت الأهالي لذلك، ومن العقاب وهو الحرمان من المدرسة لحين زوال اللون.

وغنت نساء القدس كما نابلس و يافا وحيفا، أغنية مصرية في هذه المناسبة مطلعها:

الحنة يا حنة يا قطر الندى يا شباك حبيبي يا عيني جلاب الهوا
يا خوفي من أمك تسألني عليك لاحطك في عيني يا روحي واتكحل عليك

وغنت النساء لإرضاء أم العريس، ورقصن وكأنهن يسددن دينا لها في هذه المناسبة وهن سعيدات:

يا أم العريس الله يتم عليكي حنى الصبايا والحنة بايديك
وإن مارقصتي لاعتب عليكي وإن ما رقصتي لاعتب عليكي
شجرة قرنفل دوبها اللي بانت الحمد لله الحبيبة نالت
قولوا لأمه تفرح وتتهنى وترش الدار بالورد والحنة

وغنت الأم والأخوات والحبايب "للعريس" بعد حمام عرسه:

أي ونعيما حمامك أي وعشان بّلانك*
أي وسلامة دراعك أي اللي حاط وفا حمامك

وغني أصحابه الشباب له وهم يتغزلون به:

طلع الزين من الحمام الله واسم الله عليه
ورشوا لي العطر عليه وكل صحابة حواليه

ويشارك الأهل والأصدقاء بالاحتفالات في سهرات طرب وغناء ورقص للنساء والرجال،

* البلان هو الشخص الذي يقوم بدعك جسم العريس بالليفة والصابون.



العروسان انسطاس حنانيا (القدس) والعروس من عائلة النشواتي (دمشق) ١٩٣٠



العروس ناهدة النجار (لفتا) العريس عبدالله يونس (عاره وعرعره)



العروس أوفيليا بطرس (القدس) مع العريس فراج بشوتي (صفد) ١٩٥٣

وإن كانت منفصلة. ورقصت النساء المرحبات بأهل العريس على نغمات يرددنها بفرح وهن يقلن:

واجـب علينـا واجـب يـا هالحبايـب واجـب
نرقـص ونغنـي واجـب عشـان أمّـه واجـب

وغنّت المحتفلات السعيدات من النساء من أهل العريس الذين سيستلمون العروس من أهلها، وزفّها لبيت الزوجية، ويشكرن أهل العروس:

الله يخلف عا أبو محمد يخلف عليه بالأول
طلبنا النسب منه وعطانا غزال مصـوّر
الله يخلف عا ابو محمد، يخلف عليه بالثاني
طلبنا النسب منه واعطانا جوز غـزلان

وغنّت النساء للعريس خوفا من العين والحسد الذي كان الكثيرون يؤمنون به من موروث تراثي:

ها هي حوطك بالله وحدة

ها هي والثانية ثنتين

ها هي والثالثة خرزة زرقا

ها هي والرابعة ترد عنك العين

لو..... لو.....لو..... لو....

وغنّت النساء موصيات العريس خيراً بالعروس التي تشعر بالفرح الممزوج بالحزن لفراق بيت أهلها.

الوادي الوادي مشّيها يا محمد الوادي الوادي
ذهب رشادي لبّسها يا محمد، ذهب رشادي

وأثناء الزفة في القرية كانت الجموعَ تسير وراء العروس التي تمتطي ظهر الحصان وهي ملفوفة بعباءة أخيها أو والدها، أو جدها، كما يسيرون وراء العريس وهم يزفونه ويرددون:

وين أزفلك وين يا بو عيون السود عالصخرة الشريفة والنبي داوود

وين أزفلك وين يا بو عيون ملاح عالصخرة الشريفة والنبي جراح

وغنّى الرجال أغاني الميجانا والعتابا فيها مشاعر اللوعة على فراق الأحبة وقالوا:

على أوف مشعــل اوف مشعلانـــي

مع الســلامــة يا ربعي وخلانـــي

ورفعت النساء الصوت بالغناء عندما كان العريس يدخل ليجلس بجانب العروس:

طالعـة مـن بيـت أبوهـــا نازلـة بيـت الجيـــران

لابســة الأبيـض والأحمر والعيون تضرب ســلام

قلتلـها يـا حلـوة اسقينـي عطشان ميــه روينـــي

قالـت لـي روح يـا مسكيـن ميتنا ما تـروي العطشـان

قلتلـــها يا حلـوة اسقينـي وعلى خدودك ورجينـي

قالـت لـي روح يا مسكيـن وخدودي تفاح الشـــام

حفظت نساء القدس ومدن فلسطين الأغاني التي ما زالت الحفيدات أينما كن يغنينها في الأعراس كما كانت الجدات وأشهرها:

اتمختري اسم الله يا زينــة يا وردة جوة جنينـــه

زهر القرنفل يا عروســة والفل مخيم علينــــا

قومي اطلعي لابسه حريـرك ابن الأكابر عريســـك

قومي اطلعي قومي اطلعي لخالك واحنا حطينا شروط أبوك وخالك

قومي اطلعي قومي اطلعي عمهلك واحنا حطينا شروط أبوك وأهلك

هزي هزي محرمتــك غاب القمر ولا شفتـــك

وغنت النساء والعروسة تتجلى:

يا مايلة علغصون عيني سمرا سبايتنا

يحرق قليب الهوى شو عمل فينا

محبتك في القلب بتزيد ما بتنقص

حلفت بنات العرب ع العود ما بترقص

إلا في ساعة صفا وشموعا مضوية

كانت البنات الصغيرات يلعبن بيت وبيوت ويقلدن الكبار في زفة العروسة. وأتذكر كيف كنت ألعب في طفولتي مع لعبتي التي كان اسمها "نجوى" "بيت وبيوت". أثاث البيت وأدوات المطبخ والعفش أصنعها من علب الكباريت الفارغة، وأضع حجارة صغيرة تحتها وكأنها طاولة وكراسي.أحببت صناعة اللعبة (العروسة) بنفسي وهي "من الشرايط" كنت أحضر عود خيزران بحجم اللعبة، وأصنع الجسم واليدين وألف عليه الشرايط ليصبح جسداً. وأعمل الوجه من غطاء "المطربانات" الكبيرة وأغطيها بقطعة قماش بيضاء، ثم أرسم الوجه عليها، العيون، والأنف، والفم بقلم أسود، وكان لون العيون، زرقاء أو سوداء. أما جدايل الشعر الاشقر، فكنت أقصها من الجاعد "جلد الخروف" الموجود على البرندة الغربية، حيث كنّا نلعب بعيدا عن الكبار. أما تثبيت الشعر فكنت أخيطه بالإبرة وفساتين "اللعبة" كنت أصنعها من بقايا الأقمشة الموجودة في "جارور الكراكيب" في البيت. كنت أصنع فستان العروس الأبيض"لابنتي" من "التل" وهي قطعة قماش كان الناس يوزعون بها حبات "ملبس على لوز" في الأعراس، وكنت أسبق شقيقاتي لأحظى بحبة ملبس وقطعة قماش التل التي تحضرها والدتي بعد حضور عرس. كانت شقيقاتي وبنات الجيران يطلبن مني صنع "عروسة" لهن بعد أن يوفرن لي بعض الأدوات، وخاصة قطع القماش الملونة والبيضاء. وأتذكر ثوباً شعبياً "لعروستي" طرزته لي عايشة ابنة عمتي، وكان لونه أبيض ومطرز بالخيط الأزرق. وغنينا للعروسة أغاني الكبار والزفة ونحن نلعب "بيت وبيوت" تحت الوردة الحمراء التي تزين مدخل البيت، وأسعدنا الأهل ونحن نغني "للعروسة" بشكل جماعي مقلدين أغاني أهل لفتا:

يا محمل حملين تفاح هيّا يا بعدي هيّـا

ميخذ من بنات ملاح هيّا يا بعدي هيّـا

يا محمل حملين التوت هيّا يا بعدي هيّـا

ميخذ من بنات الجود عارف يابو عقيلية

الفصل الثامن

أعمال خيرية



٨

خلّفت الحرب الأولى وضعاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً متدهوراً بين ١٩١٤-١٩١٨ وطال أثرها السلبي على الشعب الفلسطيني بجميع شرائحه الاجتماعية. فقد عمّ الفقر المدقع والمجاعة، وفتكت الأوبئة بالناس جراء انتشار الجراد عام ١٩١٦ وعانت العائلات المقدسية، كبقية العائلات في أنحاء فلسطين، من تشتتها بسبب الغياب القسري لأرباب العائلات والرجال الذين جنّدوا للذهاب "لسفر برلك"، منهم من استشهد أو توفي بسبب الأمراض، أو انفصل عن العائلة للبحث عن لقمة العيش. وقد طال هذا الوضع السيئ النساء وساهم في تدهور وضع المرأة الاجتماعي والثقافي والاقتصادي.

بالإضافة لهذه البيئة والأوضاع الاقتصادية السيئة، فقد أصاب الناس من الوضع السياسي الجديد خيبة أمل على أثر خداع بريطانيا الحليفة للعرب الذين حاربوا إلى جانبها ضد الدولة العثمانية. وكانت الصدمة كبيرة عندما علموا بمعاهدة سايكس بيكو ١٩١٦ ثم وعد بلفور ١٩١٧ الذي أعطى إسرائيل "حقاً" لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين على حساب أهلها العرب الأصليين منذ آلاف السنين. ولم يغفر العرب والفلسطينيون هذه الخدعة الكبيرة، وناضلوا لرفض الصهيونية ونواياها لتطبيق وعد بلفور منذ وجود بريطانيا كسلطة انتداب على فلسطين ١٩٢٠-١٩٤٨. إلا أن الفلسطينيين تنبهوا أن وعد بريطانيا الذي أعطى الحق لليهود لإقامة "وطن قومي في فلسطين " لليهود أيضا مدعوماً لتنفيذه أثناء فترة الانتداب البريطاني. وقد ساعدتهم السلطة البريطانية منذ بداية الانتداب بتعيين أول مندوب سام صهيوني (هيربرت صموئيل)١٩٢١، وسمحت للهجرات اليهودية بالقدوم لفلسطين ووضعت القوانين التي تسمح بتسريب الأراضي وسرقتها، لبناء المستوطنات.

جمعيات نسائية تطوعية

وفي هذا الواقع السياسي والاجتماعي المتردي كان للمرأة دور في محاولة تخفيف المشكلات الإنسانية والاجتماعية والصحية والاقتصادية التي يعاني منها المجتمع. ورغم العادات والتقاليد التي كانت تكبّل المرأة ووضعها الاجتماعي المتأخر في التعليم والصحة والثقافة، بدأت النساء "المتعلمات" بالانخراط في العمل الخيري والعمل العام لمواجهة ما



الحاجة عندليب العمد رئيسة الاتحاد النسائي في نابلس تتوسط الناشطات: (صف أول) أم خليل النابلسي، مريم هاشم، أم سليم كمال، أم حكمت النابلسي (الوقوف) غيداء العمد، سميحة البيك، أمنه النابلسي، أزدهار كمال، يسرى عبداللطيف (أم زينب) فرتين العمد، علياء النابلسي.



زليخة الشهابي رئيسة الاتحاد النسائي في القدس في زيارة لفرع الاتحاد في بيت لحم، بينهن مديحة نسيبة، وداد عرفات زوجة مدير الرشيدية، حسن عرفات، حلوه جقمان، آمنة المالكي، جانيت قطان، إميلي مصاروة، مريم حميدة، ومنه قسيس.

خلّفته الحرب من مآسي. فأنشأت الرائدات عدداً من الجمعيات الخيرية والثقافية لتوعية النساء في المدن والقرى والاعتناء بصحة الأم والطفل. ولم يكن غريبا أن تبدأ الجمعيات من قبل الطوائف المسيحية المتعددة ومن الإرساليات لمساعدة المحتاجين، ومنها الطائفة العربية الأرثوذكسية التي نشطت في هذا المجال .

كما قدمت المؤسسات الإسلامية المساعدات للمحتاجين. وقد عرف أهل القدس من الطبقة الفقيرة والمعدمة الأماكن التي يتلقون العون منها، أهمها "تكية خاصكي سلطان" في القدس القديمة وتقع في "عقبة الست" قرب المسجد الأقصى وقد أقامتها "امرأة" هي زوجة السطان سليمان القانوني ١٥٥٢ إسمها "روكسلانا" وهي من أصل روسي .وكانت هذه المؤسسة من أكبر المؤسسات الخيرية طيلة العهد العثماني.[٣٦] وبلغ الوقف الراجع لها لمساعدة المعوزين ٢٩ مشروعا في قرى وبلدات منها :بئر معينه، اللد، بيت إكسا، كفرعانا، بيت لقيا السامرية، وظلت هذه التكية مصدر طعام وغذاء للفقراء والدراويش والمسافرين لمئات السينين. كانت التكية تحتوي على مسجد وعمارة تضم مطبخا وفرنا وخمسين غرفة وخانا واسعا أوقفته المحسنة المسلمة "لأبناء السبيل" وظلت هذه التكية من أقوى وأغنى المؤسسات الخيرية، إذ استعمل وقفها لتوزيع المعونات ليس فقط في القدس، بل انتشرت أوقافها في غزة ونابلس وطرابلس، وطالت مساعداتها الزوايا مثل زاوية الهنود. بالإضافة إلى ذلك، كانت المساجد، والجوامع، التي كان يتكاثر حولها الفقراء تقوم بتوزيع المساعدات على المحتاجين. وظلت "التكية" عامرة تساهم في إطعام الأيتام والفقراء والمساكين وجبة ساخنة، ليومنا هذا، وخاصة في شهر رمضان وتطعم أكثر من ٥٠٠ شخص يوميا. وتقوم دائرة الأوقاف الإسلامية المشرفة على المؤسسة بتغطية كافة الشرائح الاجتماعية داخل وخارج مدينة القدس لهذا التاريخ، لتشمل قرى جبع، وعناتا، وحزما، ومخيم شعفاط، بالرغم من الممارسات الإسرائيلية لمنع مساعدة الفلسطينيين الذين ارتفعت نسبة البطالة والفقر بينهم تحت الاحتلال.

كانت الجمعيات الخيرية قد بدأت نشاطاتها في فلسطين منذ مطلع القرن العشرين حيث أنشأت نبيهة منسي في عكا "جمعية إغاثة المسكين الأرثوذكسية" التي ساهمت بأعمالها الخيرية والإنسانية في تخفيف آثار الجوع والمرض وانتشار الأوبئة بين الناس. ولم تكتف بذلك، فقامت جمعية "السيدات الأرثوذكسية" ١٩١٠في يافا بمساعدة البنات اليتيمات برفع مستواهن التعليمي، وذلك بإلحاقهن بمدرسة زهرة الإحسان، وإيفادهن إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، وإن كان عمل هذه الجمعية محصوراً في مساعدة بنات "الطائفة"، فقد ساهمت في العمل الثقافي والاجتماعي بشكل عام. ولم يقتصر هذا العمل على النشاط النسوي، بل ضم رجالاً ونساءً. ومن ضمن مؤسسيها التي نشرت الصحافة الفلسطينية المبكرة أسماءهم:

---

٣٦ للمزيد عن التكايا: انظر محمد هاشم غوشة، ١٤٤ القدس في العهد العثماني، مصدر سابق ص ٢٩٩-٣٠٢ .

ميخائيل العيسى، روجينا يعقوب غندور، ماري جورج دباس، عفيفة الياس دباس، اديل افتيم عازر، اديل نقولا الدباس، عفيفة إبراهيم القدسي، جوليا صليبا اسليم، فيكتوريا روفائيل ظريفة، زهية سمعان العيسى، فدوك الياس برتقش، ملفينا موسى حكيم، فدوى قيادس.ولم تتأخر نساء القدس إنشاء الجمعيات الخيرية احداها جمعية تهذيب الفتاة الأرثوذكسية ١٩١٨ برئاسة كاترين شكري ديب التي استمرت بالعمل في هذا المجال حتى عام ١٩٤٧. فقد اهتمت بتعليم البنات وإرسالهن لإتمام الدراسة في المرحلة العليا في مدرسة الشميت الألمانية والكلية الانجليزية في القدس. ونشطت في تأسيس الاتحاد النسائي وشاركت في المؤتمر النسائي في القاهرة ١٩٣٨ في مؤتمر ١٩٤٤. ولم تتوان من الاستمرار بالنشاط النسائي في الجمعيات الخيرية قبل وبعد النكبة ومنها جمعية الشابات المسيحيات في عمان.

كان بين المؤسسات النشيطات في جمعية تهذيب الفتاة الأرثوذكسية، كاترين سكسك بنت القدس. فقد قامت بالعمل في هذه الجمعية وجمعية إغاثة "البائس المريض" قبل أن تتفرغ لمساعدة الأطفال من ذوي العاهات إذ أسست مركزا في بيت جالا لمؤازرة المرضى والمعوزين. وتوسع مشروعها الإنساني ليضم تسعين سريرا. بالإضافة إلى ذلك أسست ملجأ للمرضى المحتاجين والفقراء. وكان تحديها للصعاب ومحبتها لعمل الخير الذي كرست حياتها له قد دفعها لتأسيس "بيت التوليد" الذي أطلقت عليه اسم "مريم العذراء" وقد لفتت قصص نجاحها، أهل الخير للتبرع من أجل إقامة بيت للأطفال المشلولين، وحضانة للأطفال، وإيواء الأطفال مجهولي النسب ليبلغ عدد البيوت التي رئستها وأشرفت عليها أربعة. تطور الاسم ليصبح "جمعية الملجأ الخيري الأرثوذكسي العربي للمرضى والمقعدين" وليستمر بعد النكبة في القدس القديمة ولليوم. وتقوم هنريت سكسك * ابنة كاترين بالإشراف والعلم على استمرارية عمل الخير للأطفال والنساء والمحتاجين، كما لكبار السن في مركز الجمعية في القدس. وازداد عدد "الجمعيات الخيرية" في العشرينيات في القدس وجميع أنحاء البلاد، وخاصة الجمعيات الطائفية التي تُعنى بقضايا الطائفة. وبرزت منها "جمعية القديسة تريزا" التي أنشأت فروعاً لها في الناصرة وحيفا ويافا. ونشطت الراهبة وردة معمر ابنة الناصرة بمحبة عمل الخير، وقد أصبحت رئيسة دير الرهابنة في القدس تعيش عطاءً روحياً وحياة رهبنة حتى مماتها عام ١٩٢٩.

ونجحت سلمى الحمصي سلامة بإنشاء جمعية إنسانية خيرية ناجحة في القدس أسمتها "جمعية حاملات الطيب" عام ١٩٢٦. وقد أقامت مستوصفاً لعلاج المحتاجين مجاناً، وكان الأطباء يخدمون فيها مجاناً أيضاً وتدعم الجمعية مادياً من التبرعات الخيرية لتخدم الفقراء حتى عام النكبة ١٩٤٨. وقد استمرت بعملها الإنساني في بيروت لدعم أهل فلسطين، ولتواصل

* انظر ص (١٧١) من هذا الكتاب للمزيد عن هنريت سكسك مذيعة الاطفال.

اهتمامها بشؤون المرأة. ونجحت جمعية أخرى "إغاثة الملهوف" في نابلس لتحقيق أهداف مشابهة وهي من الجمعيات التي ألحقت فيما بعد بالاتحاد النسائي العربي. توالى اهتمام النساء بالعمل الاجتماعي في أكثر المدن، واهتمت بديعة خوري سلامة من خلال "جمعية النهضة النسائية" التي أسستها عام ١٩٢٣ في القدس لنهضة البنات. وكانت أهم إنجازاتها إصرارها على محو أمية الفتيات خاصة، وكانت نسبة الأمية بين النساء مرتفعة بشكل كبير. واستطاعت بقوة شخصيتها إقناع دائرة المعارف العامة بافتتاح صف لمكافحة الأمية في المدرسة الحكومية في رام الله.

وجاء نشاط النساء في الحقل الاجتماعي والخيري بشكل ملحوظ منذ العشرينيات في الفترة التي كانت الحركة الوطنية غير متبلورة، والخلافات السياسية شديدة في فلسطين بين المتنافسين على الزعامة. وتطوّرت هذه الجمعيات في أواخر العقد لتصبح مسيّسة ومنظّمة. فقد لعبت دوراً تاريخياً في النضال ضد الانتداب والصهيونية وشاركت في ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ حتى عام النكبة. وانخرطت النساء بعد ذلك في حركة نضالية وطنية خاضها الشعب بكل فئاته حتى اليوم. وقد زال تعصب أكثر الجمعيات لخدمة بنات الطائفة الواحدة لتصبح ناشطة في خدمة المرأة الفلسطينية والقضية الوطنية بشكل عام. وأثبتت النساء أنفسهن من خلال الجمعيات النسائية من المسلمات والمسيحيات يرجع لتفهم المرأة للمشاكل الاجتماعية والسياسية التي كان الشعب الفلسطيني يعيشها، بالإضافة لمشاكل المرأة في الحقبات المتلاحقة والتي أخذت تنحو منحى آخرَ تطالب فيه النساء "بالمساواة"، وإن كان الطلب بعيد المنال.

وكان "لجمعية السيدات العربيات" التي تأسست في القدس عام ١٩٢٩ بعد "هبة البراق" برئاسة نعمتي العلمي، أثر في إنشاء وتطور العمل الخيري والسياسي. وتشجعت النساء في فروع الجمعية في المدن الأخرى، نابلس، ويافا، وعكا، وحيفا، وغزة، ورام الله، بالانتساب للجمعيات التي تحوّل معظمها إلى اتحادات نسائية بعد عام ١٩٣٨. وبرزت سيدات أخلصن للعمل الاجتماعي، في فروع الجمعية من بينهن عندليب العمد من نابلس، وزليخة الشهابي وكاترين سكسك وميليا السكاكيني من القدس، واديل عازر ووجيهه توفيق الدجاني، من يافا، وليديا الأعرج من بيت لحم. إلا أن فرع الجمعية في القدس ظل يحمل نفس الاسم منذ تأسيسه وليعمل إلى جانب الاتحاد النسائي. وقد توقف نشاط فرع القدس في عام النكبة، ولكن أعيد تسجيله عام ١٩٦٥ برئاسة زهية النشاشيبي .

لقد أثبتت الجمعيات النسائية التي عملت تحت الانتداب البريطاني، أنها واعية اجتماعيا وسياسيا، وكان الانتداب يحاول خلق سياسة التفرقة والنعرات بين الطوائف، ولكن الجمعيات تخطت هذه المشكلة. وعملت النساء المسلمات والمسيحيات معا لتنفيذ أهدافها الإنسانية لمساعدة المنكوبين والفقراء ومساعدة المرأة على تحسين ثقافتها ووعيها الاجتماعي. بالإضافة



مديرة دار الطفل هند الحسيني مع المعلمات فاطمة الحسيني وزميلتها في القدس



عضوات جمعية التضامن النسائي يافا ١٩٤٨ عرف منهن رفقة وسمية جارالله، فاطمة صلاح، ام غازي كنعان. كاملة الدباغ. زلفة عاشور، و لوريس حلاس ، فوزية العقروق، وتتوسطهن مفيدة الدباغ رئيسة الجمعية

إلى ذلك فقد لعبت النساء من خلال الجمعيات التي أصبحت مسيسة منذ أواخر العشرينيات، دوراً وطنيا ونضاليا. وأصبحت أهدافها رعاية أسر الشهداء والمناضلين السياسيين، كما أثبتت وجودها في المنابر السياسية كالمشاركة في المؤتمرات الإقليمية والدولية. فقد شاركت في المؤتمر النسائي في القاهرة ١٩٣٨-١٩٤٤ * وعملت النساء من خلال الجمعيات الخيرية في القدس في الأربعينيات في مراكز العناية بالأمومة والطفولة، ولتتكاثر مثل هذه الجمعيات والاتحادات الاهتمام بالأيتام بعد النكبة في كل مكان. وكان أبرزها دار الطفل العربي التي آوت أطفال دير ياسين وقد أسستها هند الحسيني في القدس عام ١٩٤٨. ونشطت النساء بعد النكبة في نهضتها لتقديم الخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية للمرأة والأسرة في المخيمات. كما قامت بنات فلسطين المتعلمات المساهمة في التعليم في الأقطار العربية، ولتقوم بدور فاعل في المساعدة في إعالة عائلتها.

تعليم البنات الخياطة

كان من أهمٍ نشاطات الجمعيات النسائية هو تعليم الخياطة للفتيات من أجل إتقان مهنة تدر عليهن دخلاً يساهمٍ في تحسين نوعية الحياة الاقتصادية والمعيشية للعائلات الفقيرة. وكان الفقر قد بدا واضحاً بين الناس من الطبقة الوسطى والفقيرة في الملبس ومستوى المعيشة في العشرينيات والثلاثينيات. وتعلمت النساء القيام بتصليح الملابس وتديرها ليلبسها أكثر من فرد في العائلة لتوفير شراء الجديد. وذلك لمواجهة الحالة الاقتصادية الصعبة. كما وجد الخياطون لتوسيع أو تضييق البدلات الرجالية. ووجدت في القدس أيضاً محلات خاصة "لرتق الملابس"، كما هو محل بربريان إخوان في باب الخليل. وكان يقوم أيضا برثي السجاد أو القطع التراثية القديمة المتوارثة في بعض العائلات. بالإضافة إلى ذلك، فقد انتعش سوق بيع ماكنات الخياطة التي كانت تستورد من أوروبا مثل ماكنة "سنجر" التي أصبحت آلة ضرورية للنساء في البيت. وأخذت المدارس بتعليم البنات دروس التدبير المنزلي "رثي" الملابس وبالأخص "الكلسات"، وذلك باستعمال "بيضة خشبية"، كانت متوفرة في دكاكين بيع "المانيفاتورة"، المتناثرة في أسواق القدس العتيقة التي حافظت على القديم ووفرت مستلزمات الحياة المعيشية الجديدة.

وافتتحت "مدام رفله" في القدس مشاغل للخياطة لها فروع في غزة وبيت جالا تعلم فيها دورات لمدة ستة شهور للدورة. وشجّع البنات الإقبال عليها، إذ اهتمت الصحافة والمجتمع بهذه المهنة التي شجّعها الرجال كالنساء. ونشرت جريدة **صوت الشعب** التي كانت تصدر في بيت لحم أسماء الخريجات لدورة عام ١٩٣٦ تحت عنوان "فن الخياطة الحديثة في مشاغل

* انظر الفصل (١٤) عن دور المرأة السياسي.



درس الخياطة على
ماكنة سنجر



قطعة تطريز مميزة من شغل عريفة النجار
خريجة مدرسة السزيان في حي المصرارة



درس التطريز
بخيطان ال DMC

مدام رفله"، مع صورة لمدام رفله بالملابس الغربية العصرية. ويلاحظ أن اللقب "مدام" الذي يعني "السيدة" كلمة فرنسية، وكان أهل القدس قد تأثروا بالثقافة الغربية، وكانت أيضا يطلق عليها "مسز" بالانجليزية. إلا أن اللقب الذي كان يطلق على النساء في المجتمع فكان "البنت" أو "الحرمة" أو "الولية" حيث استمرت هذه المناداة في الأوساط الشعبية في القرية والمدينة. بينما كانت تنادي بالسيدة والآنسة من المثقفين، ولعل الأجمل البنت "الشلبية" التي تتمثل في صفات المرأة المتعلمة والناهضة. وتشجعت بعض البنات إلى دراسة "فن التفصيل والخياطة" والتخصص فيه من خلال كليات الفنون الجميلة، كما في الغرب، وكانت الرائدة في ذلك ليندا مراشي. وقد درست في باريس ومصر وسوريا. وألفت كتابا عنوانه"فن التفصيل والخياط" ١٩٤٠، قررته إدارة المعارف في فلسطين ولبنان. وظلت معاهد مراشي التي منحت شهادات رسمية للخريجات في ذاكرة الكثيرات ممن أقبلن على تعليم الخياطة كفن، ومهنة منتجة، أفادت الكثيرات من العائلات لتأمين دخل للعائلة. بالإضافة إلى ذلك، أقبلت البنت الشلبية على التخصص بالتدبير المنزلي بفروعه المختلفة ومنها الخياطة والتفصيل الذي كان متوفر بالكلية الأمريكية للبنات في بيروت BCW وكانت ديانا سعيد من القدس إحدى الرائدات في هذا المجال. وقامت بترجمة كتاب قيّم في التدبير المنزلي، "جولة في الحياة المنزلية" لتدريسه في مدارس فلسطين والأردن. وساهمت في تشجيع البنات التخصص في هذا المجال لتطوير العلم التقليدي للمرأة وليصبح "فناً وعلما".

كثير من السيدات والأوانس كن ما يزلن يلبسن الحجاب والبرنص والكاب، المتوفر قماشها في محل عزمي طه في شارع يافا شرق باب الخليل، والذي كان يبيع الأنواع المختلفة لمستلزمات هذه الألبسة. وكذلك محلات فايز المهتدي في ماملا. وسعدت أمهات "الأوانس" اللواتي حصلن على شهادة في "القص والتفصيل والخياطة". وقرأ الأهالي أسماءهن في الصحافة، وكان عدد الخريجات خمس عشرة آنسة بينهن خمس من القدس: ماري جورج ملوخية، وهدى موسى كتاب، وربيحة الحاج محمد، وندى الياس دحدل، وتخرجت ثلاث من بيت لحم، وردة الياس مرقص، وحنه إبراهيم ماريا، وكاترين يوسف قطيمي، ومن بيت جالا تخرجت نبيهه جاد الله ربيع، ونعمة جريس مخلوف، وحنة حنا التيت، ونعمة حنا ربيع، كما تخرجت آنستان من غزة، فائقة ترزي، ووداد حسن السقا. وازدادت سعادة الأهل، وكانت أكبر بعد ما نشرت الصحافة أسماء البنات الخريجات المؤهلات ليفاخروا باللواتي أصبحن قادرات على عمل منتج، يفيد العائلة. ساهم نشر الأسماء في الصحافة إلى لفت نظر المجتمع لبنات مؤهلات، خاصة وهن يتميزن عن غيرهن بالقدرة على الإنتاج وكسب العيش بسبب عملهن، للمساعدة في تحمل مسؤولية إعالة العائلة، ولذلك يستحققن لقب "البنت الشلبية".

ساعد تعليم الخياطة في الثلاثينيات كثير من النساء لخلع الملاية، أو الحجاب وأقبلت

النساء على تشجيع ذلك بخياطة الملابس الجاهزة وبيعها في الدكاكين والفبارك أو استيرادها. ومن بين الناشطات في هذا المجال ماري الياس يوسف خليل، التي افتتحت محلاً في محلة "النجاجرة" في بيت لحم، وقد أصبح معروفاً لأهالي القدس والقرى المجاورة. وظلت الصحف تعلن عنها لتستجلب الزبائن:

"خيّاطة" حائزة على دبلوم تفصيل وخياطة جميع ملابس السيدات وتعليم الخياطة".

وظلت المهنة في ذاكرة المدينة والناس، الذين كانوا يقبلون على كل ما يساهم في الحراك الاجتماعي والاقتصادي. وعُرف شارع يافا في القدس قرب باب الخليل فابركة ماري سليمان المتخصصة بتطريز بيت لحم، الذي كانت النساء يتنافسن لاقتنائه لجماله ولبسه لأخذ صور فوتوغرافية عند المصورين. وكانت ماري عيسى ملوخية في أرض الأرمن تجاه شارع البرنسس في البلدة القديمة تعلن عن محلها بفخر:

"خياطة إفرنجية لألبسة السيدات الداخلية والخارجية وأحدث الأزياء".

وقد أقبل على المحل زبائن كثيرات من العرائس، أو الحوامل اللواتي ينتظرن المولود الجديد، وكان المحل أيضاً يبيع "البيجامات" للنساء والرجال. جذب هذا المحل النساء المهتمات المتأثرات بالمقاييس الجمالية الغربية العصرية كإبراز الخصر وتنحيف الأرداف. فالمحل من المحلات القليلة في القدس لبيع "كورسيات" ومشدات للوسط وأحزمة كاوتشوك وصداري، كما محل خوري في شارع يافا.

خياطون رجال

وفي شارع القديس بولص، كان بين محلات الخياطة للرجال من يخيط للنساء أيضاً، وخاصة "التاييرات" من أقمشة الجوخ والصوف المستورد من العراق وسوريا. ومن أشهرها محلات أهرام في شارع مأمن الله، وراشد الخياط، وكان يعلن عن نفسه في الصحف.

"حائز على شهادة ببراعة من اللجنة الملكية".

وكان محل محمد فوزي الخياط في باب الخليل أمام القلعة، أحد الأمكنة التي يتردد عليها أهل القدس لتفصيل الملابس الجديدة، وخاصة في مواسم الأعياد. ووجد في الثلاثينيات خياطون للنساء والرجال رغم العادات والتقاليد المتزمتة. ففي بيت لحم خاطت النساء ملابسهن عند ابارهيم موسى خرمان وصالح السقا وماري الياس يوسف خليل خياطة وتعليم الخياطة في حارة النجاجرة، وفي صفد رشدي علي، في شارع الملك فيصل، وفي نابلس محمد علي وإخوانه.



اللباس القديم والحديث في بيت لحم للنساء والرجال، صورة الشيخ عبدالرحمن المالكي استقر في بيت لحم مع عائلته، بجانبه ابنته آمنه، وراءها رياض المالكي الذي سيصبح وزيراً للخارجية في السلطة الفا...طينية ٢٠٠٩ - ٢٠١١ ...



عودة عبدالأحد قطان وزوجته ميلادة مع نعيمة وفورتيني
والأولاد سلمان قطان ، فرنسيس وعبدالأحد ١٩٣٥ في بيت لحم

ولم ينقص المدن الفلسطينية الأخرى الخياطات للنساء، وكذلك الخياطون الذين يفصلون "البدلات الإفرنجية" التي أخذ كثيرون من أهل المدن والقرى لبسها بدل "القنباز" ونزع "الطربوش" واستبدل به البعض "البرنيطة" في المدن، كما الأجانب الذين يسكنون في القدس أو السياح الذين يزورونها. وعرف أهل القدس محلات بيع الطرابيش منها محل داوود ناصر أبو جضم، ويعقوب حاجيان، وفيليب عقروق، وخليل جاد المقدسي، وهايك هجيان، وعبد القادر المهتدي في باب الخليل، ونيقولا الخوري وشكري رصاص في سوق العطارين، الذين كانوا يبيعون أجود أنواع الطرابيش بالجملة والمفرق. وقد لبس الطربوش زمن الحكم العثماني أكثر الرجال في القدس وقبل ذلك، إلا أنه ظل تحت الانتداب لبس الأفندية ومنهم روحي الخالدي وراغب النشاشيبي، وموسى كاظم باشا الحسيني، وعلي أفندي جارالله، وفيضي أفندي العلمي. ولبسه أيضا أساتذة المدارس والناس العاديون والمثقفون، منهم خليل السكاكيني وجورج حرامي، والياس أفتيم مشبك، وشكري ديب، وجورج حنانيا، وغيرهم، وظلت صورتهم في ذاكرة واصف جوهرية وفي مذكراته المدونة، وفي ذاكرة الصور المحفوظة في "ألبومات" العائلة. كما حفظت العائلات صوراً للرجال باللباس العربي.

وازدهرت في الثلاثينيات بيع "الحطة والعقال" لأهل المدن كما القرويين وهو لباس الرأس للرجال وكان سائداً في تلك الفترة ثلاثة أنواع منها: العقال: الأسود العادي المصنوع من وبر الإبل أو صوف الماعز، وكان يلبسه الرجال من جميع الطبقات الاجتماعية، أما العقال المقصّب فيلبسه شيخ الحمولة أو القبيلة في القرى وحطة من "الروزا" للوجهاء. ولم يكن هذا اللباس محصوراً بأهل فلسطين بل كان معروفاً أيضاً في جميع البلدان العربية، بالإضافة للعباءة ذات الخصوصية مثل البيضاء، أو السوداء. ويدل قماش العباءة على الطبقة الاجتماعية لصاحبها، خاصة العباءة المحبوكة بالقصب على فتحاتها التي تشير إلى حالة لابسها الميسورة. ولبس أهل المدن "الحطة والعقال" عندما أصدر "ديوان الثورة" عام ١٩٣٨ بيانا، متزامنا مع منابر المساجد يطلب رجال الدين من الرجال استبدال "لباس الرأس" بالكوفية والعقال، لكي لا تستدل السلطات البريطانية على الثوار الفلاحين وهي تطاردهم لدورهم الأساس في الثورة. واستبدل أهل المدن "الطربوش" وغيره من لبس الرأس به، ونجح الثوار باستعمال أساليب حرب العصابات في نضالهم لإقلاق السلطة وتخريب معسكرات الجيش البريطاني والمستعمرات الصهيونية.[٣٧]

موضة الفستان والبرنيطة

أخذت ملامح التغيير في الملابس النسائية تبدو واضحة في الثلاثينيات والأربعينيات متأثرة

٣٧ عايدة النجار، صحافة فلسطين والحركة الوطنية في نصف قرن مصدر سبق ذكره. ص .



ملابس حديثة نساء بالبرنيطة في القدس



وداد عفيفي ١٩١٤ زوجة جمال نور الدين
بفستان على الموضة

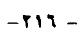
بالأزياء الغربية الأوروبية، وفي تخلي البعض عن الملاية والبرنص والحجاب. ولبست البنات والنساء من الجيل الجديد الملابس القصيرة، أو ذات نصف الكم والموديلات التي تبرز مفاتن الجسم، بدل الفضفاضة التي كانت سمة ملابس الأمهات والجدات. بالإضافة لغطاء الوجه، الذي كان بعضه من الشيفون الخفيف أو الثقيل. وفي الأربعينيات استبدلت كثير من النساء ذلك بالإشارب لتغطية الشعر. وكانت الكثيرات من المسيحيات يغطين الوجه كالمسلمات كعنوان للتقيّد بالعادات الشرقية والانتماء الوطني. ولم تتوان بعض نساء القدس من المسيحيات والمسلمات من لبس "البرنيطة" متأثرات بنساء القناصل الأجانب، أو لتغطية الشعر بالإشارب أو الحجاب ولبست النساء الاشارب بطريقة مبتكرة كالغربيات، إذ كان البعض يلبس "التيربون" كالنساء التركيات، زمن الحكم العثماني، وهو إشارب يُلف بطريقة خاصة، تضفي أناقة عليه وجمالا وعلى من تلبسه، بالإضافة إلى ذلك فقد كان يرمز للمرأة البرجوازية.

وظهر التنوع في اللباس في صور فوتوغرافية لبنات القدس اللواتي سرن في المظاهرات ضد وعد بلفور وسياسة الانتداب عام ١٩٢٢في الشوارع، جنباً إلى جنب مع الرجل رغم العادات والتقاليد الإسلامية والعربية. وكان البعض منهن يلبسن البرنيطة التي واجهت انتقادات من الرجال الذين كانوا يناقشون قضايا المرأة في الصحافة، في أواخر العشرينيات. وحرصاً على تغطية الشعر والتمسك بالتقاليد، فقد تخلت زوجة فيضي العلمي "أبو موسى" عمدة القدس عام ١٩٢١، عن اللباس التقليدي الحجاب، وقامت وهي صبية جميلة بلبس البرنيطة عندما كانت تسافر معه إلى أوروبا. إلا أن أم موسى العلمي حافظت على "غطاء الرأس الأسود التقليدي" دون تغطية الوجه في رحلاتها لأوروبا مع ابنها موسى في السنين اللاحقة رغم تأثر موسى العلمي بالحياة الاجتماعية الغربية، كونه خريج جامعة كامبرج في الحقوق. وقد شغل مناصب عليا زمن الانتداب، إلى أن نفي للخارج في سنين الثورة في الثلاثينيات ليعمل في الجامعة العربية في الأربعينيات. وتجلى انفتاحه على الحياة الاجتماعية والثقافة الغربية، من اصطحاب أفراد العائلة معه في زياراته لأوروبا. وقد تزوّج من سيدة عصرية هي سعدية الجابري، من سوريا، وكانت متعلمة، وتدل ملابسها على تأثرها بالموضة الأوروبية وعلى حسن الذوق ورفعته، بما فيها لبس "البرنيطة" مع أفراد عائلتها وعائلة العلمي كما تظهر في صورة فوتوغرافية تجمعهم في سويسرا. وقد بدا واضحاً الانفتاح على الحياة الاجتماعية بين الفلسطينيين في القدس ومدن أخرى، رغم التمسك بالتقاليد التي ستخف وطأتها على النساء في الأربعينيات.

كان تطور المرأة الاجتماعي قد أثّر على نشاط سوق القدس وأصبحت الملابس الجاهزة المستوردة متوفرة في المتاجر وفي الأسواق التي أخذت تتماشى مع العرض والطلب. واشترت النساء المقدسيات والأجنبيات "البرانيط" من محل طليل في عمارة كركر شارع مأمن الله،

حيث وجد مصنع للبرانيط الوطنية والأوروبية، بالإضافة إلى الأزياء الحديثة. وكذلك من محل ماري عيسى ملوخية، حيث كانت تبيع البرانيط والأزياء الباريسية. وكثرت المحلات المتنافسة على بيع الملابس الجاهزة المستوردة ليس في القدس وحدها، بل كثيراً ما كانت أمهات وحموات "العرايس" في القدس يقمن باصطحاب العروس إلى يافا إلى محل المقص الباريسي لصاحبه اسحاق أبو الهدى الفاروقي، شارع بسترس رقم ٤٣، ومن المحلات الوطنية في عمان لأصحابها حايك وأبو الهدى ومن محل رشيد أبو لبن ومحل حمدي وزكي كنعان، أو المحلات الأجنبية لشراء لوازم العروس. واشتهرت محلات أرملي وجرجورة، في شارع الملوك تجاه "بنكودي روما" وبوتاجي وأولاده في حيفا. هذا بالرغم من العدد الكبير لمحلات بيع الألبسة في القدس. وظلت محلات كثيرة في ذاكرة المدينة والناس، منها أسعد هندية في باب الخليل رقم ٣٦، ص ب ٧٢٥، وحزبون، وحنضل أخوان وحنوش وملكيان، وخوري في شارع يافا رقم ١٦٩ ت ٨٦٩، وسمور، وسهاكيان، ويوسف جورج طباخ، وعابدين وسعيد قواس، والمهتدي، وأخوان نيكوديم في باب الخليل. وعجم وشمس باشا لبيع المنسوجات الوطنية في حارة النصارى.

وكان أهل القدس وتجارها يترددون على مدينة مجدل عسقلان لشراء المنسوجات المشهورة التي كانت تحاك "بالنول" ومن أصحاب هذه المحلات: حسين نمر بلعاوي، إبراهيم أحمد خطيب، أحمد وحسين الشيخ سلامة، حسن الشريف، يوسف شريف، عبد الرحمن فران، إبراهيم وسليم الكرسوح، إبراهيم وطه الحاج محمود. واشتهر في غزة صالح حسين مرتجى، في شارع الشجاعية الشوا، حيث كان يبيع كافة أنواع المنسوجات الوطنية.



الفصل التاسع

ثوب القروية الشلبية



عيوش وفطوم

٩

كما لم تتغير القدس العتيقة بتراثها المعماري والتراثي المنحوت على الجدران والشوارع المرصوفة والأماكن التاريخية والدينية ظل لباس البنت في الريف الفلسطيني وقرى وبلدات أكناف القدس جزءاً من "التراث الشعبي الحيّ" الممتدة جذوره في الأرض الطيبة منذ زمن الكنعانيين. وتطور اهتمام أهل المدينة بالثوب القروي ليصبح اليوم رمزاً للهوية الفلسطينية تلبسه النساء في المناسبات لحمايته من سرقة العدو. فثوب المرأة في الريف الفلسطيني المعروف "بالثوب الفلاحي" تميّز بخصوصيته من حيث القماش والتفصيل وزخرفته بالتطريز بالألوان المنتقاة من طبيعة فلسطين الجميلة. وهو فن تناقلته البنات عن الجدات، لثرائه بالتصاميم والألوان التي تختلف من منطقة لأخرى أو من قرية لقرية. ويمكن معرفة البلدة التي ينتمي إليها أو حتى الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها صاحبة الثوب. وظل الثوب القروي محافظاً على هويته التراثية الشعبية ولم يتغير لباس أهل القرى كما تغيّر لباس بنات المدينة وتأثر بالموضة الغربية.

الثوب الفلاحي المطرز الأصيل في قرى قضاء القدس، لفتا وعين كارم وشعفاط، وبيت حنينا، وبتير، والعيزرية، وسلوان، متشابهة، "موديل" الثوب الفلاحي واحد فهو ثوب طويل واسع لحد الكاحل يربط الخصر "بالجدادة" أي الحزام من القماش الدمشقي أو بحزام من الجلد. ويتكون الثوب من الصدر والأكمام، إما الضيقة أو كم "ردان" ضيق من أعلى وواسع بأسفل الذراع. أما الجوانب التي تسمى "البنيقة" فهي تمتد من أسفل الثوب حتى منطقة الخصر، مطرزة بالزخارف متداخلة الألوان من رسومات العروق المتنوعة، ويكون بعضها عريضاً أو رفيعاً، ولا يطرز الثوب من الأمام أو الخلف ويطرز أسفل الخلف بزخارف تتلاءم مع "البنايق".ويظل الصدر أو "القبة" وهو الأهم في أعلى الثوب يشكل وجهه الجميل، حيث يدل التطريز على قيمته الحقيقية وجماله المتنوع في قرى فلسطين ومنها: الثوب الدجاني، واللفتاوي، والتلحمي، وثوب رام الله، والمجدلي، والخليل وهو يحمل نقوشاً جميلة كرسمة "الساعة" أو مفتاح القلب تضاف "التحريرة" التي تطرز بأيدي مهنيات في بيت لحم وبيت جالا. وهو فن يختلف عن التطريز الآخر من حيث "القطبة" والخيط الحريري المقصّب الذي يستعمل فيه.

أقمشة وأثوب لها أسماء

ويدل نوع القماش المستعمل لصناعة الثوب على الطبقة الاجتماعية للنساء كما المناسبة التي يلبس فيها الثوب. فثوب الموسرات كان من قماش الجوخ أو الكريب، والحرير والتفتا والمخمل وقماش الغباني للمناسبات، واستعمل الحبر والبفت والكتان للأثواب اليومية العادية والأقل كلفة. ولأن المرأة القروية في قضاء القدس لم تغط رأسها بالحجاب فكانت تلبس على الرأس غطاء أبيضاً من القطن الناعم أو الجورجيت تسمى "الخرقة" وتكون عادة من غير تطريز لأكثر القرى، وتنزل على الظهر لغاية الخصر. وكان الأجمل غطاء رأس بنات رام الله الطويل الذي ينزل على الكتفين والمطرز بشكل يتناسب مع الثوب. واختلف غطاء الرأس لبنات بيت لحم وبيت جالا فهو مثل طربوش عال تخفيه "بالخرقة" على الرأس، يسمى "بالشطوة".

أطلقت نساء قرى القدس أسماء على الأثواب التي يلبسنها، وخاصة تلك التي لها خصوصية، وتلبس في المناسبات. وقد لبستها نساء قرى القدس، لفتا وشعفاط وعين كارم وسلوان وبيت حنينا والعيزرية، حيث الأثواب تسمى بأسماء جميلة. وتميز "ثوب الملك" (بفتح الميم واللام) وهو أعرق وأقدم زي خاص عُرف من زمن "الكنعانيات"، بأنه مصنوع من قماش الساتان المخطط باللون البني والأحمر وتستعمل قطع من الساتان البرتقالي المحمر، والبني المحمر أو النبيتي التي توزع على الأكتاف والذراعين وجانبي الثوب. وأجمل ما في الثوب الصدر المصنوع من قطعة مربعة من الحرير أو القطيفة مطرزة بزخارف من مربعات ودوائر تفصلها خيوط حريرية، بعضها يحمل صورة "الحيّة". تتشابك الغرز المختلفة والخيوط المقصبة بغرز اللف بالخيوط الحريرية التي تجمع قطع الثوب ليصبح ثوب "الملك" قطعة فنية للعروس المحظوظة في يوم عرسها، إذ كان حلم الصبايا اقتناءه وإن كانت تكاليفه عالية الثمن.

ولبست نساء قرية لفتا ثوب "أبو قطبة" وهو من قماش "الحبر" الأسود المطرز بالعروق العريضة أو الرفيعة المتشابكة، بخيطان وغرز حريرية، ليصبح قطعة فنية تتدفق بالحياة نتيجة تداخل اللونين الأسود والأحمر. كما تباهت نساء لفتا بالثوب "الغباني" كون قماشه الحريري الناعم المستورد من سوريا وهو قماش محبوك ومطرز بنفس لون النسيج. يزيده جمالاً التطريز والتحريرة بالخيطان المقصبة، ليصبح له خصوصية بين الأثواب الأخرى. كما عرفت كل من تلبس الثوب في لفتا ثوب "الشقفة"، حيث قماشه الحريري من السادة والمخطط والمشغول بفن يجمع أقسامه الطولية، بالغرز والتحريرة التي تضفي على المرأة أنوثة بارزة بالثوب الذي يغازل قدّ البنت الشلبية. وكانت البنات يلبسن هذا الثوب عندما يقمن بجولة في القرية مشياً على الأقدام للدعوة لحضور عرس أحد الأقارب، وتسمع الزغاريد تنطلق أمام البيوت تعبيراً عن المباركة. ولبست النساء ثوب "الملس" من قماش "البفت" المطرز بالألوان الجميلة التي تتداخل على القبة والأكمام والعروق، ويعد هذا الثوب اللباس العملي اليومي.

وبالرغم من عدم إحداث تغييرات جوهرية على "الثوب الفلاحي" التراثي المطرز منذ القدم، فقد أدخلت إليه بعد النكبة بعض التغييرات مثل ألوان القماش كما الخيطان، وأيضاً تضييق الثوب عند الخصر والصدر ليلبس دون حزام وليس كما هو الثوب التقليدي. كما أصبحت غرزة التصليبة واسعة الانتشار في المدينة داخل فلسطين المحتلة وخارجها، وذلك لإبقائها حية، كجزء من التراث الفلسطيني التاريخي الذي يحمل الهوية ويحافظ عليها. وأصبحت نساء المدينة يلبسنه في المناسبات وإن كانت جداتهن "المدنيات" عزفن عن ذلك في الماضي، حيث كان بعض أهل القدس والمدن الأخرى ينظرون للثوب نظرة طبقية أدني من لباس المدينة، لأنه لباس أهل القرى. وقد حاولت السلطات البريطانية خلق تفرقة اجتماعية وسياسية بين أهل المدينة والقرية علها تطبق سياستها " فرق تسد " دون نجاح، ليصبح المجتمع متداخلا ومتكاملاً اجتماعياً بفضل زيادة التعليم والوعي والثقافة والمصاهرة.

الفلاحة تطرز ثوبهابنفسها

وعرفت المرأة القروية في فلسطين بأنها قوية ونشيطة وعاملة في الحقل إلى جانب زوجها، بالإضافة إلى عملها داخل البيت كزوجة وأم وربة بيت. ولم يمنع كثرة العمل ضيق وقت الجدات والأمهات في القرى من تطريز "الثوب الفلاحي" بأنفسهن. وقد تعلمن التطريز منذ نعومة أظفارهن كجزء من التراث، وتعلمته أيضا بنات المدارس القرويات اللواتي يدرسن في القرية أو في مدارس القدس، وإن كن لا يلبسن الثوب كالأمهات. وكن يتلهفن للعطل المدرسية الصيفية لينخرطن في تعليم قطبة "التصليبة الكاملة" أو "غرزة الجوز" التي تعد "راس روس" التطريز الفلسطيني .بالإضافة لتطريز الأثواب كانت الصبايا يحرصن على إنتاج قطع التطريز الجميلة مثل شراشف الطاولة، أو وجوه المخدات، والشالات لغطاء الرأس والمناديل المحبوكة بالخرز الملون لتغطية إبريق الماء أو الزير أو "الشربة" الفخارية، ويحتفظن بها كجزء من جهاز العروس.

وأتقنت نساء قرى القدس مزج الألوان وانتقاء القماش والزخارف وخيطان أل DMC الفرنسية المشهورة بثبات اللون ولمعانه. وكانت متوفرة في دكاكين القدس المتخصصة لبيع جميع أنواع المانيفاتورة وأشهرهم، محل نالبنديان في حارة النصارى، حيث كان البيع بالجملة والمفرق، ومحل جودت أديب الداودي في سوق افتيموس، وإميل خشرم في حارة النصارى، ومحل (أي بي سي) شارع مأمن الله، وكان يبيع كل قطعة بالمحل ب ١٠٠ مليم.

نافست نساء القرى بعضهن البعض على سرعة الإنتاج وهن جالسات "باب الدار" يتسامرن في "الليالي القمرية الكاملة"، يطرزن تحت ضوء القمر، وكأنهن ينقلن جماله من السماء. وعرفت البنات أسماء رسومات "العروق" المتعددة على جانبي الثوب، وكن يحفظنها



طاقية



ثوب أبو قطبة



ثوب غباني

كجزء من ثقافة شعبية تراثية مأخوذة من البيئة وبعضها: عرق الزهور، عرق التفاح، عرق الحية، عرق الورد، عرق عناقيد العنب، عرق ديك الحبش، عرق الحنون، عرق العصافير، عرق المزهريات. وطرزن رسمة أجنبية غريبة عن البيئة، وكان "الأسد المجنح" إحداها، بدأتها المدارس الأجنبية في درس التطريز لبنات المدارس اللواتي نقلنها بدورهن إلى القرية وكانت هذه القطع تعلق على الحائط كزينة كان بعض شيوخ القرى لا يسمحون لنسائهم رسم الطيور على الأثواب.كان بين مقتنيات شقيقتي الكبرى عريفة التي درست في مدرسة السلزيان في المصرارة قطعة تطريز جميلة عليها رسوم غير تلك التي تستعمل لتطريز الاثواب .

محل نجمة خروفة للتطريز

كانت نجمة خروفة من بيت جالا صديقة أهل القرى القريبة من القدس. فمحلها لخياطة الأثواب وتطريزها يقع داخل المدينة العتيقة في الدباغة في حارة النصارى. كان محلها كثير الزوار والزبائن سواء لتفصيل الثوب قبل التطريز أو خياطته بعد التطريز، أو لإضافة التحريرة، أو تعبئة الرسمات على القبة والجوانب بالخيط المقصّب الذهبي. أتقنت نجمة عملها الفني والتجاري فقد كانت توزع التطريز على بنات بيت جالا وبيت لحم، وكانت تشغّل أكثر من خمسين سيدة من ربات الأسر، لترفد محلها المركزي في القدس بالبضاعة. ونجحت نجمة في جعل محلها أشهر المحلات التجارية التي "تديرها امرأة" في وقت كانت أكثر النساء لا يعملن في التجارة وإن كانت شقيقتها بديعة تساعدها. ويتذكر ابن أختها بشارة خروفة الذي كان يساعدها أيضاً في المحل ولم يتجاوز عمرة ١٤ عاما. وشهد مع أمه "وجدته كيف تمكنت نجمة من الحفاظ على التراث الفلسطيني وتطويره وهي تخيط "الثوب الفلاحي" الشعبي وإسعاد العرائس بمزج الألوان الجميلة بخيوط ذهبية.

وكدّست نجمة في محلها المكون من طابق أرضي وسدة أنواعاً مختلفة من الأقمشة الكتانية والقطنية، والحريرية والمخملية والتفتا، وقماش الغباني، والبفت والتيبت. كما كانت تحتفظ بالأقمشة التقليدية الأصلية التي تُحاك على النول في غزة والمجدل وبيت لحم. بالإضافة فقد استوردت الخيوط والأقمشة من مصر ودمشق وحلب وحمص، حيث كانت تصنّع خصيصاً للسوق الفلسطينية. ومن فرنسا وبريطانيا. وعرفت " نجمة"طلب النساء من الأقمشة ذات الألوان المختلفة التي تستعملها القرويات في جميع المناطق الفلسطينية بعضها من اللون الأزرق أو الأبيض أو البني وغيرها، بالإضافة للأقمشة من اللون الأسود وهي الأكثر انتشاراً لاستعمالها في الأثواب العملية اليومية (كالبفت والحبر). وكان في الطريق لمحل نجمة عدة محلات لبيع الأقمشة والخيطان التي تصلح للتطريز، ومنها محل محمد توفيق عثمان في سوق العطارين ت (١٢٤٢) وله فرع في الشام. وكذلك محل صروب نالبنديان



شهادة تقدير لنجمة خروفة

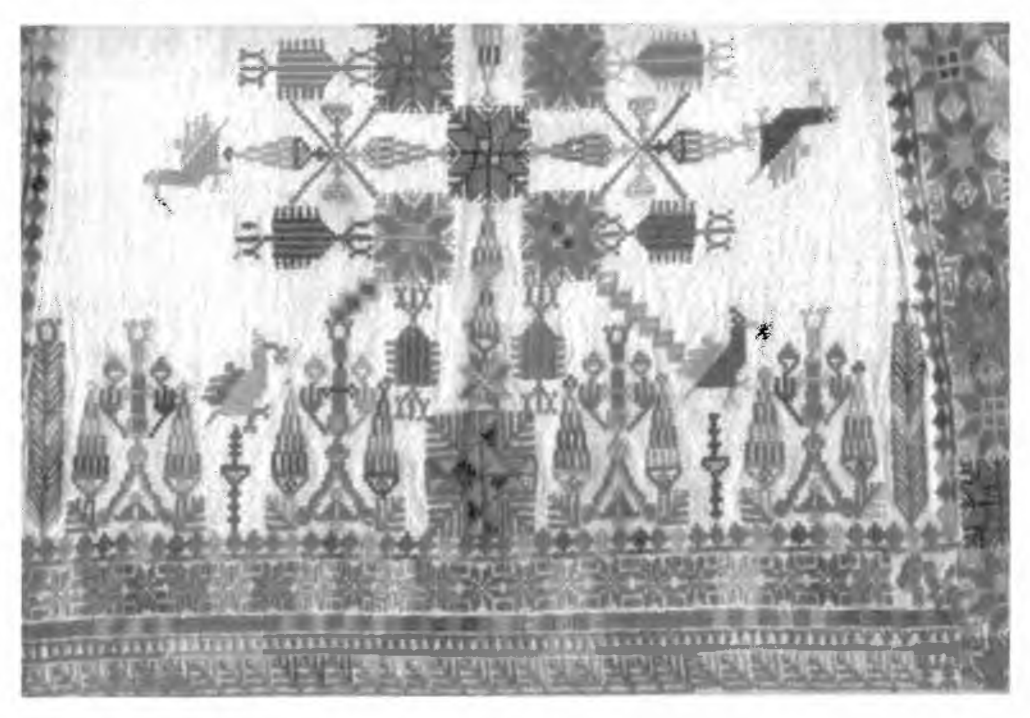


نجمة خروفة في شبابها



نجمة خروفة توفيت
في التسعين





في حارة النصارى الذي كان يبيع خيطان DMC الفرنسية، بالجملة والمفرق.كانت كثير من محلات المانيفاتورة في حارة النصارى تغري النساء بالتسوق لشراء ما يحتجنه من أدوات الزينة والعطورات من محل أنطون النحاس، وإبراهيم نزهة القريب من محلات الألبسة الداخلية والكلسات والروائح العطرية، والنثريات، وكافة أنواع الخردوات من محل كارابيد ماركريان، ومن محل موسى رامز عبده. وجذبت محلات عبد الودود رصاص النساء في الطريق لشراء الجورنالات الباريسية التي كانت تبيعها. وكذلك محل محمد صدر الدين الدجاني في سوق افتيموس (ص.ب) ١٠٢٦ تلفون ١٥٦ الذي كانت تتردد عليه البنات لشراء مواد شغل الإبرة ومستلزماتها التي كانت تدرس في المناهج المدرسية .

ولم تكن نجمة خروفة إنسانة منتجة وصانعة الأثواب والتطريز وحارسة التراث فحسب، بل كانت موضع ثقة ومحلها أيضاً مركزا لأهل القرى وعنوانا وطنيا داخل المدينة العتيقة. فقد حصلت على الميدالية الذهبية من المعرض العربي الصناعي الذي شاركت فيه ١٩٣٤ في القدس تقديرا لعملها في هذا المجال. بالإضافة إلى ذلك، كانت موضع إعجاب وثقة من رجال ونساء القرى الفلسطينية القريبة من القدس ومقرّبة من الوطنيين من بينهم المناضل يحيى حمودة وعائلته من لفتا.ونظرا لوطنيتها فقد دعمت المجاهدين بتبرعات سخية كما يروي ابن أختها بشارة خروفة. ويقول أنها زودت المناضل "أبو دية" من منطقة الخليل بسلاح رشاش. وشهد لها الشهيد عبد القادر الحسيني كرمها بدعم المناضلين ضد الصهيونية قبل أن يستشهد في معركة القسطل إذ قال: "لو وجد من أمثال هذه السيدة عشرين لما ضاعت فلسطين". وتعزز كرمها عندما قامت بتوزيع "القماش" من محلها على النساء بعد معركة القسطل أثناء تشردهن. وأنزلت في بيتها عائلات من أعيان المالحة بعد لجوء أهل القرية لبيت جالا، حتى تمكنوا من إيجاد منزل لهم. وقام أهالي قرية أبو غوش بوضع سلاحهم ومالهم وذهب نسائهم حتى ردتها بأمانة. ويتذكر بشارة خروفة خالته نجمة، حيث طلبت من العائلة قبل مماتها أن يسامحوا من ترتب عليهم ديون لها. ويقول بفخر: "زارها جمال عبد الناصر وايضاً صلاح سالم في بيتها في بيت جالا أثناء وجود الجيش المصري في فلسطين عام ١٩٤٩ وأعجب بإحدى سجادات الحائط وقامت بإهدائها له."[٣٨] وأصبحت نجمة قدوة للمرأة العاملة .وظهرت نساء في بيت لحم عملن في التجارة في الوقت الذي كان هذا العمل محصورا بالرجال، وكان هناك محلات لبيع الأقمشة المستوردة من سوريا، وقد ساهمت النساء في إعالة عائلاتهن من مهنة التطريز والخياطة، وخاصة بعد النكبة حيث أصبح الاهتمام بالتراث واضحاً واسرائيل تحاول سرقته وتطويره ليصبح رمزاً للهوية.

٣٨ مقابلة مع بشارة خروفة بيت جالا، فلسطين ٢٦/٥/٢٠١٠، بالتلفون.

أثواب عيوش إسماعيل حمودة (لفتا)

وعرفت نساء قرى القدس محل نجمة خروفة الأشهر في صناعة الثوب الفلسطيني وإنتاجه لتصبح جزءاً من ذاكرة القرى ونساء اشتهرن بأناقة ثوبهن. إحدى أهم زبائن نجمة كانت عيوش إسماعيل حمودة من قرية لفتا وهي شقيقة المناضل يحيى حمودة. وكانت معروفة بجمالها وكرمها، ولحبها لكل ما هو جميل وقيّم، وكأنها فنانة ومصممة أزياء ذات ذوق رفيع. وتميّزت البنت الشلبية العزباء باعتنائها بهندامها وأثوابها المتعددة طوال حياتها. وكان أهل قريتها ينظرون إليها بإعجاب ولشخصيتها القوية الحاضرة دوماً. ولبست الثوب البني المطرز بالتحريرة المقصبة فقط، والثوب الأبيض المطرز بالأزرق الفاتح والغامق والكحلي المطرز بالخرز الملون، المخمل الأسود الحريري المطرز بالأحمر "وبخيطان الذهب". وكان يميّز لبسها لون الحذاء المتناسق مع لون الثوب. وكانت تفصّله عند محل هوسب شوهمليان في حارة النصارى أو شرائها جاهزة من محل كيروز في شارع مأمن الله. أما مصاغ نساء لفتا، بشكل عام في المناسبات فكان دبوس الذهب "العثماني"، والأساور، والسليتات والخواتم الذهبية المزينة بالفصوص الملونة، وكذلك الأقراط الذهبية المتلائمة مع الدبوس.

أصبحت عيوش قوية الشخصية مرجعاً وقدوة لنساء الحمولة.كانت تصطحب عرائس العائلة لمحل نجمة، لانتقاء جهاز العروس وظلت في ذاكرة العائلة قصصا منها عندما اصطحبت "سبع عرائس" من العائلة دفعة واحدة، خاصة وكانت تختار وتسمي العرائس والعرسان من الأقارب لبعض دون رفض اقتراحاتها. وغنّت بصوتها الجهوري لتردد الصبايا وراءها في أعراس العائلة ما كانت تؤلفه من أهازيج شعبية في كل المناسبات وتقول:

قومي ارقصي قدام الناس

يا فضة ما فيك نحاس

حطوا عالنخلة مناديل الحرير

ظهرك يا عروس ريته ما يميل

طاحت النخلة ترقص ما تقع

حطوا عالنخلة مناديل الودع

ظهرك يا عروس ريته ما يقع

وغنّت عيوش لأخيها يحيى حمودة، مباهية بمركزه الاجتماعي:

يا ذهب عراسي يا ذهب

وانت سيد الناس يا خيّ يا ذهب

يا أبو إسماعيل طيحتك عالقدس غيّة

وراك دولة وقدامك أفندية

يا ذهب عراسي يا ذهب

طيحتك عالقدس ماشي

وراك دولة وقدامك أفندية [٣٩]

وتشير في غنائها إلى "الطاقية الذهب" التي كانت بنات العائلات الموسرة يقتنيها للدلالة على المنزلة الاجتماعية وهي طاقية مطرزة ومرصّعة بالليرات الذهبية العثملية، لبستها النساء للمفاخرة خاصة إذا كانت ابنة أو زوجة المختار أو زعيم الحمولة. وقد اقتنتها كثيرات من بنات القرى، وكانت جزءاً من جهاز عرسهن. أما نساء الطبقة الوسطى فكن يلبسن المصاغ المصنوع من الفضة، ومنها "الطاقية" المزينة بالليرات العثملية الفضية، وقد انتشرت في أماكن كثيرة من قرى وبوادي فلسطين.

وغنت عيوش حمودة لأخيها عندما حصل على شهادة الحقوق من الجامعة الأمريكية في بيروت بعد أن درس في معهد الحقوق في القدس، وقالت بفرح رددته النساء وراءها :

تليّا يا شعر الحيّة ع إيديّ شهادة لأبو إسماعيل ولها هيّة

وغنت له عندما أصبح محاميا يمارس المهنة في محاكم القدس :

بعيني شفت أبو اسماعيل باب السرايا حوّل

وكل الدول والحكام تندهله يا محامي أول

بعيني شفت أبو اسماعيل عالمسكوبية هوّد

سبع مضّى كلامه زغريتيله يا حمودية

---

٣٩ من ذاكرة صدقية ووجيهة ابنتيه (مقابلة في عمان بتاريخ ١٥/٤/٢٠١٠)

عرف يحيى حمودة ب أبو إسماعيل اسم جده الذي سمي به كما العادات والتقاليد، وكان الولد الوحداني بين أختين فطوم وعيوش .





شما النجار من لفتا زوجة عبدالله العمري من بيت صفافا



عيوش حمودة بالثوب الأبيض المطرز باللون الأزرق



رسمات لها أسماء للأثواب القروية الجميلة

وعرفت بين النساء القرويات في "كل حمولة" امرأة قوية الشخصية اعتبرت بمثابة "زعيمة"، لها منزلتها، وتستشار من نساء العائلة والحمولة. وعادة كانت هذه الشخصية تستمد منزلتها من منزلة والدها أو أخيها خاصة إذا كان له مركزاً اجتماعي أو سياسي. وعرفت شمّة إسماعيل النجار أيضاً من لفتا حمولة العيّدة بجمالها وأناقة ملبسها وبرزت بشخصيتها القوية "الدبلوماسية"، مما جعل لها مركزاً خاصاً في العائلة، خاصة وهي ابنة زعيم الحمولة الحاج إسماعيل النجار وشقيقه المختار على إسماعيل النجار. وقد أصبحت مرجعاً لحل مشاكل النساء. تزوجت عبدالله العمري من بيت صفافا، وكان من المتعلمين ووجهاء قرية بيت صفافا، يملك محلاً لبيع الأقمشة المستوردة من أوروبا في شارع مأمن الله. واستمرت شما بلعب هذا الدور القيادي في مجتمعها الجديد في بيت صفافا.وكانت العائلات القروية حول القدس وخاصة شيوخها ترتبط بعلاقات النسب والزواج .

وتغنّت بنات قرى القدس، وعين كارم القرية الخضراء الجميلة بالثوب المطرز التي تعتز به من تلبسه وقلن فيه:

خلعت ثوب مطرز	لبست ثوب مطرز
يا عين تعال تفرج	على زفة العشارمة
لبست ثوب خضاري	خلعت ثوب خضاري
تفضلوا يا جواري	على زقة العشارمة *

---

* «العشارمة» باللهجة الفلاحية، أي العكارمة نسبة إلى قرية عين كارم الجميلة القريبة من القدس. واللهجة مشتركة بين قرى قضاء القدس

للمزيد عن ثوب المرأة القروية وداد قعوار وتانيا تماري ناصر، «غرزة الفلاحي التقليدية» و عبد السميع أبو عمر، « التراث الشعبي الفلسطيني، تطريز وحلى، » القدس،١٩٨٧، وعبد الرحمن المزين، «موسوعة التراث الفلسطيني» «: الازياء الشعبية الفلسطينية «، ١٩٨١، وليلى الخالدي « فن التطريز الفلسطيني، دار الساقي، ١٩٩٩ (بالإنجليزية.)



الفصل العاشر

الصحافة الفلسطينية
مرآة المجتمع


فلسطين


العرب


الكلية العربية


الجامعة العربية
Al-Jami'a Al-Arabia
JERUSALEM PALESTINE


صوت الحق


مجلة روضة المعارف


مرآة الشرق
MERAAT AL SHERK


الزهرة


مجلة دار المعلمين

١٠

لعبت الصحافة الفلسطينية منذ مطلع القرن العشرين دوراً فاعلاً كمنبر سياسي وثقافي واجتماعي ووسيلة للتعبير عن الرأي العام والرأي المعارض للسلطة البريطانية، والحركة الصهيونية. وتجلى ذلك الدور منذ نشأتها بعد صدور الدستور العثماني (١٩٠٨)، إذ لم يكن في فلسطين صحافة قبل هذا التاريخ. وكان الناس يعتمدون على صحافة بيروت ودمشق والقاهرة التي كانت متطورة ولعبت دوراً بارزاً سياسياً ووطنياً تزامن مع اليقظة العربية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت مصر السبّاقة بسبب تطور وسائل الطباعة الحديثة التي أدخلت إليها مع غزوة نابليون ١٧٩٨، ثم مع بروز محمد علي الكبير. برزت بين الصحف التي صدرت في مصر في أواخر الحكم العثماني صحف هامة منها: **الأهرام**، **المقطم**، **المنار**، **المقتطف**، **الهلال**، **المؤيد**، **الجريدة**، و**القلم**.

صحافة قوية

وفي المجتمع الفلسطيني الذي كان متشوّقاً لصحافة خاصة به، ظهر عدد كبير من الصحف الفلسطينية مباشرة بعد صدور الدستور العثماني (١٩٠٨). كان أبرزها جريدة الكرمل ١٩٠٨ لصاحبها نجيب نصّار (حيفا). وهي من بين الصحف الرائدة في فلسطين وأول جريدة تصدّت للصهيونية وفضحت خطرها ونواياها الاستعمارية. نافستها جريدة **فلسطين** عام ١٩١١، لصاحبها عيسى العيسى (يافا) وشجّعت السياسيين والمثقفين للكتابة على صفحاتها، حيث انبروا لرفض أهداف الصهيونية. وقد اقتبست الصحف العربية المقالات عنها لترفع الروح الوطنية بين الناس. وجاء في مقالة للشيخ سليمان التاجي الفاروقي في جريدة فلسطين (٨ نوفمبر ١٩١٣) تحت عنوان: "خطر الصهيونية" أثارت غضب العثمانيين، ونشرت قصيدة كتذييل يشير فيها إلى نجيب الأصفر الذي طلب امتياز الأراضي المدورة أو الجفالك نيابةً عن شركة صهيونية جاء فيها:

بني الأصفر الرنانُ خلوا خداعنَا — فَلسنا عن الأوطانِ بالمال نخدعُ
يهودٌ وما أمرُ اليهود بخائــلٍ — لكنّه شعبٌ له المال أجمــعُ
أيُرضيك يا ذا التاج أن بلادنا — على مشهد منا تُباعُ وتنـزعُ

أثبتت الصحافة الفلسطينية منذ نشأتها وحتى نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين، أن لها دورًا وطنيًا وهي أيضا منبرٌ للمثقفين والسياسيين للتعبير عن آرائهم، وكانت مرآة تعكس الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بما فيها وضع المرأة. ولم يقتصر النشاط الصحافي على السياسيين وقادة الرأي العام، بل شارك الأدباء والمبدعون والمربون، الذين هبّوا للدفاع عن اللغة العربية لإعلاء شأنها بعد أن همّشت تحت الحكم العثماني. ونشأت مجلات أدبية رائدة هي "الأصمعي" لصاحبها عبدالله العيسى في القدس (١٩٠٨) أولها، شارك في تحريرها المربي خليل السكاكيني. وفي السنة نفسها ظهرت النفائس العصرية في(حيفا) التي أسّسها خليل بيدس، وقد استمرت بالصدور لتغيب في سنوات الحرب العالمية الأولى، وتعود في زمن الانتداب البريطاني وتعيش حتى عام ١٩٢٤. واستقطبت هذه المجلة الأدبية أقلام الأدباء والشعراء ومنهم: خليل السكاكيني، إسكندر الخوري البيتجالي، ونخلة زريق، وسليم اليعقوبي، أديب العربية، كما كتبت على صفحاتها مي زيادة وكلثوم عودة، وإسعاف النشاشيبي، وعيسى العيسى وغيرهم. وتميز أول عدد من مجلة المنهل الأدبية (المنهل) لصاحبها محمد موسى المغربي أنها ظهرت، بأربعين صفحة، مما يدل على اهتمام الفلسطينيين بالصحافة الأدبية التي كان لها أيضاً دور سياسي وطني.

لعبت الصحافة السياسية والكتّاب الوطنيون دوراً وطنياً ملموساً. فقد مجّدت ثورات القدس ١٩٢٠ و يافا ١٩٢١ وهبّة البراق١٩٢٩ في القدس، وثورة القسّام ١٩٣٥ التي سميت "بثورة الفلاحين"، ثم الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩ التي اشتركت فيها كل فئات الشعب الفلسطيني لرفض وعد بلفور والحركة الصهيونية حتى عام النكبة ١٩٤٨. بالإضافة إلى ذلك، عالجت الصحافة قضايا المرأة المختلفة التي اهتم بها المثقفون[٤٠].كان الاهتمام بالصحافة يزداد عندما يثور الشعب على المستعمر، وعلى سياسته في تسريب الأراضي لليهود في العشرينيات، لرفض وعد بلفور، والتمييز بين العرب واليهود في الوظائف وارتفاع نسبة البطالة والفقر بين العمال العرب. بالإضافة إلى ذلك كانت صحافة العشرينيات تدفع الناس لمتابعة أخبار الإحصاءات التي أجرتها السلطة عام١٩٢٢، والتي أظهرت أن عدد السكان العرب من مسلمين ومسيحيين بلغ (٦٤١ر٦٦٠) نسمة، وهم الأكثرية و (٧٩٠ر٨٣) يهودياً و (٦١٧ر٧) أخرى، وكان اليهود يحاولون زيادة النسبة ليؤسسّوا معلومات خاطئة وليحاولوا إثبات أن عددهم كبيرًا .

وفي الثلاثينيات، لعبت الصحافة دوراً ريادياً في التعبير عن الرأي العام. وأصبحت أداة تخيف السلطات البريطانية التي وضعت القوانين الجائرة لقمعها، كما في قانون عام (١٩٣٣).

---

٤٠ هذا الفصل يعتمد على كتاب عايدة النجار، صحافة فلسطين والحركة الوطنية في نصف قرن ،(١٩٠٠–١٩٤٨). المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥.

ورغم ذلك أثبتت الصحافة وجودها، خاصة وقد أصبحت أكثر التزاما من صحافة العشرينيات في لعب دور وطني. ساعد على ذلك تفوق صحافة حزبية تمثل الأحزاب السياسية التي أنشئت بين (١٩٣٢-١٩٣٥). وحاولت الصحافة بشكل مستمر تقريب وجهات نظر الأحزاب رغم خلافاتها المستمرة وتنافسها على الزعامات. وسلطت الأضواء على أهداف الأحزاب ١٩٣٥وهي: إيقاف الهجرة اليهودية، وتحريم نقل الأراضي، والمطالبة بتشكيل حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس منتخب.

وفي سنين الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩ كان للصحافة دورٌ قيادي في تحفيز الشعب للثورة التي أصبحت مشتركة بين جميع طبقات الشعب، فكانت سيدة الموقف بالدعوة لإضراب الست شهور. وكثيرا ما عوقبت الصحافة بالإغلاق بسبب الكتابات الوطنية واعتقال الصحافيين والوطنيين الذين كانوا جزءًا من القيادة والثورة. ونشرت الصحافة نعي الشهداء والشهيدات اللواتي شاركن في الثورة التي أجهضت مع الأسف بعد أطول إضراب في التاريخ استمر لمدة ١٧٦ يوماً.

ولوحظ أن أجندة الصحافة الوطنية في الأربعينيات قد تغيرّت في زمن الحرب العالمية الثانية في بيئة جديدة عرفت بمرحلة "الركود والهزيمة". وقد شهدت هذه المرحلة مزيداً من خيانة بريطانيا للعرب، إذ قامت بتدريب اليهود على حمل السلاح، مما ساهم في زيادة عدد المنظمات اليهودية الإرهابية السرية والعلنية حتى أصبح عدد المنضمين إليها ٣٧ ألف عنصر خدمت في الجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية. بالإضافة إلى ذلك ارتفعت نسبة المهاجرين اليهود لفلسطين من ٣٪ عام ١٩٣٠ إلى ١٦٪ عام ١٩٣٩، مما ساهم في ارتفاع نسبة البطالة بين الأيدي العاملة الفلسطينية، ومع ذلك ظلت النسبة الإجمالية لليهود من مجموع السكان أقلية، إذ بلغ عدد سكان فلسطين عام ١٩٤٣، ما مجمله ٥٧١ر٦٧٦ر١ منهم ٥٠٠ يهودي، وهذا يشكل نسبة ٣٠٪ فقط، بينما السكان العرب ٦٧٪ من المسلمين و ٣٪ من المسيحيين ومذاهب أخرى[٤١].

وفي الأربعينيات أيضا ورغم ظروف الحرب والمستجدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية،ظل أهل فلسطين من صحافيين وسياسيين وأدباء وكتاب وشعراء، يهتمون بالصحافة، وبإصدار صحف جديدة، وسجّلت الفترة بين (١٩٤٠-١٩٤٧) صدور ٣٧ ترخيصا لصحف ومطبوعات جديدة. وتوزعت الصحافة بين السياسية والأدبية والاقتصادية والعمالية وصحافة الشباب القروي.

---

٤١ ابراهيم أبو لغد، تهويد فلسطين، إعداد وتحرير وترجمة أسعد رزق.









صحافيون (يمين) داوود العيسى ، هاشم السبع ، هاني هاشم ، عزمي النشاشيبي

صحافة نسائية

لم تصدر صحف نسائية متخصصة في فلسطين كما في سوريا، ولبنان، والعراق ومصر، إلا أن الصحافة الفلسطينية الأدبية والسياسية والاجتماعية فتحت صفحاتها لأقلام النساء في العشرينيات لتخلق "صحافة نسائية" تشارك بها المرأة والرجل حول قضايا المرأة الاجتماعية بين مؤيد ومعارض. وخصّصت بعض الصحف العريقة صفحة أو أكثر للمرأة، وأهمها **الكرمل** لنجيب نصار تأسست (١٩٠٨) واستمرت لتصبح زوجته ساذج نصار رئيسة التحرير بين (١٩٤١–١٩٤٤). وجريدة **ومرآة الشرق** (١٩١٩–١٩٣٩) لصاحبها بولس شحادة، ونشطت زوجته ماري صروف شحادة بالكتابة فيها وتحريرها، وجريدة **فلسطين** لمؤسسها داوود العيسى عام ١٩١١، توقفت ثم عادت كبقية الصحف بعد الحرب الأولى تحت الانتداب البريطاني ١٩٢١. وظلت تصدر حتى عام ١٩٤٨ وقد أنشأت الجريدة زاوية "الشؤون الاجتماعية" وخاصة قضايا المجتمع والمرأة. بالإضافة إلى ذلك ظهرت المقالات والحوارات والموضوعات المتعلقة بالمرأة في صحف **الجامعة العربية، والجامعة الإسلامية، والصراط المستقيم، والدفاع**، وكذلك في المجلات الأدبية ومنها **الزهرة**. ونشرت الصحف أراء متباينة حول مواضيع كانت قابلة للجدل. وساهمت الصحف بإيصال رسالتها في زمن كانت معالم التغيير الفكرية والثقافية والاجتماعية تسير بتسارع في بيئة جديدة وسلطة سياسية بريطانية أثرت على الناس سلباً وإيجاباً.

كانت القدس تحت حكم الانتداب البريطاني تعتبر كعاصمة "فلسطين الانتدابية"، وبَرزت كأنشط المدن سياسياً واجتماعياً، بالإضافة لنهضة صحافية واسعة، تركّزت فيها بعد أن نقلت بعض الصحف من يافا وحيفا اللتين كانتا تحتضنان الصحف المرموقة. وقد صدر في القدس في هذه المرحلة التاريخية ما يزيد على ٩٩ صحيفة ونشرة سياسية وأدبية واقتصادية وشبابية، مما ساعد على تشجيع الناس أن يقرأوا الزوايا والصفحات المخصّصة للحياة الاجتماعية والمرأة، بالإضافة للأخبار والتحليلات السياسية. ولاهتمام أهل القدس بالجريدة التي تنقل الأخبار بدا وكأنهم يتسابقون كل صباح لشرائها من محل فايز العلمي في باب الخليل، أو محل يوسف البلبل، أو من المكتبة المصرية لصاحبها محمد السيد قطارنة في باب خان الزيت، أو من المكتبة الجديدة لصاحبها توفيق جريس ناصر في الباب الجديد. وكثيراً ما تواجدت النساء في هذه المكتبة التي كانت تبيع الكتب والروايات العلمية والأدبية ودواوين الشعر، وكذلك الجورنالات الشهرية النسائية للموضة لتلبية طلبات البنات اللواتي كن يتعلمن التفصيل والخياطة التي أخذت بالانتشار في الثلاثينيات. وكان هذا الاهتمام بقراءة الصحف من المثقفين جزءاً من حياتهم اليومية التي يحرصون فيها لمعرفة ما يجري في البلاد تحت الانتداب البريطاني. وكان من يقرأ الجريدة ويحملها أمام الناس كأنه يفاخر أنه متعلم وينظر إليه نظرة احترام. بالإضافة إلى ذلك كانت المقاهي تجمع الكثيرين من الأميين ليقرأ لهم أحد المتعلمين. كما كان الطلاب في القرى



Another Sharp Weapon　　　　سلاح المرأة



The man of the two wives
JOHN BULL
الرجل ذو المرأتين

On the way to Palestine　　　　وايزمن يسوق حماره

من الصحافة الفلسطينية صور كاريكاتورية توضح فضائح المرأة اليهودية مأخوذة عن الصحف الانجليزية

يقرأون للأهل غير القادرين على القراءة حرصاً على تتبع الأخبار السياسية الهامة، التي كانت تقلق الناس بسبب السياسية البريطانية المتحيّزة للصهيونية.

نساء تقرأ وتكتب للصحافة

ورغم واقع المرأة التعليمي والاجتماعي الذي ينمّ عن حاجة للتغيير والانفتاح، فقد أصبحت الآراء المتعلقة بالمرأة على صفحات الجرائد تقرأ من الرجال والنساء المتعلمين، وتناقش بين الطبقات الاجتماعية البرجوازية والشعبية على حد سواء، مع حراك اجتماعي نشط. وكانت قلة من النساء قد بدأت بالكتابة في الصحافة بتشجيع من الجرائد نفسها التي اهتمت بقضايا المرأة. وتحت أسماء مستعارة كتبت بنات لهن الاستعداد للعمل العام والغيرة على وضع المرأة. وكان هذا التنكر للأسماء الحقيقية بدافع خوف من الأهل أو انتقادات الذين لا يؤمنون بحق المرأة في التعبير عن الرأي. وظهرت أقلام نسائية وإن لم يكنّ صحفيات قرأت لهن النساء والرجال بشكل متواصل ومستمر.

فقد تشجعت "قارئة" هي الآنسة فكرية صدقي من مدرسة في القدس باقتباس مقالة عن "المقطم المصرية" نشرتها جريدة فلسطين ١٩٢٧ لتلفت النظر ولتنتقد فيها عدم خوض النساء بالكتابة في الصحف وتركها للرجل ليقوم بهذا الواجب. وتضمّنت المقالة مثالاً إيجابياً عن المرأة المصرية، وضّحت فيها كيف بدأت السيدة عائشة التيمورية بوضع الأسس لهذه النهضة النسائية، وتبعتها في ذلك باحثة البادية، ومي زيادة، وهدى شعراوي، ومنيرة ثابت وغيرهن. وحثّت الكاتبة بنات فلسطين "أن يرتقين السلم درجة درجة... وأن لا يقفزن السلم مرة واحدة". هذا الرأي وأمثاله حفّز الترحيب بالمرأة للكتابة على صفحات الجرائد وشجّع النساء لشحذ أقلامهن التي أصبحت ملموسة كما أقلام الرجال الذين استمروا في الكتابة المتعلقة بالمرأة والحياة الاجتماعية والسياسية. بالإضافة للكتابات السياسية والوطنية وبتشجيع من الأهل في بعض العائلات نشطت البنات للمشاركة، وإن كان بشكل متواضع لسماع المحاضرات الثقافية والجلوس جنباً إلى جنب مع الرجال في القاعات الأدبية. وضربت الآنسة "فكرية صدقي" مثالاً في الجرأة، وقد حضرت محاضرة في جمعية الشابات المسيحية للأديب أمين الريحاني المقيم في حيفا جعلتها شمس ذلك النهار لمن كان يحبذ الاختلاط، وصفتها جريدة **فلسطين** "بالفتاة المسلمة الناهضة"، التي خرجت من الحفل "مرفوعة الرأس"، خاصة وأن المندوب السامي كان متواجداً مع زوجته. وفي كلمته أمام الحفل وجّه الكلام للآنسة قائلاً: "أيتها المرأة المسلمة، وأيتها الآنسة فكرية صدقي، أنت أول فتاة فلسطينية مسلمة طالبت برد حق المرأة الفلسطينية في الوجود، إنك تجتازين اليوم دوراً من أشق الأدوار... اطلبي وأخواتك من هيئة "المجلس الإسلامي الأعلى" منع تعدد الزوجات. وكانت هذه المناسبة فرصة خبيثة

للمندوب السامي للتدخل في المجتمع الفلسطيني ومناقشة ما يتعلق "بالزواج" وبالشريعة الإسلامية وبالعادات والتقاليد وانتقاد التقليديين.

وبالمقابل، ظهر اسم آنسة أخرى هي فاطمة فهمي التي دعت البنات للكتابة في جريدة **الجامعة العربية**، وكانت تؤكد على أهمية تربية الفتاة وضرورة تمسّكها بالتعاليم الإسلامية، والعادات التقليدية مخالفة بذلك آراء "الرجال المثقفين" الذين كانوا يحاولون تشجيع الأهالي على عدم القبول بحصر تعليم البنات بدروس التدبير المنزلي والتوعية الصحيّة. بالإضافة فقد رفضت الآنسة فاطمة تعليم البنات "اللغات الأجنبية وحفظ الأشعار ومعرفة الأخبار والعلوم الرياضية". ورأت في ذلك استظهاراً يجلب عليهن ومن يعيش معهن شقاء، لأنهن يرين من أنفسهن أرقى مقاماً وأرفع قدراً من أن يشاركن أعمال بيوتهن، ويلاحظنها بأنفسهن وينصرفن إلى قراءة الروايات واستظهار الخرافات في الصحف والمجلات". وظهرت مثل هذه الأفكار لدى بعض الرجال والنساء في الوقت الذي أقبلت بنات القدس وبعض المدن الأخرى على تعلّم اللغات في المدارس الأهلية والأجنبية، وخاصة بنات الطبقة البرجوازية، وبنات السياسيين والزعماء والمثقفين. وكان بين الأمهات حتى "الأميات" نساء يقُلن بمباهاة وفخر وهن مزهوات بزينة إضافية للبنت الشلبية:

- بنتي بتدرس في مدرسة الشميت في باب العامود، وهي تعرف الإنجليزية والفرنسية والألمانية.

- بنتي بتحكي الإيطالية والفرنسية والإنجليزية، فهي تدرس في مدرسة السلزيان في المصرارة، وأيضا تتعلم العزف على البيانو.

- ابني في مدرسة الفرير، وهو يتعلم الإنجليزية والفرنسية.

- ابني بيدرس في مدرسة سانت جورج وهو يتكلم الإنجليزية بطلاقة مثل المندوب السامي وزوجته. وكان الكلام الأخير لأمي التي كانت فخورة بابنها وتعده " أحسن من المندوب السامي" كما كانت فخورة بابنتيها الكبيرتين عريفة التي كانت تدرس في مدرسة السلزيان وتتكلم اللغات الإنجليزية والفرنسية وتعزف على آلة البيانو ورفقة التي كانت تدرس في مدرسة الشميت الألمانية. كانت المباهاة بمعرفة اللغة الأجنبية تمنح البنت والولد صفات إضافية ليصبحوا أكثر تميّزاً، وتبدو البنت أكثر جمالا، ولتصبح فعلاً "شلبية" في نظر البعض.

رائدات الصحافة النسائية

أثبتت بعض النساء المثقفات أنهن قائدات رأي عام بطريقة غير مباشرة وأنموذجا لنهضة المرأة "وتوعية الرجل" فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية والثقافية. وبرزت صحافيات "مهنيات" سجّلن أقلامهن ومواقفهن حول مفهوم جديد للمرأة الشلبية، ليساهمن في تغيير الصورة النمطية السلبية للمرأة بشكل عام.

ماري شحادة

عملت ماري صروف شحادة في الصحافة الفلسطينية، منذ أن تزوجت بولس شحادة صاحب جريدة **"مرآة الشرق"** التي أنشأها عام ١٩١٩ باللغة العربية والإنجليزية. ونشطت ماري شحادة بالكتابة الصحافية متأثرة بوالدها الصحفي اللبناني فؤاد صروف. وقد بدأت اهتمامها بصحافة المرأة ممثلة في "مجلة العروس" اللبنانية لصاحبتها ماري عجمي. وأبدت جرأة وهي تواجه رفض السياسة البريطانية في محاضراتها التي كانت تلقيها في المدن الفلسطينية في الثلاثينيات وتنتقد اهتمام المرأة بالموضة وتقليد الغرب، دون احترام للعادات والتقاليد. كانت مقالات ماري شحادة تعبّر عن وعي وثقافة غير متعصبة، وتكتب عن دور المرأة في الإسلام. ونشرت الجريدة لها عن الموضوع عام ١٩٣١، سلسلة من ثلاث مقالات.

ولم يمنع زميلتها متيل مغنم "المسيحية" أيضا أن تقول في كتاباتها الصحفية مفاخرة بالمرأة المسلمة: "نحن بنات النساء اللواتي كان لهن دور في الجهاد مع أزواجهن في الماضي". هذا رغم كتابات لها كانت تشجع النساء بأن يتحررن كما المرأة الأوروبية، وبشكل خاص البريطانية التي كانت معجبة بها. وقد يكون السبب كونها وزوجها، كانت لهم علاقات اجتماعية وصداقات قوية مع الجاليات الأجنبية في القدس.وقد تأثرت بالمرأة الغربية من حيث الملابس الغربية الأنيقة، ولم يمنعها ذلك أن تكون فاعلة في الحركة النسائية وإحدى العاملات النشيطات في المظاهرات الوطنية، بالإضافة للمشاركة في مؤتمرات المرأة عام ١٩٣٨، و ١٩٤٤، وترؤس اللجان.

غيّرت "مرآة الشرق" سياستها بشكل واضح في الثلاثينيات لتكون أكثر قرباً من الحركة الوطنية ومن القراء في سنين الثورة الفلسطينية ١٩٣٦-١٩٣٩ وكانت تعبّر عن رأي "حزب المعارضة" الذي يتزعمه راغب النشاشيبي المتنافس مع "حزب المجلسيين". وفي هذه المرحلة لعبت الصحافة الحزبية الفلسطينية دوراً وطنياً موحداً وملتزماً لمواجهة السياسة الانجلو/صهيونية خاصة، وأصبحت الصحافة الفلسطينية أداة فاعلة لتحريك الرأي العام ضد السلطات. ويبدو أن هذا الجو الحماسي دفع بولس شحادة لأن تكون جريدته منبراً لدعوة

"الشباب العربي إلى الثورة على البغي والتمرد قبل أن تغلق الجريدة عام ١٩٣٩، إلى أجل غير مسمى" بعد أن عاشت تسعة عشر عاماً خاب فيها ظنه بمن اعتقد مع غيره أن بريطانيا ستكون أكثر عدلا بالنسبة للفلسطينيين.

لم يتوقف نشاط ماري شحادة الصحفي والعام، وظلت نشطة في الحركة النسائية، وقد أصبحت عضواً في جمعية السيدات العربيات في القدس منذ ١٩٢٩، واستمرت بعملها الإنساني في رام الله من خلال جمعية (السيدات الإنجليكية) لمساعدة اليتيمات. بالإضافة إلى ذلك فقد عرفت نساء القدس ويافا وحيفا وبقية المدن والقرى ماري صروف شحادة من خلال برنامجها الإذاعي "التربية في الأسرة العربية"، الذي كانت تقدمه عام ١٩٤٢ في دار الإذاعة الفلسطينية التي أسست عام ١٩٣٩. وجاء في أحد أحاديثها التي تناقش فيها السلبيات في تصرف النساء وتتساءل، " ما سبب هذا الادعاء الكاذب والغرور الفاضح المتفشي بين أبنائنا وبناتنا. وما سبب جلوس الرجال والنساء في الليل والنهار حول المائدة الخضراء". وكانت ماري شحادة تعتز بتربية بناتها تربية صالحة. وقد تزوجت ابنتها نجلا من يعقوب العودات "البدوي الملثم" ١٩٤٤ وهو من رواد الفكر والأدب في الأردن، وله أكثر من كتاب موسوعي، بينها (من أعلام الفكر والأدب) في فلسطين، صدر عام ١٩٧٦ بعد وفاته.

ساذج نصار "حفيدة البهاء"

تعد ساذج نصار، أشهر الصحافيات، وأكثرهن إنتاجاً في هذه المرحلة، وقد لعبت دوراً بارزاً في "صحافة المرأة" في فلسطين. فقد فتحت باب الحوار والنقاش حول قضايا المرأة والقضايا الاجتماعية والسياسية والعامة. ولم يأت هذا الإنتاج من فراغ، فقد بدأت نشاطها وتمرّسها الصحفي مبكرة منذ عام ١٩٢٣، فكتبت لمجلة **الهلال** المصرية ولجريدة زوجها نجيب نصار **الكرمل** التي كانت منذ صدورها ١٩٠٨ أول من نبّه إلى خطر الصهيونية وسلب الأرض. وكان قد أصدر كرّاساً حول الصهيونية ترجمه من دائرة المعارف اليهودية، ونشره في الجريدة بست عشرة حلقة، مما أكسبته شعبية بين الوطنيين. إلا أن هذه الشعبية اهتزّت في العشرينيات، لتقربه من السلطات البريطانية. وقد اضطر للتراجع عن هذه السياسة في الثلاثينيات، وقام بانتقاد السلطات بشكل واضح، كما اهتم بمعالجة القضايا الزراعية وقضايا العمال ومشاكلهم وطردهم من الأرض والاستيلاء عليها. وتعبيرا عن سياسته الجديدة التي ربط بها المصالح الصهيونية بالبريطانية وقام بتغيير اسم الجريدة عام ١٩٣٤ لتصبح لتحمل اسم **الكرمل الجديد** بعد أن خاب ظنّه بسياسة بريطانيا، التي اعتقد البعض أنها ستكون أكثر تفهّما لحق الفلسطينيين في بلادهم.

أما زوجته ساذج نصار ابنة الشيخ بديع الله البهائي من حيفا التي تجيد أربع لغات،



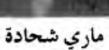
مرآة الشرق

MERAAT AL SHERK



يولس شحادة





ماري شحادة



فلسطين

"La Palestine"

وداعاً يا كنوز البحر الميت!

حوادث العراق

الحقيقة والتاريخ

يا اكرم!!



نجيب نصار



ساذج نصار



الكرمل

EL-CARMEL



أسمى طوبي



حمّال باب الخليل

فقد أسّست زاوية في **الكرمل** أسمتها "صحيفة النساء" عالجت فيها الموضوعات السياسية والاجتماعية وقضايا المرأة بأقلام النساء والرجال. وأثبتت أنها رائدة في الصحافة بعد أن تسلمت رئاسة تحرير **الكرمل** بين ١٩٤١-١٩٤٤. وكانت ساذج "البهائية" قد تزوّجت من نصّار "المسيحي" الذي يكبرها بسنين تكاد تكون ضعف عمرها بعد أن هربت زوجته السابقة مع ضابط تركي لتترك لساذج زوجة الأب المثقفة أربعة أولاد، قامت على تربيتهم واحتضانهم مع ابنها الوحيد من نصار (طارق). ولم تكن إنسانيتها مع أولاد الزوج غريبة، حيث عرفت بنشاطها الإنساني والاجتماعي من خلال الجمعيات التطوعية، بالإضافة للنشاط السياسي.

وثّقت جريدة **الكرمل**، كما الجرائد **مرآة الشرق فلسطين والدفاع** نشاطاتها ضد السلطات البريطانية خاصة. فقد كانت دوماً حاضرة في الأخبار "لثوريتها" في سنين الثورة الفلسطينية، بالاضافة إلى كتاباتها التحريضية إلى إلقاء المحاضرات، وانخراطها بالعمل الوطني من خلال فرع "الجمعية العربية"، في حيفا، إلى جمع الأموال لدعم الثورة لشراء الأسلحة، وكذلك لمساعدة عائلات المساجين والمجاهدين. ومن أبرز ما قامت به محاولتها تنظيم النساء القرويات "المهمّشات" اللواتي لم تأخذهن الجمعيات النسائية بعين الاعتبار، مما ترك علاقة سلبية لبعض الجمعيات "المدنية" التي كانت تفرق بين القرية والمدينة بنظرة طبقية واستعلاء. وتنبهت "ساذج" لهذه الحقيقة وساهمت مع نساء أخريات في رفع وعي المرأة الريفية كما بنت المدينة. وكان من نشاطها الوطني التشجيع على الإضرابات، والقيام "بتكسير" زجاج المحلات التجارية، ورفع الشعارات الوطنية. وكان ذلك سببا كافيا أن تسجن من أجله عامًا ١٩٣٥، لتسجل أول حادثة لاستعمال "قانون الدفاع الفلسطيني" ضد امرأة. فقد اعتبرت بنظر "البوليس" والسلطات البريطانية، "امرأة خطيرة جدا". وقد أودعت في سجن في بيت لحم ليعاد تجديد سجنها ستة شهور أخرى قبل أن يفرج عنها. وقد استقطبت الصحافية الوطنية الرأي العام من النساء والرجال في أنحاء فلسطين للتعاطف معها ورفع الاحتجاجات للسلطة.

كانت ساذج نصار أو "حفيدة البهاء" كما كانت توقع مقالاتها تكتب بجرأة وتراقب التغيرات الاجتماعية المقبولة والمرفوضة، وقد انتقدت بشجاعة بعض النساء المتشبهات بالنساء الغربيات وممارسة لعب القمار. وتحت عنوان "القمار والسيدات" كتبت عام ١٩٢٧ مقالة حذّرت فيها من هذه الظاهرة الخطيرة جاء فيها: "إنه داء عضال ينتشر في بعض المدن الفلسطينية، ففي بعض المقاهي يجتمعن مع رفيقاتهن يلعبن لساعات طويلة". وانتقدت النساء في مقالة أخرى لارتيادهن الملاهي والمراقص والتوغل في الإسراف. وكتبت تشجع التعليم والوعي بالقول: "فإذا كانت الحكومة غير وطنية ولا تقوم بواجبها لتعليم الرجل والمرأة أليس من واجب الرجال والنساء من العرب الأغنياء والمتعلمين أن يهتموا ويعملوا لرفع مستوى الأبوين". وفي مقالة أخرى تقول: عن دور المرأة الريفية وتحت عنوان "النساء يقاتلن"

تقول: "من لنا في فلسطين وفي سائر البلدان العربية نساء يعملن في السلم ما تعمله نساء الريف في الحرب.... على العائلات الناهضات من بنات بلادي أن يعملن لإفهام كل امرأة معنى وجودها... لأن المرأة في العائلة والعائلة قوام الأمة والأمة هي التي تعزّ الأوطان وترقيها .... فإذا ما رأيت وطناً خرباً وأمةً ضعيفةً وعائلة فقيرةً فاعلم أن المرأة جاهلة". تأثرت نساء مثقفات وناشطات اجتماعياً وسياسياً بساذج وتشجعن بالكتابة على صفحات الكرمل التي أصبحت في الثلاثينيات تتنافس على إشراك المرأة في التعبير عن نفسها ومناقشة القضايا الاجتماعية والثقافية التي بدأتها في أواخر العشرينيات.

لم تتأخر الجرائد الأخرى بانشاء زوايا تتعلق بالمرأة فأسست جريدة فلسطين زاوية "الشؤون الاجتماعية" كما كتبت النساء والرجال حول المرأة في صحف **الجامعة العربية والجامعة الإسلامية، والصراط المستقيم ومرآة الشرق والدفاع**، ساهمن في ترك آثار إيجابية ومؤشرات لنهضة المرأة. وبرزت أسماء سميرة عزام، ومتيل مغنم، وزليخة الشهابي، وفاطمة الحسيني، وأسمى طوبي، ورائدة جارالله، وعنبرة سلام الخالدي، وكلثوم نصر عودة، وجوليا الصول جنباً لجنب مع مقالات الصحافيين والكتّاب الفلسطينيين، حول قضايا المرأة. رأي الرجال حول موضوع السفور والحجاب. وقرأن لعبد الفتاح جبر، طالب الكرد، رفول سعادة، سعود خوري، أكرم زعيتر، يوسف هيكل، وصفي بسيسو، عبد الغني الكرمي، غالب السعيد، وديع دعدس، هاشم السبع، سعيد البابا، وجورج فرح وغيرهم ممن اهتموا بمناقشة قضايا المرأة الاجتماعية والسياسية. وكما في الفصل اللاحق من آراء حول الموضوع[٤٢].

---

٤٢ انظر الصحف الفلسطينية الصادرة بين ١٩٢٦-١٩٣٣ (الزوايا المتعلقة بالمرأة)

الفصل الحادي عشر

حجاب بنات القدس أيام زمان



نعيمة الصالح



١١

برزت السجالات والأخبار في الصحافة التي تعكس الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي السيئ بعد الحرب العالمية الأولى الذي لحق بالفلسطينيين بسبب خيانة بريطانيا ووضع فلسطين تحت الانتداب بعد أن صكت وعد بلفور عام ١٩١٧.

وفي وسط جدل ونقاش مكثف كان يؤرق الناس في العشرينيات وخاصة الفقراء من المزارعين والفلاحين الذين فقدوا أراضيهم لصالح اليهود أو للإقطاعيين، بدأت حوارات ونقاشات لقضايا اجتماعية هامة تتعلق بالمرأة الفلسطينية على صفحات **الكرمل ومرآة الشرق وفلسطين والنفائس العصرية والجامعة العربية**، اعتبرت ظاهرة جديدة منذ عام ١٩٢٦.

وانخرطت أقلام النساء المثقفات مع أقلام الرجال لتوعية المجتمع بأهمية دور المرأة ونهضتها في أواخر العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات. وكان ذلك قبل أن تتحرر المرأة الفلسطينية لتصبح نهضتها ودورها مثلا تعجب به شعوب العالم اليوم، لدورها الوطني والسياسي والاجتماعي والنضالي في حركة تحرير وطنية ضد الاحتلال، جنبا لجنب مع الرجل.

قضايا اجتماعية ساخنة

اثار الرجال المثقفون من بداية الأمر الموضوعات الساخنة المتعلقة بالمرأة ومنها: الحجاب والسفور والاختلاط، والتعليم والثقافة وشؤون البيت وتربية الأطفال والصحة والزواج والطلاق والعادات والتقاليد.

وظهر موضوع الحجاب كأولوية بين القضايا الخاصة بالمرأة وشكّل عام ١٩٢٦ المحطة الأولى أو نقطة الانطلاق للنقاشات والسجالات، وإن لم تكن الآراء كلها في صالح المرأة.

وتوزع الكتّاب بين فريقين أحدهما ينتمي إلى مدرسة تؤمن بدور "تقليدي هامشي" للمرأة مع إبقاء الحجاب، وفريق آخر ينتمي لفكر قاسم أمين (١٨٦٣-١٩٠٨) الذي وضع كتابه "تحرير المرأة" عام (١٨٩٩) و"المرأة الجديدة" (١٩٠٩) يدعو فيهما لنهضة المرأة. بالإضافة إلى ذلك ارتفعت آراء الشيخ محمد عبده، ورفاعة الطهطاوي، وعبدالله النديم الذين



عليّه وساميه الخالدي ونعمت وسميحه ١٩٣٨



طلاب مدرسة المطران في القدس التحق عدد منهم بالجامعة الأمريكية في بيروت بينهم اسماعيل أبو خضرا، اسحاق أبو خضرا، ابراهيم الدجاني، ڤيكتور مسعد، خالد البيطار ١٩٤١

دعوا لنشر ثقافة الحرية التي أفادت نهضة المرأة العربية وتحررها.*

ساهم هذا الفكر النهضوي الذي انتشر بين المثقفين العرب إلى رفع شأن المرأة والدعوة لتحريرها من الأميّة والتخلف، ونادى لشعور المرأة لتشجيعها على التعليم. كما تأثر المثقفون بكتابات المتنورين في سوريا، ولبنان والقاهرة والإسكندرية. وأقبل الرجال بالانفتاح على "الآراء الجديدة"، خاصة الذين تلقوا تعليمهم في أوروبا، وفي مجتمعات تؤمن بتحرر المرأة كبريطانيا وفرنسا. وكان هذا واضحاً فيما تكتبه الجرائد العربية أو تنقله عن مقالات منشورة في الصحافة البريطانية.**

ولم يكن أسعد من صباح بائع الكعك بالسمسم والفلافل السخن في الصباح الباكر وهو ينادي في أزقة وحارات القدس العتيقة:

- كعك... كعك...سخن يا كعك

إلا بائع الجرائد وهو ينادي:

- جريدة .... جريدة فلسطين... الدفاع... الكرمل... الجامعة العربية...
- جريدة .... جريدة.

وكان للمرأة في هذه الجرائد نصيب على صفحات تتناول الموضوعات غير السياسية التي لم يكن البائع يعلن عنها كما في الأخبار السياسية.ولجذب القراء كان بائع الجرائد المهتم

* الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) يعد أحد أبرز المجددين في الفقه الإسلامي. وأحد دعاة الإصلاح وأعلام النهضة الإسلامية والعربية الحديثة. شجع على مواكبة التطورات في العلم والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، مما ساهم في تحرر المرأة.
رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣) ولد في مصر من الرواد الأوائل لإصلاح التعليم في مصر، وكذلك تحرير المرأة، ومن مؤسسي الفكر الحديث، تبنى حركة الترجمة المنظمة، وأنشأ مدرسة الألسن. ومن مؤلفاته :المرشد الأمين في تربية البنات والبنين).
عبدالله النديم (١٨٤٥-١٨٩٦) ولد في الإسكندرية، كاتب وشاعر وخطيب وصحفي. تبادل في ثورة أحمد عرابي ونفي عدة مرات بسبب مواقفه الوطنية، كتب في عدة صحف أنشأها وكانت مقالاته تحث الناس على الوعي والمعرفة والوطنية وحرض الناس ضد النفوذ الأجنبي.

** تواجه المرأة المسلمة اليوم في الغرب تمييزاً ضد المرأة المحجبة التي تعيش في أوروبا وأمريكا. وقد ربط الغرب العرب والمسلمين من غير حق بالإرهاب بعد ٢٠٠١/٩/١١ وبعد حروب أمريكا على أفغانستان والعراق. ويلاحظ أن المرأة المسلمة في البلدان العربية والإسلامية عادت منذ السبعينيات إلى لبس غطاء الرأس أو الحجاب، أو النقاب أو الخمار عن قناعة، وتثير هذه الظاهرة اختلافات في الرأي بين مؤيد ومعارض. وأصبحت هذه الظاهرة في الغرب تثير الاهتمام وسنت بعض البلدان الغربية أنظمة بمنعه وأبرز هذه الدول فرنسا. وما زالت قضية الحجاب موضوعاً مثيراً للجدل، في الغرب الذي يدعي الدفاع عن الحريات الدينية والشخصية.

بالقضايا السياسية التي تشغل الرجال، يضيف لعناوين الصحف ما يسعد الناس، خاصة عندما كان الثوار يقومون بأعمال بطولية منذ هبّة البراق ١٩٢٩ أو يحرّضون على مواصلة إضراب عام ١٩٣٦. وسمع أهل القدس بائعي الصحف وهم ينادون بصوت عال له نغم موسيقي خاص لكل منهم، يلحنون ما تنشره الصحف من أخبار سياسية مفرحة، خلال إضراب ١٩٣٦ ... وكانت المنافسة بين بائعي الصحف واضحة ينادون وهم يتهربون من السلطات:

- اليوم عمر الإضراب مائة يوم .... ميت يوم عمر الإضراب
- استمروا بالإضراب يا ناس... إنه ثامن عجائب الدنيا
- استمروا ... استمروا... الإضراب يغيظ العدى ... استمروا... كان الباعة يرددون ما نشرته جريدة فلسطين في ذلك "اليوم المائة" من الإضراب على الصفحة الأولى "ثامن عجائب الدنيا.... ثامن عجائب الدنيا".

وبالرغم من سيطرة الأخبار السياسية على حياة ونشاط أهل القدس والمدن الأخرى، فقد شهدت مقاهي القدس العتيقة، الرجال يقرأون الجرائد ويشربون الشاي والقهوة والسحلب ويناقشون، ما تقوم به السلطات البريطانية من دعم واضح للحركة الصهيونية. وكان بينهم من يقرأ بصوت عال للذين لا يستطيعون القراءة وهم يجلسون القرفصاء على الأرض ويستمعون بشوق وإخلاص لقضيتهم الوطنية العامة. واهتم الناس بأخبار المظاهرات وقد شاركت فيها النساء. كانت صحيفة فلسطين تنشر صورا كاريكاتورية على صفحاتها منقولة عن الصحافة البريطانية، تعبّر فيها عن سياسة الانتداب ودور المرأة اليهودية باستغلال المسؤولين البريطانيين "والتأثير عليهم لخدمة الصهيونية". بالإضافة إلى ذلك فقد ظهرت "مومسات" في شوارع القدس، وظهرت مقالات تنتقد هذه "التصرفات" وتحذّر النساء العربيات من التصرفات الاجتماعية غير المقبولة في المجتمع المقدسي وفي مدن فلسطين الأخرى.

الحجاب يشحذ أقلام الرجال[٤٣]

ولم يتردد الرجال في المقاهي، وخاصة مريدو "مقهى الصعاليك" المثقفون في حارة النصارى من مناقشة المواضيع الاجتماعية المتعلقة بالمرأة بصوت مسموع. وبرز "الحجاب" كأولوية على أجندة الصحافة وبشكل مكثّف بين عام ١٩٢٦-١٩٣٣. كان بين المشكلات الاجتماعية ما رآها البعض معيقة لنهضة المرأة خاصة، وكانت الأمهات والزوجات ما زلن متدثرات بالحجاب. وبادرت ساذج نصار في **الكرمل** بالكتابة حول قضايا المرأة منذ مطلع

---

٤٣ يعتمد هذا الفصل، بغالبيته، على تحليل الزوايا المتعلقة بالمرأة في الصحف الفلسطينية بين ١٩٢٦-١٩٣٦.



طلاب عرب في الجامعة الامريكية ببيروت بينهم فلسطينيون كتبوا للصحافة الفلسطينية حول السفور والحجاب بينهم وصفي بسيسو من غزة ١٩٢٧



طلاب فلسطينيون في الجامعة الأمريكية في بيروت بينهم عارف النجار الثالث (يسار) وعادل الخالدي (الرابع بجانبه) ١٩٤٤

العشرينيات واستمرت في ذلك لتصبح رئيسة تحرير الصحيفة في الأربعينيات. وتميّزت بأنها استحدثت زاوية تحت عنوان "صحيفة النساء"، ناقشت النساء والرجال على صفحاتها موضوع الحجاب وتوسّعت الموضوعات لتشمل كل ما يتعلق بحياة المرأة سواء أكانت ربة منزل أو ناشطة اجتماعية وسياسية. وأنشأت جريدة **فلسطين** زاوية "شؤوننا الاجتماعية والأخلاقية" كانت تحررها أسمى طوبى. ليكون منبراً لوجهات النظر الاجتماعية المختلفة بالنسبة لقضايا المرأة وكان أبرزها قضية حجاب المرأة.

وفي عام ١٩٢٧ كتب يوسف هيكل من (يافا) في جريدة **فلسطين** عدة مقالات متتالية حول "الحجاب"، إحداها "الحجاب له مضار والسفور له محاسن" جاء في المقالة: "بلادنا اليوم غير بلادنا بالأمس، فيجب أن نعلّم المرأة بلغة جديدة توافق روح العصر الحالي، ونجعلها تجاري الغربيات من بنات جنسها، وإلا لكانت طيف الماضي، في الزمن الحاضر". شجع قلم رجل يناصر المرأة التفاعل والمشاركة وإبداء الرأي حول ضرورة رفع الحجاب. ورأى آخرون مثل عارف بركه من يافا غير ذلك بقوله "إن السيد هيكل قد تسرّع بشأن الدعوة للسفور". وعلل ذلك بسبب غير مقنع إذ أرجع ضرورة التمسك بالحجاب لانتشار الأميّة بشكل واسع بين النساء ووجود المشايخ المتعصبين الذين كما يبدو كانوا يخيفون من تجرّأ على السفور. إلا أن هذا الرأي لم يقنع هيكل كغيره من الرجال المتنورين، وكتب: "إنه برُقيّ المرأة تَرقى الأمة، وبانحطاطها تنحط". وأكد في مقاله أخرى أن الحجاب مُعيق لتعليم الفتاة، وحثّ المجتمع أنه: "لا يكفي تعليم البنات القراءة والكتابة والتدبير المنزلي والتطريز والأعمال المنزلية كتربية الأطفال". وطالب إدارة المعارف بزيادة سنوات التدريس وعدم إخراج البنات من المدارس لمجرد بلوغهن سن الصبا. وعلل المثقفون أن ترك البنت المدرسة سيجعلها سجينة جدران البيت مما يحول دون تهذيبها وزيادة معلوماتها، ولا يتم ذلك إلا من خلال انفتاحها على المجتمع والعالم من خلال السفور، وقد رأوه بعيون مستقبلية، وأن السفور قادم لا محالة، وصدق ظنهم في السنين اللاحقة. وبلا شك ساهم التعليم المتزايد للمرأة والرجل على إحداث تغييرات في نظرة المجتمع لبعض العادات والتقاليد التي ستخف، وبعضها يتلاشى، كما حصل مع الحجاب، ليعود بشكل مكثّف في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي لأسباب سياسية ودينية وعلى المستوى العالمي.

دعوات للسفور

وأخذت عوامل التغيير الاجتماعي بالظهور بفضل زيادة عدد الطلاب والطالبات وإن كنّ قلة، في التعليم العالي في الجامعة الأمريكية في بيروت ومصر، وسوريا، والعراق، وأوروبا. وكان طلاب الجامعة الأمريكية من الأوائل الذين انفتحوا على العالم وفتحوا الطريق للأهل

الذين كان الكثيرون منهم أقل علماً من الأولاد الجامعيين. فبيروت ضمّت نخبة من الطلاب الفلسطينيين كتبوا مقالات عن المرأة في الجرائد الفلسطينية بينهم وصفي بسيسو، ومحمود حمدي السيد، وغالب السعيد. وكتب حول الموضوع خلوصي بسيسو الذي كان طالباً في الأزهر وغيرهم.

وتفاعل صوت وصفي بسيسو الطالب في بيروت، من (غزة) عن بعد مع ما يجري في بلده من حراك اجتماعي بأقلام نساء ورجال وأرسل لجريدة **الكرمل**، يقول حول موضوع الحجاب: وقد "لاحظت أن بنات بيروت لا يلتزمن بلبس الحجاب، الحجاب ليس صون وعفة كما أن السفور ليس خلاعة وعهر". وأكد أن الحجاب لا يمنع من العلم والسفر والتحرر. ووصل صوته إلى بنات ورجال فلسطين في القدس كما غزة وحيفا ويافا ونابلس، والقرّاء يتابعون مقالاته في جريدة فلسطين. وأيّده وشاركه في نشر مقالات تتعلق بالمرأة زميل له في الدراسة هو محمد الطاهر الذي قد تكون مقالاته كغيرها ساهمت في التأثير الإيجابي على المرأة والرجل في المجتمع، ولضرورة احترام المحجبات والسافرات على حد سواء.

واصل المثقفون نشر مقالاتهم في الصحافة حول الحجاب، حتى عام ١٩٣٣. وبرز بين المتحمسين عبد الغني الكرمي من حيفا، وكان يرّد في كتاباته المتواصلة على صفحات جريدة **فلسطين** على من يكتب "ضد سفور المرأة" الذي يؤيده بحماس. وحملت بعض مقالاته عناوين واضحة "حول تحرير المرأة" و "السفور والحجاب". وعرفته النساء نصيراً قوياً لهن ومثقفاً انبرى يدافع عنهن وعن حقوقهن الإنسانية عن قناعة وغيرة على بنات فلسطين ودورهن في المجتمع. وفي إحدى مقالاته التي بلا شك أسعدت الكثيرات من النساء نشرت بتاريخ ١٠ أيار ١٩٢٧ يدافع فيها عن أخلاق النساء السافرات يقول: "النساء القرويات غير محجبات، كما أن البدويات سافرات وحوادث الفسق والفجور أقل في القرى والبادية من المدن رغم وجود الحجاب.... إن يوم السفور آت لا ريب وعلينا اتخاذ العدة له والعمل للوصول إليه، إن دعاة الحجاب أعداء لأمتهم وعثرة في سبيل تقدمها". وكان المثقفون في تلك الحقبة التاريخية من حقبة العشرينيات من القرن العشرين يتوجسون خيفة من السياسة الإنجلوصهيونية، التي لم تشجع التعليم بين البنات ولم تفتح المدارس الكافية لتستوعب بنات المدن والقرى. ونادى المثقفون بفتح المدارس ونزع الحجاب الذي يعيق الانفتاح على المجتمع، وحركة التقدم، كما كان بعضهم يرى.

وكتب (غالب السعيد) عن الحجاب من منطلق يختلف عن الآخرين وبشكل غير لائق إذ رأى فيه "ضرراً على صحة المرأة" وجاء في مقالة نشرت في **الكرمل**: "لم يقف استبداد الرجل بالمرأة عند هذا الحد، بل حجر عليها بين أربعة جدران كالببغاء في القفص ومنعها من الخروج حتى لاستنشاق الهواء والتعرض لحرارة الشمس إلا محجبة من رأسها إلى قدمها، غير

ملاحظين أن منديل إزارها هو مستودع عظيم للميكروبات لما يلتصق بالخروق من جراثيم فتّاكة". وعاد الكاتب بموضوع المرأة والسفور إلى أمثلة أكثر إيجابية من التاريخ الإسلامي وهو يذكر الرافضين للسفور بسُكينة ابنة الحسن، وكتب للرأي العام يقول: "بالرغم من جمالها الفتان كان بيتها دار ندوة للعلماء والشعراء. كانت تجالسهم سافرة الوجه وتجادلهم في مختلف المواضيع. ثم حاول إيصال رسالته بإعطاء مثل آخر... "وهذه السيدة عائشة أم المؤمنين التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم خذوا نصف دينكم من هذه الحُميراء. كانت تحضر مجالس الصحابة وتجادلهم. وهذه ولادة بنت المستكفي بن عبّاد شاعرة عصرها، كانت من السافرات". وكان فكره واضحاً، ودعى لثقافة مجتمعية للسفور والاختلاط منذ الطفولة قائلاً: "فإذا أردنا الرقيّ فعلينا أن نعلّم بناتنا وندخلهن صغاراً في مدارس الأولاد لنؤهلهن للخروج سافرات متعودات على مخالطة الرجال وبذلك ترتقي الأمة ووجد من خافه.

أراء للشعراء

وشارك عدد من الشعراء بحماس للتعبير عن رفض الحجاب. وفي قصيدة نشرتها جريدة **الكرمل** تعبّر عن هم المرأة والرجل العربي المستنير، وانضم جميل الزهاوي شاعر العراق الاجتماعي وقال في الحجاب محرضاً المرأة على خلعه:

أسفري فالحجابُ للعرب اليوم — جحـيما تأخـر قـدومُ
عجبا للإنسان يُخفي من الإنسان — شيئا به الخطـابُ يقـومُ
لقد اعوج بالحجـاب لعمـري — أمر جنينا فهو لا يسـتقيـمُ
ليس حـقا لـوم النسـاء عـليه — بل عليه قسم الرجال ملـومُ
هو سـجن لهـن من غير ذنـب — وهو حرمانُ النور وهو الهمومُ

وعن علاقة الحجاب بالزواج يقول:

زعموا أن في السُفور أكلافا — كذبوا فالسفورُ طُهر سليـمُ
والزواجُ الذي يتمُ على غيب — من الخاطبين أمـر أليـمُ
ربما كان غيره مـن أرادت — وربمـا كان غيرُها من يـرومُ

وعبّر الكاتب أمين الريحاني اللبناني الأصل المقيم في حيفا عن رأيه بقضية الحجاب وكتب في جريدة **فلسطين** "لا فرق عندي إذا لبس الرجل البرنيطة أو العمامة أو الطربوش، ولا فرق عندي إذا كانت المرأة محجبة أم سافرة. إني أتمنى للمرأة المسلمة عقلية المرأة المسيحية المهذّبة، ولكن لا أتمنى لها مثلها لا تحيا بغير الموضة والإسراف". وكان واضحاً في نقده تصرفات بعض المسيحيات السافرات التي رأى فيها إساءة للمرأة. وكانت بعض النساء قد تأثرن بالأجنبيات من معلمات أو صديقات، وبزوجات المسؤولين البريطانيين والمندوب السامي الذين كانوا ينشطون في الحياة الاجتماعية.

أراء مع الحجاب

لم يجلس رجال الدين من مسلمين ومسيحيين مكتوفي الأيدي وهم يسمعون الآراء ويقرأون الحوارات على صفحات الجرائد حول السفور والحجاب الذي ظل متواصلاً لسنين بين مؤيد ومعارض. وحذر الاكليروس الأرثوذوكسي من تهافت النساء السافرات على قص شعورهن، واتهم النساء بأنهن: "لا يتبعن الموضة فحسب بل يعجبن بذلك لمجاراة الرجال والتشبه بهم في كل شيء، وأصبحت المرأة تنازع الرجل في كل عمل، وتطلب أن يكون لها الحقوق المدنية مثل ما له". كما جاء في تصريحاته لجريدة فلسطين عام ١٩٢٨. وأيدت كثير من النساء رأيه الذي يجبر الحرية المطلقة للمرأة وضرورة احترام التقاليد.

ونشرت **الكرمل** في "صحيفة النساء رأياً دينياً مسيحياً آخراً وهو ما جاء على لسان "البابا" حول ملابس النساء: " كل قوانين المسيحية تتطلب من نساء وفتيات العالم أن يؤدين الصلاة في الكنائس، وهن مرتديات أثواباً طويلة من أعلاها حتى الأعناق واقية لتغطي ما بعد الذراعين والركبتين". ولا شك أن هذا الرأي قد أسعد رجال الدين المسلمين الذين يوافقونه، وقد أخذت مظاهر التغيير في نمط الملابس تبدو واضحة بين النساء اللواتي يتبعن الموضة الغربية.

ومن أكثر ردود الأفعال تميّزاً ما جاء في ذاكرة الحياة الاجتماعية والاختلاط، ورفع الحجاب أمام الرجال ما نشرته جريدة **الجامعة العربية**، عام ١٩٢٧، فقد غضبت (جمعية الشبان الإسلامية) في يافا، بعد أن علمت عن قيام تلميذات دار المعلمات في الصف النهائي في القدس بالرقص في بيت مسؤول بريطاني. وعبّرت الجمعية على استيائها عن هذا النشاط ورفعت كتاب احتجاج رسمي لدائرة المعارف جاء فيه، "هذه التصرفات منافية للعادات والتقاليد، خاصة وقد قمن بالرقص في حضور الرجال وكثير من البنات ما زلن يلبسن الحجاب الذي يجب أن يتقيدن به". بالإضافة إلى ذلك جاء الاحتجاج لأن البنات رقصن رقصة "هزّ البطن" المنافية للآداب ويعدها الكثيرون من "الرقص الساقط"، وهي ليست رقصة محلية، بالإضافة إلى ذلك فقد رأى المنتقدون في رقصة "الدبكة" التي قمن بها، أيضاً أنها غير مناسبة لأنها رقصة خاصة بالرجال

في "القرى وبين البدو". ويبدو أيضاً أن الغناء المبطّن بالسياسة والدين قد أزعج البعض وهنّ يتمايلن على نغمات أغنية كانت متداولة بين الناس، للرقص والطرب نشرتها الجريدة:

كـوكـيّة يـا كـوكـيّة بتسـوى ألفين وميّة
بتسوى القاضي والوزير حـتى رئيس البلديّة
والله لاطلـع ع الجـبل واطلع اسقي ورداتي
ربي يخـلي لي البنـات وتصير أمهم حماتي

أراء حول الاختلاط والعمل

أصبح موضوع المرأة والقضايا المصاحبة للحجاب والسفور وتحرر المرأة حتى منتصف الثلاثينيات أولوية. وظهرت موضوعات أخرى اهتمت بها صفحات المرأة في الجرائد، وخاصة "صحيفة المرأة" في **الكرمل** وفي **جريدة فلسطين**. وكان أهمها موضوع الاختلاط والعمل والخروج من المنزل. وشاركت مجلة **النفائس العصرية** الأدبية عام ١٩٢٧ بنشر قصيدة تحثّ فيها المرأة العربية أن تتمرد على الخمول والجهل، جاء فيها:

يا ابنة الشرق انهضي حـان القيامُ لتُجاري العرب جـداً واعتزازاً
طـال عهدُ الجـهل في أوطاننـا واسترق الناسُ والـناس نـيام
يا ابنة الشرق اسطعي فالشمسُ إن سطعت تحمي دُجنات الظلام

وبالرغم من مساهمة أقلام الرجال ونظرتهم المشجعة لمسيرة "البنت الشلبية" التي أصبحت أكثر جمالاً بعلمها وعملها وخروجها للحياة العامة. إلا أن عيون الشعراء والصحافيين والنقاد كانت بالمرصاد للمتغيرات السلبية التي بدت واضحة في سلوك وتصرفات ومظهر بعض النساء في أواخر العشرينيات في القدس الأكثر انفتاحاً وحريةً من بنات المدن الأخرى. وعبّر عن ذلك بوضوح الشاعر إسكندر الخوري البيتجالي بعد أن خرجت البنات للعمل:

راعنا في الشرق توظيفُ البنات في الدوائـر
وركوب السـيدات العجـلات في الحواضر
وامتطـاهنّ الجـياد الصـافنات كالقســاور
بلـباس لا يقـين العـثرات والمخـاطر

وبناطـــيل علـــى رغـــم النـهاة والأوامـــــــر

لبســتها هـــذه المســترجلات كــالعســـاكر

وبالرغم من الانتقادات على بعض المظاهر الإجتماعية ونمطها كانت البنات في المناطق "الراقية" البقعة والقطمون والطالبية، يتعلمن ركب البسكليت، وتتذكر سميرة المهتدي هدية والدها "البسكليت" لها في سن مبكرة. وكتب السكاكيني عن ذلك بعد انتقاله لداره الجديدة الواسعة في القطمون التي اسماها "الجزيرة"، وكتب لابنه سري عام ١٩٣٧ الذي كان يدرس في أمريكا يقول: "اشترينا بالأمس "بسكليتا" دراجة لدمية وهالة من أثمن ما وجدنا في السوق هدية العيد وكان سرورهما به عظيما.... وجعلتا تتمرنان على ركوبها وسيدتي أم سري وأنا نراقبهما من شرفة المنزل. ... هذه هي الخطوة الأولى ولا بد أن تتبعها الخطوة التالية وهي أن تتمرنا على ركوب السيارة قريبا إنشاء الله". قال هذا والسيارة كانت بعيدة المنال للكثيرين.

بالإضافة إلى ذلك كان بعض الأهالي، وخاصة العائلات المسيحية ومنهم خليل السكاكيني الفلسطيني الوطني منفتحين على حضارة الغرب، ويشجعون بناتهم على تعلم مظاهر اجتماعية يجدونها ضرورية للبنت الشلبية. وقد عبّر عن ذلك في إحدى رسائله لابنه وهو يتشوق لرجوعه: "أتعرف ماذا ينتظرك حين رجوعك؟ أولاً، أن دمية وهالة قد أصبحتا بحاجة إلى أخ يروح ويجيء معهما، ينوّر بصائرهما، يصبغهما بالصبغة الأمريكية وهمته العالية".

كان عُمر دمية أربعة عشر عاماً وهالة في الثالثة عشرة من عمرها، وكتب ذلك وهو فخور بابنه الذي سيتخرج من الجامعة ويحمل مظاهر أمريكا "العالم الجديد" التي كان الناس يتمنون الوصول إليها. وكان السكاكيني الرجل والزوج والأب شديد الاحترام للبنت والولد، ولا أوضح من ذلك وهو يلقب زوجته سلطانه عبده التي كانت تعمل مدرسة وقد أحبها حباً جما "بسيدتي"، بالإضافة لتوفير حياة جميلة في بيت جديد للسيدة والبنات ويكتب: "كل يوم تحاول سيدتي أم سري وصاحبة السمو الغرندوقة أن تدهشني بشيء جديد، فاليوم كنبايات وكراسي، وغداً رفوف للكتب، وبعد غد مائدة للطعام، وبعده ستائر جميلة، فلو دخلت البيت لوجدت كل شيء جديداً. "وقد عبّر عن فرحه أيضاً بالتليفون" الذي ركّبه في البيت الجديد وليتحدث مع الأهل والأصدقاء، كوسيلة اتصال عصرية وصلت للكثيرين من أهل القدس والمدن الأخرى وربطت الناس ببعض بعد أن كانت محصورة في النخبة، وبلغ عدد التليفونات عام ١٩٢٠ حوالي مائة فقط [٤٤].

لقد تغيّر نمط الحياة المقدسية داخل البيوت الجديدة عن بيوت القدس القديمة، كما بيت السكاكيني، قبل انتقاله للقطمون لتصبح الدار أضخم وأوسع وأكثر في عدد الغرف التي تضم

---

٤٤ يوميات خليل السكاكيني ١٩٣٥-١٩٣٧ الجزء الثالث مركز خليل السكاكيني الثقافي ٢٠٠٦ ص ٣٦٩-٣٧٨.

العائلة الممتدة. وكانت شقيقة السكاكيني ميليا تعيش معه كونها لم تتزوج وهي من الرائدات في التعليم. ولم يكن يسمح المجتمع للبنت غير المتزوجة بالعيش في بيت منفصل، إلا في حالات البعد عن القدس للعمل في مدينة أخرى.

نصائح لحياة زوجية سعيدة

اتسمت نظرة الرجال المثقفين بالحذر في توعية المجتمع على منبر الصحافة، خاصة وأن مشاكل الزواج والحياة العائلية كانت كثيرة بسبب الأساليب في انتقاء الزوجين. وتحمّس لهذه القضية الكاتب المصري فكري أباظة الذي اشترك في نقاشات جادة حول المرأة، وخاصة بعد ثورة هدى شعراوي في مصر ١٩١٩، وخلعها الحجاب والمطالبة بحقوق المرأة. وجاء في إحدى مقالاته التثقيفية المتواصلة على صفحة النساء في **الكرمل** عنوانها: "زوج سعيد وزوجة سعيدة" نصح فيها بضرورة الإفضاء بالحقائق قبل الزواج وأهمية معرفة العروس والعريس لبعضهم قبل الزواج خوفاً من اكتشاف "الغش". وذكر أمثلة عن علاقة المرأة بالرجل في المجتمع المصري تتعلق بالسكن، والفلوس، والموبيليا والذوق السليم في اختيار أثاث المنزل بسعر رخيص الثمن، ونصح الرجل: "الخروج مع زوجته إلى مكان جميل ما دامت التقاليد المنحوسة لا تسمح للسيدات بدخول النوادي والمقاهي المحترمة... فهناك ضرورة لإخراج الزوجات ساعتين كل يوم، ويوماً كل أسبوع لينسين سجنهن الأزلي السرمدي خوفاً من الملل". واعترف الكاتب بنفسية الرجل المتقلبة ونصح المرأة بالاهتمام بمظهرها والاعتناء "بالتواليت" لإسعاد زوجها لأن الرجل سريع التقلب والتنكر والتحوّل". جاءت النصيحة وبنات القدس ما تزال الكثيرات منهن وحتى السافرات لا يخرجن متبرجات، إلا في الاستقبالات النسائية التي يقمنها مرة في الأسبوع، بالإضافة إلى إظهار مفاتن الجسد بلبس الملابس الجميلة أمام الصديقات ونساء العائلة، ويضفن الخصوصية بلبس الحلي الذهبية للدلالة على المنزلة الاجتماعية. وصورة المرأة كما يصورها الكاتب تكشف عن صورة نمطية تقليدية عانت منها النساء قبل أن يتحررن اجتماعياً وثقافياً والمطالبة بالعمل والمساواة. ورغم هذا فإن الكثيرات من المبدعات والناشطات كن محجبات ولم يمنع الحجاب من أن يكن رائدات.

قبل اكتشاف الرجل لجمال "البنت الشلبية" الحقيقي المتمثل بالحرية والتعليم، كثرت النصائح التي تخللتها بعض التناقضات فيما يكتبه الرجال. كانت إحداها، أيضاً لفكري أباظة في أواخر العشرينيات في "صحيفة النساء" تحت عنوان "الوصايا للزوجة" : أحبي زوجك، عولي زوجك. ثقي بزوجك، ساعدي زوجك، تمسكي بزوجك، حسّني إدارة زوجك. وكأن الرسالة تهدف لإسعاد الرجل، فقط، ولتكون المرأة في خدمته وإسعاده. ورأى بعض الرجال أن المرأة تظلم الرجل وليس العكس لكثرة شكواها وكثرة كلامها، "وطول لسانها" لتقرأ نساء

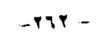
القدس وفلسطين ما جاء في قصيدة للشاعر "خفيف الروح" أسعد رستم كما وصفته الجريدة عام ١٩٢٨ وهي محققة وكما يبدو مما يقول:

وزوجك مسـكين تهنا عازبا	لم يتهنا منذ يوم اقترانك
تفرنجت حتى أن نطقت تذللا	أراني محتاجا إلى ترجمان لك
شردت عن التقوى فأنت بحاجة	إلى الوعظ والإرشاد من صنع فالك
لسانك كالرمح الردين بطوله	ألا فارحمي الدنيا بضب لسانك

أصبحت الصحف بين ١٩٢٦–١٩٣٣ وكأنها ثورة في مناقشة قضايا المرأة التي تعبّر عن "الرأي والرأي الآخر" من الرجال والنساء.*.

بعض المقالات التي نشرت في الصحافة سجلت ما كان يتناول من قضايا اجتماعية تتعلق بالمرأة ونهضتها ومن بينها: "أهمية تحرير المرأة" بقلم محمد إسماعيل، "نحن النساء لسنا أقل وطنية من الرجال"، بقلم ماري شحادة "مشاكل الزواج" بقلم وديع دعدس، وكتب غالب السعيد سلسلة مقالات عن "الحجاب والسفور" بتاريخ ١٩ نيسان ١٩٢٧، حفزت الآخرين لتناول موضوع الحجاب بحماس، فكتب "الحجاب وضرورة رفعه"، ولم يتأخر عبد الغني الكرمي فكتب "المرأة ورفع الحجاب"، وقد وصل بكتابه عدد المقالات حول الحجاب بين ١٩ نيسان و٢٧ حزيران ١٩٢٧ (١٥) مقالة، تناول تسع كتاب فيها الحجاب وبحماسة لرفعه، وتناول الرجال والنساء موضوعات تتعلق بالمرأة على صفحات الجرائد التي يمكن تسميتها "صحافة نسائية" ومن هذه الموضوعات "تأثير المرأة في الحياة الاجتماعية"، "المرأة بين ماضي العرب وحاضرة"، "كلمة حول المرأة العربية"، "البرنيطة والطربوش"، "نهضة المرأة في فلسطين"، "وثمن الزواج في القرى"، وغيرها.

* نشرت المقالات في جريدة الكرمل، وفلسطين على صفحات «صحيفة المرأة» ونسائيات، وقضايا اجتماعية. الكرمل : يافا (١٩٢٥–١٩٣٩) فلسطين (١٩١١–١٩٤٨).



الفصل الثاني عشر

القدس ترحّب ببنات فلسطين



١٢

لم تكن الصحافة الوسيلة الوحيدة لتشجيع قلم النساء وانطلاقها للتعبير عن الرأي، وإن كانت الأهم في العشرينيات. فالتطورات الاجتماعية والثقافية والسياسية والنضالية في الثلاثينيات والأربعينيات، فرضت التغيير وظهور نساء أديبات وكاتبات استفدن من قبول الرجل للمرأة المتعلمة والمثقفة والسافرة والكاتبة والسياسية نسبياً. وكانت القدس محط أنظار مثل هؤلاء النساء من المتطلعات للانطلاق كون المدينة أكثر انفتاحاً اجتماعياً وثقافياً عن بقية المدن، بالإضافة إلى أنها مركزٌ للقيادات السياسية.

الدفاتر تسجّل حبّ كلثوم عودة

كان للقدس قصص إنسانية مع أكثر من أديبة ومبدعة، أولهن قصة الرائدة في العلم والأدب والكتابات الاجتماعية والإنسانية كلثوم عودة المولودة في الناصرة عام ١٨٩٢. ولم تكن منذ ولادتها مرحباً بها بسبب التقاليد السلبية التي ترحّب بالولد أكثر من البنت، والبنت البيضاء والشقراء أكثر من السمراء، خاصة وأنها كانت البنت الخامسة للعائلة التي رفضتها بصراحة. ولا بد أن "عائلة عودة" لم تمنح الداية التي سحبت رأس كلثوم للحياة هدية، كما كانت العادة، ولم يسمع الجيران زغرودة تلعلع من شبابيك بيتها، ولم تفرح المحيطات بالوالدة وهن يقلن:

مبروك ... وبشيء من البرود

وحتى لم يجاملن كأهل القدس ويقلن

البنت شلبية ... شلبية كثير ، أو سمرا ودمها خفيف

لتخفيف آلام الأم الوالدة التي رُزقت بالبنت الخامسة.

ولو عرفت العائلة أن هذه البنت السمراء ستصبح الأديبة والكاتبة الفلسطينية و"البروفيسورة" لتسجل اسمها في روسيا كما فلسطين كمبدعة "شلبية"، ولترفع رأس بنات وطنها، لزغردت جميع نساء المدينة بولادتها. فقد حققت كلثوم عودة ذاتها وتخلصّت من عقدة "الشعور

بالنقص" التي خلقتها العائلة فيها. وكان ذلك منذ أن تفوقت في المدرسة الابتدائية ثم في دار المعلمات الروسية "السيمنار" في بيت جالا القريبة من القدس. وقد تخرّجت البنت الذكية من الكلية التي علمت أبرز الأدباء والكتاب من الرجال. ومن أبرزهم خليل بيدس رائد القصة القصيرة في فلسطين ومؤسس مجلة "النفائس العصرية" (١٩٠٨)، كما درس فيها ميخائيل نعيمة الأديب اللبناني. تأثرت كلثوم عودة بالرجال الناجحين، والوطنيين عندما تفوّقت باللغة العربية على يد أستاذها خليل السكاكيني، فعادت مرفوعة الرأس للناصرة وعمرها ست عشرة سنة، لتصبح معلمة في إحدى مدارسها. إلا أنها لم تتخلص من "النظرة السوداء" لها، من الأهل، رغم ازدياد ثقتها بنفسها عندما قرأت بنات القدس ورجالها مقالاتها التي كانت تنشر في **الهلال** القاهرية و**الحسناء** اللبنانية، بالإضافة إلى مجلة **النفائس العصرية** والصحف والمجلات الفلسطينية الأخرى.

كانت مدينة القدس المفتوحة رحبة الصدر، المحطة الأهم في حياتها. فقد حمتها من كره وسلبيات الأهل في الناصرة المحكومة بالتقاليد. وكان الحب الجارف الذي بادلته لطبيب روسي زار البلد، المنقذ لها من الخوف والتهميش ليعوضها عن كره الأهل بحب حقيقي. فقد تزوجته في القدس، مدينة الحب والسلام، بحضور ابن عمها نجيب عودة الذي وضع الأهل تحت الأمر الواقع، بعد رفضهم وربطها مع زوجها ليسجل عملاً إيجابياً عزّز حق كلثوم في الحب والحياة والنجاح. وسجلت مدينة القدس في دفاترها وسجلاتها الشرعية قصة حب كلثوم عودة الفلسطينية للطبيب "ايفان فاسيليف" الروسي، لتذهب معه إلى روسيا ١٩١٤. وقد وجدت في غربتها وحياتها الجديدة محبة الناس لإخلاصها في العمل والتفاني في خدمة الإنسانية، حيث عملت كممرضة في مستشفى محلي بعد وفاة زوجها بمرض التيفوس ١٩١٩ليترك لها ثلاث بنات تعولهن. واصلت كلثوم الفلسطينية النشاط والعمل والإنتاج الأدبي والعلمي. فقد علّمت اللغة العربية للطلاب الروس وأصدرت منتخبات متخصصة بالأدب العربي، تناولت فيها بالبحث والدراسة أكثر من أربعين مؤلفاً في النثر الفني والأدب. ضمت المؤلفات المنتخبة لأدباء عرب من الرواد البارزين بينهم:أديب اسحاق، وجرجي زيدان، وأمين الريحاني، وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة وغيرهم، وتركت هذه "البنت الشلبية" مؤلفات أدبية عظيمة لرفع شأن اللغة العربية وتعليمها، وكذلك دراسات الأدب الحديث ودراسات في تاريخ الأدب العربي، وفي الأدب المقارن، وفي مجال الترجمة، وفي مجال السير الذاتية والتراجم. ومن الذين كتبت أو ترجمت لهم: من روسيا العلامة المستعرب كراتشكوفسكي ومن الدول العربية سوريا ولبنان ومصر. توفيق الحكيم، محمد الطنطاوي، أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، الكواكبي، جمال الدين الأفغاني، صلاح شاهين، صلاح عبد الصبور، طه حسين، جبران خليل جبران، نجيب الريحاني، ولي الدين يكن. ولم تنس كلثوم عودة أن تكتب عن الأديبة ميّ زيادة

صحافيون ومثقفون


فدوى طوقان


البروفيسورة كلثوم عودة


ميّ زيادة


خليل السكاكيني


خليل بيدس


عادل جبر


رجا العيسى


مسلم بسيسو


اسكندر الخوري

ابنة مدينتها الناصرة التي نجحت في ترك آثار أدبية ولم تنجح في الحب الذي ربطها مع جبران عن بعد لتبقى وحيدة [٤٥].

المفتي يرحب بالبروفيسورة

وفي الغربة لم تنس كلثوم عودة الناصرة، ولم تنس حالة النساء الريفيات المظلومات العاملات في الحقل تحت الانتداب البريطاني الذي خطط للصهيونية لسلب الأرض. وظلت وفيّة لوطنها ولم تخبُ مشاعرها نحو وطنها الأصلي وهي تخوض معركة حياتها في روسيا، وطنها الثاني. وبعد أربعة عشر عاماً من رحيلها عادت كلثوم إلى فلسطين شوقاً بينما كانت النساء لا يزلن يواجهن حرب التقاليد والعادات السلبية. وكتبت ساذج نصار في **الكرمل**: "زارتني السيدة كلثوم عودة اليوم الأحد في ١٥ تموز ١٩٢٨ وسألتني إذا ما كان في فلسطين نهضة نسائية، وهل تغيرت نفسية المرأة منذ أن تركت فلسطين لأعيش في روسيا"،؟ وكان رد الصحافية عليها: "لا زلن كما كن والتغيير ظاهري، أما الجوهر فهو غير مصقول".واحتفي بها الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، الذي عرض عليها أن تبقى في القدس وتترأس مركزاً في التربية والتعليم. ورغم حاجة القدس ومدن فلسطين لمثل هذه الأديبة والعالمة فقد رفضت وكان رفضها المنطقي ناتج عن كونها تحمل "المعتقدات الماركسية" التي كانت السلطات البريطانية والأنظمة الرأسمالية في الغرب تلاحق من ينتمي إليها.

أصدقاء كلثوم في مقهى الصعاليك [٤٦]

احتفى بها الرجال من المفكرين والأدباء، وعلى رأسهم أستاذها خليل السكاكيني وبندلي الجوزي وهم من رواد "مقهى الصعاليك" ، "بيت المثقفين الفلسطينيين" في القدس التي باركت حبها وزواجها. ولم يكن يخفى على المثقفين الفلسطينيين، نبوغ كلثوم عودة، خاصة أستاذها .وكان المثقفون الفلسطينيون أثناء غيابها قد شكلوا "شلة" يجتمعون مع بعض في "مقهى المختار"، أو مقهى "العم أبو ميشيل" مختار الطائفة الأرثوذكسية، الذي كان يسهّل احتياجات أبناء الطائفة من المقهى الذي أسسه عام ١٩١٧ في حارة النصارى مباشرة بعد مدخل باب الخليل. وتطور المقهى ليطلق عليه خليل السكاكيني اسم "مقهى الصعاليك"* عام ١٩١٩، وليصبح أكثر مريديه من المثقفين والأدباء والشعراء والصحافيين، بمن فيهم "الطبّة" صاحب المقهى الذي عرفه المثقفون من خلال عمله في الطباعة التي كانت تجذب الكتاب والصحفيين، كما جذبت مطبعة الياس مشحور الكتاب. بالإضافة إلى ذلك، كان المقهى وكأنه

---

٤٥ سعيد مضنية،رواد التنوير في فلسطين، مصدر سبق ذكره. ص ٣٢٢-٣٢٣

* الصعاليك، هم فرقة من شعراء المتمردين على المجتمع والقبيلة. كانوا ينهبون أموال الأغنياء ويعطونها للفقراء، ومن أشهرهم عروة بن الورد .

مركز بريد وعنوان ثابتاً لتواصل الأدباء الفلسطينيين والعرب مع بعض، خاصة والمقهى كان محطة للحجيج الذين يحملون معهم الكتب الأدبية والثقافية، والجرائد والمجلات، التي كان المثقفون ينتظرونها بشوق [٤٦]. وبلا شك فلو بقيت كلثوم عودة في فلسطين بعد زيارتها الأولى للوطن لكانت من أبرز المثقفين بين الرجال رواد مقهى الصعاليك.

لم يكن مقهى الصعاليك معروفاً لأهل القدس من الرجال الكبار فقط، بل ظلت سمعته الثقافية وصورة مريديه في ذاكرة أطفال القدس مثل يعقوب الجوري الذي كان يسكن البلدة القديمة، وكان عمره ثلاثة عشر عاما، حيث كان يتوجه كل يوم بعد المدرسة لزيارة خاله "المختار" شقيق والدته جوليا. وفي الطريق كان يقف ليشاهد "دابة" معصوبة العينين أمام معمل السيرج كانت تدور وتدور لطحن السمسم الذي اشتهرت به القدس كما زيت السيرج. كان يعقوب في طريقة يلعب مع أولاد الحارة ويتذوقون "الكسبة" التي كانت المعاصر توفرها من بقايا السمسم، كغذاء للأبقار. وكثيرا ما قام الفتى والأولاد بخلط "الكسبة" بالسكر وأكلها. وكان يستمتع أيضاً بمشاهدة السمك في بركة مقهى خاله المملوءة بالماء، والمحاطة بالأشجار العالية التي تقفز عليها العصافير "المزقزقة". ولم يكن الفتى يعقوب وحده من يستمتع بذلك، بل كان رواد المقهى المعروفين من رجال الشلة بينهم انستاس حنانيا الذي كان يحب قضاء بعض الوقت للاستمتاع بالحديقة وطيورها الأليفة، والاجتماع مع أصدقائه، وتبادل الآراء السياسية والثقافية.

ونظرا لما كان للصحافة الفلسطينية، من أهمية ودور في التعبير عن الرأي العام ورفض الانتداب والصهيونية تحت الانتداب البريطاني، فقد وجد أكثر الصحافيين منذ عام ١٩١٩، في هذا المقهى المكان المناسب للالتقاء وتبادل وجهات النظر والأخبار، بالإضافة للالتقاء مع الشخصيات السياسية التي كانت تؤم المكان وقد حضروا من حيفا، وعكا، ويافا، وغزة، ونابلس،ومن رواده، أحمد الشقيري، وأكرم زعيتر. ولم يتوانَ أي صحفي أو صاحب جريدة من التردد على المقهى، وخاصة من يسكن القدس منهم، بندلي مشحور، خليل الخالدي، انسطاسيوس بانداري، جميل الخالدي، نجيب نصار، بندلي الخوري، بندلي صليبا الجوزي، عبد الحميد ياسين، توفيق عبد الرازق، داوود الترزي، رفعت الشهابي، صالح عبد اللطيف، شريف القبج، المحامي حسن صدقي الدجاني، أحمد سامح الخالدي، أحمد عزت الأعظمي، محمد البديري، علي محي الدين الحسيني، عبدالله البندلي، جميل مسلم، صبحي الطاهر، عزمي النشاشيبي، طانيوس نصر، عيسى العيسى، خليل بيدس، عادل جبر، ادمون روك، ميشيل عازر، زهدي السقا، محمود سيف الدين الإيراني، يوسف حنا، اسكندر الخوري البيتجالي، كمال عباس، إميل الغوري، جميل البحري، متري حلاج، قيصر أبيض وغيرهم من رؤساء

---

٤٦ المصدر نفسه.

تحرير الصحافة الفلسطينية الصادرة في تلك الفترة.

وفي هذا الجو الثقافي المميز "لشلة" المثقفين والسياسيين، لم يلاحظ مشاركة النساء في نشاطات ونقاشات "مقهى الصعاليك"، وخاصة الصحفيات والكاتبات اللائي بدأت أسماؤهن بالظهور على صفحات الجرائد أمثال ساذج نصار، وماري شحادة. ويرجع ذلك للعادات والتقاليد التي لم تسمح للمرأة بالاختلاط، خاصة وأن الحجاب يغطي وجه الكثيرات. لم تشارك البنت الشلبية في دخول ذلك المقهى المقدسي وإن كان كثير من رواده من الرجال من أنصار المرأة وتحررها.

لم يمنع رواد مقهى الصعاليك، الاحتفاء بكلثوم عودة المغتربة بطريقتهم الخاصة، وكان تكريماً لها وللمرأة الفلسطينية وإن كان عن بعد. فقد كانت رسائلها كما رسائل "المغتربين" الرجال مثل بندلي صليبا الجوزي والروائي عزيز ضومط وخليل الخالدي وأحمد شاكر الكرمي تحظى بمناقشات، جادة وكأنها حلقات دراسية في مقهى المثقفين بعد وصول رسائلهم لأيدي الأصدقاء ولتصبح مادة أدبية عامة. كما كانت زيارات المغتربين الفلسطينيين للقدس حدثاً كبيراً يحتفي به المثقفون في مقهى الصعاليك، الذي كان يرحّب بهم بمحبة وتقدير، وكما احتفوا ببندلي الجوزي الذي استوطن في روسيا بعد أن أبعدته السلطات البريطانية بسبب نشاطاته وآرائه التقدمية ومواقفه ضد الصهيونية والانتداب بعد زيارته الثالثة للقدس عام ١٩٣٠.

ميّ زيادة المحرومة من الحب

وعرف أهل القدس وفلسطين عن بنت شلبية أخرى هي ميّ زيادة التي ولدت في الناصرة عام ١٨٨٦ وقد تركت مسقط رأسها وعمرها ١٤ عاماً إلى بيروت ثم القاهرة، وظلت تردد وهي بعيدة عنها: "إيه يا ناصرة... لن أنساك ما دمت حية، سأعيش دوماً تلك الهنيهات العذبة التي قضيتها في منازلك الصامتة... " وتعاطفت نساء فلسطين ورجالها مع الأديبة التي حُرمت من الحب كما تعاطفن معها في محنتها، التي ستواجهها في رحلة قادمة.

تشكلت شخصية ميّ البنت السمراء الشلبية بعوامل عدة. درست في مدارس فلسطين الابتدائية ثم الثانوية في لبنان، وعاشت في مصر مع والدها الصحفي، الياس زيادة الذي أصدر جريدة "المحروسة" وعملت معه في التحرير كما في مجلة الزهور. وتعلمت اللغة الفرنسية كبنات العائلات الكبيرة، مع تشبعها بالثقافة الغربية الفرنسية والانجليزية بالإضافة للعربية. وبرزت كأديبة تكتب أدب المقالات والشعر في الصحافة الفلسطينية والعربية حيث كتبت تحت أسماء مستعارة في البداية. وقد عرفها المثقفون عن طريق افتتاحها صالوناً أدبياً كل يوم ثلاثاء في القاهرة جذب أبرز المثقفين أمثال أحمد لطفي السيد، الذي قيل عن وجود علاقة غزلية بينهما، كما مع مصطفى صادق الرافعي. ومن مريدي صالونها عباس محمود العقاد،

وإسماعيل باشا صبري، ومصطفى عبد الرازق، وسلامة موسى، وطه حسين، ومن النساء الفلسطينيات، ماري شحادة، وأسمى طوبى، ونجوى قعوار والعالمة الفلسطينية المتصوفة فاطمة اليشرطي، وغيرهن.وخدم هذا الصالون اللغة العربية في فترة حرجة من تاريخ الأدب المعاصر. وقد وصف طه حسين ندوتها بالقول: " كان صالون مي ديموقراطيا، أو قل إنه كان مفتوحاً لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز في الحياة المصرية. فكان منهم المصريون أو السوريون الأوروبيون على اختلاف منابتهم، وكان منهم الرجال والنساء المثقفون، الذين يتحدثون في كل شيء وبلغات مختلفة، بالعربية والفرنسية والإنجليزية خاصة، وربما استمعوا لقصيدة أو مقالة تقرأ أو قطعة موسيقية تعزف أو أغنية تنفذ إلى القلوب".ولعل هذا التنوع بالانفتاح على العقل والعاطفة جعل الكثيرين من رواد صالون المرأة الأدبي يتوهم أنه الأقرب إلى الحب الحقيقي الذي يهدفون إليه في مثل هذه اللقاءات مع امرأة تختلف عن نساء أخريات لا يزلن وراء الجدران.

ومع نجاح امرأة عرفها رجال ونساء القدس وفلسطين ومصر ولبنان وسوريا عن قرب أو بعد، فقد ظل جمالها الحقيقي من العلم والأدب في عيون بعض الرجال يقيّم بشكل تقليدي كما كانت تقيّم به "البنت" في الماضي وكما يدل وصف أحد مريدي صالونها الذي وصفها كما هي: "كانت مي زيادة على سعة اطلاعها وعظيم استنارتها أبعد النساء عن "الاسترجال"، وأشدهن استمساكا بالخصائص النسوية بقامتها الربعية ووجهها المستدير، وهي زجّاء الحاجبين، وعجاء العينين، يتألق الذكاء في بريقهما، وشعرها الطويل يجلل صفحة جبينها".

ووصفها سلامة موسى بقوله:-

"لم تكن ميّ جميلة، ولكنها كانت حلوة".

ووصفها زائر آخر من أصدقائها في ناديها:

"لها عينان ضيقتان تبدوان للنظار كأن بهما أثراً من رمد قديم، فليس فيها شيء من الجمال...". [٤٧] إلا أن غيرهم من الرجال رأوا جمالها في أدبها وثقافتها وأطلقوا عليها أوصافاً مثل "الأديبة النابغة" "وفريدة العصر"، و "ملكة دولة الأوهام" و"حلية الزمان" و"الدرة القيمة". مثل هذه الصفات، أصبحت للكثيرين أهم من الصفات الجمالية النمطية للبنت الشلبية.

ذاقت مي طعم الحب العذري عن بعد مع جبران خليل جبران الأديب اللبناني الذي كان يعيش في المهجر ولكن المحيطات التي أبعدت القاهرة عن نيويورك حرمتها من الحب الحقيقي. ومع ذلك تمكنت من الشعور بأنوثتها وجمالها الذي كانت تتجاهله لمدة عشرين

---

٤٧ سميحة كريم، « مي زيادة، كاتبة العربية في القرن العشرين « الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩.

عاما. وفي الخامسة والثلاثين من العمر كتبت لجبران في إحدى رسائلها تقول وهي تبوح بالحب متحدية كبرياء المرأة الشرقية:

"إنني لا أعرف ما أعني... ولكنني أعرف أنك محبوبي وأني أخاف الحب... "

ولا شك أن هذا الخوف مرده التقاليد الاجتماعية السائدة في الشرق. وردّ عليها وهو يعرف عادات وتقاليد بلده العربي وإن كان يعيش في نيويورك في المهجر، وإلا لما تركها محرومة من حبّه الذي عذّبها عن بعد، وكتب لها:

تقولين لي أنك تخافين الحب

لماذا تخافين يا صغيرتي؟

أتخافين نور الشمس؟

أتخافين مد البحر؟

أتخافين مجيء الربيع؟

لِمَ يا ترى تخافين الحب؟

لقد قسا القدر على ميّ زيادة، الجميلة بعلمها وثقافتها التي لم تنقذها من طمع الأقارب، بثروتها وبقيت دون زوج أو حبيب، وأودعت في مستشفى الأمراض العقلية في لبنان في أواخر حياتها. إلا أن البنت الشلبية ظلت في ذاكرة المحبين والحسّاد، وظل اسمها وإبداعاتها الأدبية "مثل الرجال" محفوظة في الكتب والدراسات وصفحات الجرائد لتعطي مثلاً عن امرأة رائدة موهوبة ومبدعة لم تجد الحب الإنساني الحقيقي لإنصافها في حياتها كما ينصفها التاريخ اليوم. ويشهد لها الباحثون أنها إنسانة جميلة وعظيمة ولدت في فلسطين وكتبت على صفحات جرائدها، عرفها وقرأ لها رجال القدس ونساؤها. وقد وقفت إلى جانبها العالمة المتصوفة فاطمة اليشرطية الحسينية، التي لم تتخل عن أعز صديقاتها ميّ في محنتها ودافعت عنها أمام الرأي العام وفي الصحافة.

فدوى طوقان تنطلق في القدس

وفي عام ١٩١٧ والبلاد توضع تحت وعد بلفور المشؤوم ومشاعر الرفض الوطني كبيرة ضده، ولدت بنت سمراء شلبية أخرى في نابلس سميت فدوى طوقان. ورغم ظروف قمعها كبنت ربيت في بيت تلبس النساء فيه الحجاب وتسكن بين الأسوار والجدران العالية التي تكبت الحرية، أنجبت نابلس مسقط رأس فدوى لبنات فلسطين شاعرة تنظم شعراً منذ

نعومة أظفارها، وكان هذا رغم حرمانها من إتمام الدراسة في المدرسة التي أحبتها. وجاء هذا الحرمان عقاباً لها لتصبح ضحية لإعجاب بريء من ولد أعطاها "زهرة فل" في الطريق. ولم تتمتع بأحلام الحب الذي ظلّ يعبق في قلبها حتى مماتها، كما كتبت في سيرتها الذاتية "رحلة جبلية رحلة صعبة" [٤٨].

أنقذ الأديبة الشاعرة الفلسطينية، حب أخوي كبير، كما أنقذ حب الطبيب الروسي، كلثوم عودة. وبفضل شقيقها إبراهيم طوقان المتحرر، الطالب الذي كان يدرس في الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٢٦ في الوقت الذي كانت بنات نابلس والقدس مسربلات بالحجاب، فقد تحيّز لشقيقته وساعدها وفي تلك السنة بالذات حيث انبرت أقلام المثقفين الفلسطينيين بإثارة موضوعات تتعلق بالحجاب والسفور، والاختلاط والحياة الزوجية والحب على صفحات الجرائد. ولم يتأخر إبراهيم طوقان من التعبير عن مشاعره نحو بنت فلسطينية اسمها ماري صفوري من كفر كنّة في فلسطين، كانت تدرس في الجامعة الأمريكية، وكان إبراهيم يسترق النظر إعجاباً بها وهي في المكتبة وقد عبّر عن إعجابه بها في قصيدته التي اشتهرت وتناقلتها النساء والرجال جاء فيها:

وغريـــرة في المكتبة	بجمـالـها متنـقـبة
أبصرتها عند الصـبـاح	الغض تشـبه كوكبة
جلست لتقرأ أو لتكتب	مـا المعـلـم رتـــبه
فدنوت استرق الخطى	حتى جلست بمقربة
وحبســت حتى لا أرى	أنفـاسـي الملتـهبة
ونهيت قلبي عن خفوق	فاضـــح فتجـنـــبه

إبراهيم طوقان الرجل المثقف والوطني، لم يقبل بانقطاع شقيقته عن الذهاب للمدرسة وكأن بنت فلسطين زميلته في المكتبة حفزته أن يكون معلم أخته عن بعد. فبينما كانت تجلس بقربه في المكتبة كانت فدوى حبيسة البيت. تعلمت بنت نابلس الشلبية فدوى وهي في البيت بتوجيه من شقيقها إبراهيم ورسائله المتواصلة. وأتقنت النحو والصرف من كتاب "النحو الواضح" تأليف على الجارم ومصطفى أمين. وفي عقد الثلاثينيات قرأت ما قرأ المثقفون من الكتب المعروفة "البيان والتبيين" للجاحظ و"الكامل" للمبرد، و"العقد الفريد"، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وقرأت "فجر الإسلام" لأحمد أمين، قرأت القصص الرومانسية التي

٤٨ فدوى طوقان، رحلة جبلية، رحلة صعبة، ١٩٨٧.

كانت تعوّضها عن الحب الواقعي وهي تعيش في الخيال. كما وقرأت "الرسالة المصرية" التي كانت تكتب فيها نثراً. وتتبعت أخبار الحركة النسائية في الصحافة وزاد شعورها شفافية حبها للموسيقى والغناء والعزف على آلة العود التي كانت تطرب مع أخيها وهو يستمع لها ويشجعها. وتأثرت الشاعرة فدوى بالطبيعة الجميلة، والأحداث السياسية والروح الوطنية في العائلة كما أهل مدينتها نابلس، وظهر هذا في كتاباتها وشعرها.

الشاعرة في القدس سعيدة

وفي آخر سنين الثورة ١٩٣٦–١٩٣٩ الفلسطينية العظيمة ضد الاستعمار الإنجلوصهيوني التي تصدت له القوى الشعبية في جميع أنحاء فلسطين سجّل التاريخ بطولات الصمود في إضراب الستة شهور ١٩٣٦وقبلها ثورة القسّام ١٩٣٥! ثورة الفلاحين ضد سلب أراضيهم. كان عام ١٩٣٩ بداية خير وحسن طالع لفدوى عندما اصطحبها إبراهيم معه لمدينة القدس التي كانت مركزاً للمثقفين. فقد حشدت المدينة عدداً من الكتّاب والأدباء من جميع المدن الفلسطينية حيث كانوا يعملون في دوائر الحكومة أو في دار الإذاعة الفلسطينية، كما إبراهيم الذي كان يرأس القسم العربي.

وفي القدس انطلقت فدوى من سجنها النابلسيّ، إلى حيّ القطمون الراقي، حيث سكنت واختلطت مع الرجال المثقفين أصدقاء أخيها الشاعر وخلعت الحجاب، وقرأت بصوتها الهادئ الأشعار من دار الإذاعة. ولحن لها عازف البزق محمد عبد الكريم إحدى قصائده التي تعبّر عن مكنون نفسها بلحن أسماه "البنفسجة الذابلة" كما عنوان القصيدة التي تقول:

دوى شبابي وجفّ عودي — والعمر ما زال في الربيع
آها لعـمري الغض الجديد — أوديت به حرقة الولـو ع

—

يا منيّة النفـس ادنُ مـني — يعد نـصير الـصبا إلـياّ
تعد لروحـي الحـياة إنيّ — بلمـسة مـن يديك أحيا

كانت القدس لفدوى، كما لبنات القدس المتعلمات والأكثر تحرراً من بنات نابلس المغلقة. فقد ذاقت فيها حياة صحيّة فيها طعم لذيذ للحياة، وهي ترافق الأصدقاء مع شقيقها في السهرات الأدبية، وتذهب للمكتبات وتحضر الأفلام في دور السينما. وكانت القدس لها مدرسة تعلمت في جمعية الشابات المسيحية اللغة الانجليزية كما تعلمت في القدس معنى الحرية من شوارع المدينة وهوائها.فقد تمتعت فدوى بالعيش مع شقيقها وزوجته سامية عبد

الهادي "أم جعفر" التي تعرف عليها في القدس وأحبها وهي تشارك في البرامج الإذاعية وتشترك بأداء المسرحيات العربية، وقامت بتمثيل دور "عاتكة" وهي خريجة المدرسة الإنجليزية في القدس.

وكان لا بد لفدوى من العودة لنابلس السجن السابق الذي عرفته بعد أن أُقيل إبراهيم من وظيفته لأسباب سياسية، لمواقفه الوطنية ضد بريطانيا والصهيونية. فقد كان يذيع ويناقش الموضوعات الوطنية في البرامج العربية التي يشرف عليها. وبعودة الشاعرة للبيت المغلق وبموت شقيقها المبكر، عادت للوحدة النفسية، وعدم التعايش مع الحياة التقليدية التي تركتها. إلا أنها مع الزمن المتغيّر سافرت وتذوّقت طعم الحياة المتعدد فأصبحت "شاعرة" فلسطين الأولى، تكتب دواوين شعر منها: "وحدي مع الأيام"، "وجدتها"، " أعطنا حبا"، " أخي إبراهيم"، وما زالت فدوى ابنة نابلس والقدس وكل المدن الفلسطينية في ذاكرة المكان والإنسان حرة طليقة في كل أعمالها الأدبية التي تركتها كما سيرتها الذاتية الصريحة والإنسانية.



الفصل الثالث عشر

رئدات ومبدعات من فلسطين



١٣

أثبتت البنت الشلبية من الطبقات الاجتماعية المختلفة أنها تتمتع بقدرة على مواجهة التحديات والعمل الخلاّق المبدع أيضاً، فكتبت ناشطات فلسطين أدباً لبنات القدس وحيفا ويافا وعكا، ولكل من كانت تقرأ وتهتم بالأدب في فلسطين تحت الانتداب البريطاني. ويعتمد عدداً من المبدعات في ذكره ؟؟:

نجوى قعوار

عرف أهل فلسطين نجوى قعوار الأديبة الناشئة من الناصرة التي كتبت "القصة القصيرة" ،بالإضافة للمقالات الصحافية وإلقائها المحاضرات ليسمعها المثقفون الرجل المثقف، وسعدت نساء القدس بلقائها مراراً في الأندية الثقافية في مدينتهن. وكانت إحدى محاضراتها وعنوانها "جهاد الإنسانية" ١٩٤٦، ألقتها في النادي الإنجليكي في القدس ما لفت الأدباء المعروفين لها. وعلى إثر ذلك قام الأديب الأردني عيسى الناعوري بنشر نص المحاضرة في مجلة الأديب اللبنانية بعد أن استمع لها. وكان نشر المقالة في أبرز المجلات الأدبية نافذة طلّت منها على الأدباء العرب، وإن كانت لفترة قصيرة قبل النكبة، كما نشرت المجلات الأدبية والاجتماعية أعمالها الأدبية ومنها: **صوت المرأة، والقافلة، والمنتدى والغد** وغيرها. وتعرفت النساء عليها أيضاً من مشاركاتها الأدبية في الإذاعة، في محطات القدس والشرق الأدني ولندن وهولندا في السنين اللاحقة. وتقديراً لها ككاتبة قصة قصيرة، قام أصدقاؤها سامي حبيبي وتوفيق قعوار وعيسى الناعوري في عمّان بطبع قصصها عام ١٩٥٤ في مجموعة حملت عنوان: "عابرة السبيل" ليظل الكتاب يحمل اسم أديبة فلسطينية معروفة قبل وبعد النكبة، وإن اختفت عن الساحة الأدبية مبكرة كما ظهرت[٤٩].

أسمى طوبى

واختزنت ذاكرة الأدب الفلسطيني اسم أسمى رزق طوبى المولودة في الناصرة ١٩٠٥، وقد تزوجت وعاشت في عكا وبرزت كأديبة وكاتبة وصحافية وناشطة سياسية واجتماعية

---

٤٩ اسمى طوبى، عبير ومجد، ١٩٦٦.، مصدر سابق.

لجميع بنات فلسطين. وقرأت لها بنات القدس وبقية المدن وتفاعلن مع كتاباتها قبل النكبة على صفحة "الشؤون الاجتماعية"، أو "صفحة نسائيات" في جريدة **فلسطين** التي كانت تحررها في الوقت الذي كانت ساذج نصار تحرّر "صحيفة النساء" في **الكرمل**. وكان لوالدها الشاعر دور في خلق موهبة كتابة النثر والشعر والمقالات الصحافية. كان نشاطها موزعاً بين الصحافة، والأدب، والسياسة والنشاط في الحركة النسائية من خلال الجمعيات الخيرية. وكصحافية فقد كتبت في "نسائيات" على صفحة فلسطين تشجع في الأربعينيات ضرورة انخراط كل النساء من الشرائح الاجتماعية المختلفة في الحركة النسائية وبذلك سدت أسمى طوبى ما أهملته الحركة النسائية من إدماج المرأة الريفية وتنظيمها في الجمعيات والاتحادات النسائية. ونشطت في الكتابات الصحافية بعد النكبة على الصفحة النسائية في جريدتي "كل شيء" و"الأحد" الصادرتان في بيروت.

بالإضافة عُرفت أسمى طوبى في فلسطين قبل النكبة، بالأديبة والشاعرة، وكاتبة المسرحية. فقد اهتمت بالمسرح لتكون إحدى الرائدات في هذا المجال. كتبت سبع مسرحيات منها، "أصل شجرة الميلاد"، و"نساء وأسرار"، و "شهيدة الإخلاص"، و "واحدة بواحدة"، و"القمار". بالإضافة فقد كتبت عدة كتب قبل وبعد النكبة منها: "الفتاة التي أريدها"، و"أحاديث من القلب"، و"الدنيا حكايات" مترجم عن الانجليزية، و"عبير ومجد" ١٩٦٦. وجمعت شعرها في ديوان من جزأين "على قلاع التضحية" ١٩٤٦، وكتبت في السنة نفسها "الابن الضال" وقبل ذلك "الفتاة التي أريدها". ولم تخبُ جذوة الموهبة الأدبية بتركها فلسطين عام ١٩٤٨، إلى بيروت. واصلت الكتابة الصحافية، والإبداعية والمتخصصة بالنساء، وكتبت شعراً ديوان"حبي الكبير" ١٩٧٢، على غلافه خارطة فلسطين، وكتبت عن الفدائي تقول : لن تهون.

أيها النسر الذي حلق

يمحو بجناحيه

عار الاستسلام والذل

حمى الله جناحه

أيها الليث الذي يزأر في

حلك الليالي

لا يبالي

يا فدائي من بلادي

لن تهون

ولم تنس بنات القدس صوت أسمى طوبى الهادئ الذي كانت تتميز به وهي تتواصل معهن عبر دار الإذاعة الفلسطينية التي استقطبت النساء والرجال المثقفين منذ إنشائها ١٩٣٩. وقدّمت للنساء أحاديث إذاعية تعالج الحياة الاجتماعية وقضايا المرأة، منها "حديث إلى الأم العربية" مع قدسية خورشيد تزيد على ٣٠٠ حديث. كما قدمن في هذا البرنامج الصباحي أيضاً "وصلات غنائية" من أسطوانات مسجلة لفنانين عرب محبوبين، لجذب النساء لسماع الأحاديث. فالمستمعات من النساء كن ينتظرن سماع عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش، بينما يقمن بعملهن المنزلي اليومي، وقد خرج الأزواج للعمل وأصبحن أكثر حرية، وهن يرددن أغاني لوردا كاش تغني أغنيتها المشهورة:

آمنت بالله ... نور جمالك آية بالله.... آمنت بالله.

وكثيرا ما سمع جيران الحارة أصواتاً تردد أغنية عبد الوهاب:

ما أحلاها عيشة الفلاح ... نايم مرتاح...

وكأنهن بالطرب يجدن من يعبّر عما يجول في خاطر الكثيرات الحالمات بالحرية. كانت إحدى الأغنيات المفضّلة التي تربط الإنسان بالبيئة الفلسطينية الجميلة.

يا اللي زرعتو البرتقال ... يا اللا اقطفوه ... يا الله ... يا الله...

وكأن الأغنية تدخل رائحة زهر البرتقال من بيارات شمال فلسطين أو يافا لبيوت القدس:

إحنا زرعنا واحنا سقينا

وكانت نساء القدس يطربن لأغنية فريد الأطرش:

أحبابنا يا عين. .. وقد غنّاها في "فيلم حبيب العمر"

ويا ريتني طير لطير حواليك

وأغنية ليلى مراد:

أنا قلبي دليلي قلّي حتحبي.

وأم كلثوم ...

أنساك يا سلام ... أنساك دا كلام.

كثير من البنات "ضُربن" على اليد لعبثهن "بالمايكروفون" الآلة التي تنبعث منها الموسيقى، وكما حصل معي في الطفولة الشقية التي كانت تتفحص ما يقع أمامها لمعرفة




عنبرة سلام الخالدي


سميرة عزام


المتصوفة فاطمة اليشرطيه


متيل مغنم

التفاصيل المهمة أو غير المهمة. فقد وُجدت يوما متلبسة في "غرفة الصالون" حيث يتصدر "المايكروفون" ماركة His Masters Voice أحسن موقع في المكان الذي كان بابه مغلقاً في أكثر الأوقات ليظل نظيفا ومرتبا كونه المكان المخصّص للضيوف. وقد نشأ أهل القدس على سماع أغاني الطرب الأصيل تنطلق أيضاً من البيوت والمقاهي المتناثرة في المدينة العتيقة والمدينة الجديدة خارج السور. وحركت الأسطوانات باليد لتحرّك معها مشاعر البنات الدفينة أوالنساء، والرجال الذين كانوا يطربون لسماع الأغاني والموسيقي، بالإضافة لحضور الحفلات الخاصة التي كانت تقدم في فلسطين على المسارح القليلة. وأعجبت كثيرات من النساء بصوت الفنانات الفلسطينيات وإن كانت قليلة. فإذاعة القدس كانت تذيع أغاني لماري عكاوي، والمطربة الشعبية رجاء الفلسطينية، اللتين كانتا من رائدات الغناء في القدس. وقد تمتع شلل من الرجال بالطرب والموسيقى أو مع قلة من النساء المتحررات أو الغربيات الزائرات أو من يسكن القدس. وساعدت الإذاعة في نشر الأغاني والموسيقى لاحتوائها على أكبر مكتبة موسيقية في المنطقة كان يديرها يعقوب جوري ابن القدس، وقد حرص على إغنائها بالموسيقى الغربية والأجنبية الكلاسيكية. ويبدو أنه تأثر بمثقفي "مقهى الصعاليك" مقهى خاله المختار الذي كان يتردد عليه يومياً وهو في الثالثة عشرة من عمره.

سميرة عزام

وفي السنة التي كانت صحافة فلسطين ١٩٢٧ تناقش قضايا المرأة ونظرة المجتمع لها، ومحاولة المثقفين تشجيع نهضة المرأة وإخراجها من البيت والملاية والحجاب، ولدت سميرة عزام في عكا وكَبُرت البنت لتحمل القلم، وتبشّر موهبتها بأنها ستصبح رائدة القصة القصيرة في الوطن العربي، وأديبة مرموقة وبنت شلبية تعرفها بنات القدس والمدن الأخرى. وكغيرها من الصبايا الواعدات في الكتابة الأدبية اللواتي كن قلةً في مجتمع يعيش في جو سياسي من الكفاح ضد الانتداب ووعد بلفور والصهيونية التي تعكر صفو الحياة والمعيشة اليومية، بالإضافة للعوائق الاجتماعية والعادات المكبّلة للمرأة ظهر اسمها وهي صبية في حقبة الأربعينيات التي شهدت نهضة أدبية. وقرأت لها بنات القدس وفلسطين ورجالها في الصحافة وعرفوا الشابة النشيطة تلقي الخطب، والأحاديث النسائية والأدبية من إذاعة محطة الشرق الأدنى بعد النكبة أو إذاعات الدول العربية التي عملت فيها في العراق والكويت، ولتكتب في مجلتي "الأديب" و"الآداب" في لبنان. واليوم يعتبر النقاد والكتاب الذين اهتموا بالأديبة سميرة عزام أنها رائدة في كتابة القصة القصيرة الفلسطينية. فقد اهتمت بموضوعات إنسانية "كالفقر والقهر" و"قضايا المرأة" و "المقاومة الفلسطينية قبل النكبة". لتضيف للأديبات الفلسطينيات قلماً مبدعاً لم يتسن له أن ينتج بشكل أكبر في الوطن قبل الشتات. ومع الأسف فقد توفيت في عمر صغير عام ١٩٦٧ في بيروت. وقد تركت كتاباتها التي أنتجتها بين (١٩٤٥-١٩٦٧)

خمس مجموعات قصصية، وترجمت عشرة كتب، وتركت العديد من الأبحاث والقصص والمقالات المخطوطة التي لم تنشر.

سلمى الخضرا الجيوسي

وفي سنة انطلاق المرأة الفلسطينية للحياة العامة وهبّة البراق عام١٩٢٩ ولدت سلمى الخضرا الجيوسي، في السلط، حيث كان عمل والدها صبحي الخضرا وهو من أبرز المؤسسين "لحزب الاستقلال" تحت الحكم العثماني، ومن أكثر الناشطين وطنياً في رفض وعد بلفور والصهيونية تحت الانتداب. اعتقلته السلطات البريطانية مراراً أثناء الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩. وظهرت موهبتها الأدبية والشعرية في القدس في حي القطمون، حيث كانت تسكن بعد أن عاشت طفولتها في عكا. وقد تلقت تعليمها الابتدائي في مدرسة الشميت في باب العمود، ثم في دار المعلمات، ومن ثم واصلت الدراسات العليا في الأدب العربي في مرحلة الشتات في بيروت، وسجّلت إنتاجها الشعري الأول كشاعرة من شعر "الحداثة" في الخمسينيات مع توفيق صايغ وجبرا إبراهيم جبرا. وقدّمت في حياتها اللاحقة للعالم الغربي مباهية بإنتاج نخبة من أدباء وشعراء عرب ضمن مشروع "بروتا" للترجمة ١٩٨٠. وعرفت الجيوسي كأديبة وشاعرة وناقدة ومترجمة أكاديمية، ومن أعمالها، "الشعر العربي الحديث" منشورات دار جامعة كولومبيا، نيويورك ١٩٨٧، والأدب الفلسطيني الحديث ١٩٩٤ .

كان للنكبة تأثير كبير على إنتاج المبدعات والشاعرات، خاصة وقد عشن مآسي الشتات وفقدان الوطن. وظهر هذا في شعر سلمى الجيوسي، الحماسي إذ تقول في الخمسينيات:

إليّ إليّ بخمر الكفاح

وعطر الجراح وحد السلاح

أذود عن الهيكل الأقدس

ذئابا تعربد في أرضنا

وأرسو على الشاطىء الأخرس

وشهدت الأربعينيات ظهور أسماء شابه واعدة في الشعر فيها أحاسيس وطنية، ظلت مكبوتة إلى أن نضجت بعد النكبة. منهن كلثوم مالك عرابي، وسميرة أبو غزالة، ودعد كيالي،

وأسمى طوبى وغيرهن. ويبحث الدارسون اليوم عن بنات القدس وفلسطين ليوثقوا أعمالهن بالأبحاث والدراسات وبدراسة أدب المرأة في تلك الحقبة الهامة من تاريخ فلسطين، الذي ساهمت به البنت الفلسطينية الشلبية منذ وقت مبكر وفي ظروف سياسية واجتماعية وثقافية صعبة تحت الانتداب البريطاني والأطماع الصهيونية بالأرض.. كما الظروف الصعبة في الشتات بعد النكبة.

كاتبات بين زوجات النخبة المقدسية

وبين ١٩٢٠-١٩٤٨ كان التقسيم الطبقي واضحاً في المجتمع الفلسطيني كما سائر البلاد العربية بسبب الوضع الثقافي والسياسي والاقتصادي الذي أثّر على نوعية الحياة والمهن ومستوى التعليم والثقافة. كان المجتمع الفلسطيني يتكون من كبار الملاكين والتجار، والعمّال والمهنيين، وأهل الريف والقرى. وظهرت الفروق بين الرجال والنساء في المدينة والقرية في الوقت الذي بدأت المرأة بالتحرر من "أميّة الماضي"، إلا أن بعض نساء النخبة المتعلمات من الطبقة البرجوازية والوسطى برزن ليصبحن كاتبات وأديبات ومبدعات وانخرطت في العمل الوطني والحياة السياسية وإن إحساس البنات من جميع الطبقات بالدراسة والعمل.

وفي ظل الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي كانت تتفاعل في حراك متسارع في فلسطين، زوّدت هذه المرحلة النساء كالرجال وإن كنّ قلة بمادة غنيّة للأدب والكتابة والإبداع وتسجيل السير الذاتية وذاكرة المكان والإنسان. وبتأثير البيئة الثقافية المنفتحة لبعض العائلات من الطبقة البرجوازية، برزت كاتبات من بين نساء "زوجات النخبة" والقيادات السياسية. ويُعزى ذلك لتعليمهن العالي وثقافتهن التي كانت تتناسب مع ثقافة الأزواج المتعلمين، الذين درسوا في الخارج والتقوا بنساء رجعن معهم ليعشن في القدس، ومدن أخرى في فلسطين وليكتبن عن فلسطين، لتصبح كتابتهن وثائق هامة، تشير لحياة كانت تواكب ما يجري في العالم، وتتطلع لوطن حرّ مستقل، بعد أن شهدن على قسوة الطامع في فلسطين من انتداب وصهيونية.

إحدى هؤلاء النسوة كانت عنبرة سلام الخالدي المولودة في لبنان. فقد بدأت حياتها في القدس مع زوجها أحمد سامح الخالدي المربي والكاتب مدير الكلية العربية في القدس. فمنذ أواخر العشرينيات وظفت عنبرة قدراتها العلمية وانخرطت في النشاطات الخيرية والاجتماعية الوطنية والسياسية إلى جانب زوجها أحد قادة المجتمع المثقفين.

وجمعت في ذاكرتها مادة قيمة وضعتها في مذكرات ذاتية في السبعينيات من القرن العشرين بعد الشتات في كتاب: "جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين"، سجّلت فيه نشاطاتها الثقافية والسياسية عن مسقط رأسها ببيروت وعن القدس التي اعتبرتها وطنها مكان

مولد زوجها المقدسي. ولتمكنها من اللغة العربية والإنجليزية استطاعت السيدة الأنيقة:

"الكُبار"

كما كانت نساء القدس يصفنها، فقد ساهمت في تعريف نساء القدس في مرحلة مبكرة بالأدب العالمي. ترجمت إلى العربية من الانجليزية في الأربعينيات ملحمة الشاعر الإغريقي هوميروس "الإلياذة". ساعدها في ذلك أجواء بيت زوجها الراقية في القدس، وكتبه الكثيرة المرصوصة على رفوف مكتبته الأنيقة، ويبدو أن هذا الجو الثقافي دفعها إلى مزيد من الإبداع لتترجم أيضاً "الإنيادة" لفرجيل.

زوجة أخرى لناشط سياسي مقدسي من أوساط النخبة كانت متيل مغنم لبنانية المولد زوجة مغنم مغنم المحامي المرموق، وكان قد التقاها في أمريكا أثناء دراسته لتعود معه في العشرينيات إلى القدس وليس للبنان مسقط رأسها، وهي في العشرين من العمر. وسجّلت هذه المرأة نشاطات متنوعة وملموسة مع الرائدات من نساء القدس في الجمعيات الخيرية، وفي العمل الاجتماعي وقضايا المرأة والكتابة في الصحافة. بالإضافة لنشاطها السياسي ومشاركتها في المظاهرات في القدس ضد الانتداب والصهيونية، كما شاركت في المؤتمرات النسائية من أجل نصرة فلسطين منها "المؤتمر النسائي الشرقي الكبير" الذي عقد في القاهرة عام ١٩٣٨. والمؤتمر العربي النسائي ١٩٤٤. وبحماس المرأة المثقفة التي أرادت تحقيق الذات في مجتمع يعيش التقاليد بأمانة، وضعت متيل مغنم كتاباً عام ١٩٣٧ يعد الأول من نوعه حول المرأة الفلسطينية في الثلاثينيات باللغة الانجليزية(The Arab Woman and the Palestinian Problem). ووثقت كثيراً من الأحداث المتعلقة بالنواحي الاجتماعية والثقافة والتعليمية عن تلك الفترة الزمنية الهامة من سيرة البنت الفلسطينية الجديدة وسجّلت اسمها أيضا ككاتبة وأديبة متنورة.

وفي الثلاثينيات والأربعينيات ظهرت أسماء بنات كان لهن الاستعداد للكتابة الأدبية، كما أبرزت الصحافة. وتطوّرت هذه المواهب بعد النكبة ليكتبن "كتباً" ومذكرات شخصية تصوّر حياة المرأة الفلسطينية قبل النكبة. كتبنها بعد التشرد ليسجلن ما يثري دراسة إنتاج المرأة الثقافي والأدبي والاجتماعي والسياسي. ولم تهمل وديعة قدورة خرطبيل كتابة مذكراتها تحت عنوان: "بحثا عن الأمل والوطن ستون عاماً من كفاح امرأة في سبيل قضية فلسطين" ١٩٩٥. وكانت السيدة الوطنية قد اعتبرت فلسطين وطنها لبنان منذ زواجها من الطبيب الفلسطيني، أديب خرطبيل من طبريا الذي كان يدرس الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت. ونشطت في الحركة النسائية التي كانت تبشر بنهضة المرأة، ودورها الجديد في مرحلة النضال الفلسطيني الذي سجّله التاريخ كمحطات مشرقة لدور المرأة.

ناشطات في العمل الاجتماعي والتعليمي



عريقة النجار (لفتا) — نعمتي العلمي

نعمتي الامام زوجة اسحاق النشاشيبي — كيتي انطونيوس

لبيبة صلاح — ثمرة طنوس

وكتبت عدد من النساء مذكراتهن بعد النكبة منهن أغسطين جوزي، وهالة السكاكيني وسيرين الحسيني ابنة نعمت العلمي الناشطة في الحياة الاجتماعية والسياسية وأسمى طوبى في "عبير ومجد". أما "رحلة جبلية رحلة صعبة" فقد رسمت فيها فدوى طوقان صورة حياتها بلغة أدبية وصدق مشاعر صورت فيها المجتمع النسائي المكبوت في نابلس، وعبّرت عن مشاعرها وانطلاقها في القدس بفضل شقيقها إبراهيم طوقان الذي ساعدها على اطلاق بداعها الذي كان دفينا لفترة من الزمن.

وعرفت بنات القدس وفلسطين عن بنت شلبية أخرى ولدت في عكا وظلت عائلة اليشرطي تفاخر بها ب "ستي فاطمة"، فقد كتبت نوعاً آخراً من الأدب هو علم صوفي يختلف عن إنتاج غيرها من النساء، وكان لذلك سبب مباشر عليها. فقد ولدت في مطلع القرن العشرين لتتأثر بثقافة والدها الشيخ علي نور الدين اليشرطي شيخ الطريقة الشاذلية ولتلتزم بها فتعلمت القرآن وتعمّقت في الدين لتسير على خطاه، وتصبح العالمة الفلسطينية المتصوفة. ورغم طبيعة التصوف فلم تنأ عن الناس، وظلت على اتصال مع الذين خدمتهم وعلمتهم. واهتمت أيضاً بالموسيقى وسماع أغاني المطربين والمطربات في الحفلات العامة في القاهرة. ولم تكن حياتها الصوفية التي توحي بالوحدة أو تمنعها من الكتابة، فقد وضعت عدة مؤلفات دينية سجّلت سيرتها الذاتية في الأربعينيات في كتاب "مسيرتي في طريق الحق" وآخرَ في "أثر التصوف في حياتي" ليعرف الناس عن المرأة المتصوفة الوحيدة في فلسطين، ولتضيف جديدا إلى التنوع الإبداعي للمرأة الفلسطينية، متعددة المواهب والإبداعات[٥٠].

مواهب موسيقية

اهتم أهل القدس بالموسيقى، فكان أهالي البنات والأولاد الموهوبين فخورين بمولد طاقات إبداعية مبكرة في العائلة منذ سن الطفولة. وقد ساهمت المدارس الأجنبية التي تدرّس مادة الموسيقى والفن في منهاجها من اكتشاف وتطوير المواهب، عبر آلة "البيانو" وقراءة النوتة والقدرة على إتقانها، حيث كانت أهم وسيلة للدخول إلى عالم الموسيقى. وبدت كثير من البنات المحبات للموسيقى سعيدات وهن يتأبطن دفتر "النوتة" ويغنين في الطريق للصديقات وهن "يدندن":

دو.... ري..... مي.... فا.... صول... لا .... سي.....دو... ،

ومن شبابيك مدارس الشميت والسلزيان، والمدرسة الإنجليزية والفرير، كان المارة من قربها يسمعون التلميذات المبتدئات يعزفن الأنغام... بعضهن بحماس والبعض الآخر من غير

٥٠ المعلومات والصورة في الكتاب من عائلة الشيخ أحمد اليشرطي – عمان.

رغبة. وصوت المعلمة أو الراهبة (سستر انجيلكا) في مدرسة الشميت تعيد الدرس بعصبية وهي تقول:

دو.... ري.... مي....

بعض بنات مدرسة المأمونية "الحكومية" في القدس والتي لا تدرّس الموسيقى كن يذهبن لمدرسة السلزيان في المصرارة، لأخذ الدروس الخصوصية في البيانو. ولم يكن هناك أسعد من صديقات الطفولة هند خماش وعايدة النجار، وهن يذهبن معاً لتلقي الدروس غير الإجبارية بعد المدرسة. وكانت السعادة أكبر وقد شاركن في حفلة آخر السنة بعزف مشترك لقطعة موسيقية بسيطة درسنها بمحبة لتكون الأولى والأخيرة في "عزف طفولي"، قبل النكبة التي غيّرت مجرى حياة الناس في فلسطين، وأنهت الأحلام لتعليم الكثيرات من بنات القدس الموسيقى. وقد رحلت الكثيرات وتوزعن في الشتات وظلت كلمات صديقة الطفولة هند خلف صورة فوتوغرافية مهداة لي بعد النكبة، تذكرني بتلك الأيام التي كان فيها "سعادة وأمل". وظل طيف الصداقة يربطني بها وأنا أتتبع أخبارها واسمع صوتها وهي تذيع من محطة الإذاعة البريطانية في لندن بعد النكبة . إذ كانت أبرز نجمات برنامج الأطفال في القدس

كان في المدينة اماكن وفرصا لتعليم البنات والأولاد الموسيقى، وكان المهتمون بتعلم الموسيقى يتلقون دروساً خصوصية في القدس على يد الفنان المقدسي سلفاتور عرنيطة، خريج معهد الموسيقى في لندن، وكان أستاذاً موهوباً في العزف على الأورغن والبيانو، يعلن عن عنوانه في الصحف: (ص.ب) (٢٩٤)، تليفون (٥٧٩) القدس. وقد شهدت القدس على موهبة سلفادور عرنيطة الذي وُلد فيها عام ١٩١٤، ليصبح من أبرز موسيقييها، خاصة وقد درس في أكاديمية إيطالية عريقة، في لندن وأمريكا. واستفاد من علمه الموسيقيّ أبناء القدس بعد عودته عام ١٩٣٧، ليدرسها في جمعية الشباب المسيحية (YMCA)، ثم ليعلم الطلاب العرب الموسيقى في الجامعة الأمريكية في بيروت بعد النكبة مع زوجته الفنانة يسرى جوهرية ابنة الموسيقار المقدسي المعروف واصف جوهرية الذي تزوّجها عام ١٩٤٧. كانت القدس قد شهدت اهتمام البعض بالموسيقى منذ العشرينيات والثلاثينيات، وكان بينها عائلة خاشو المقدسية التي اهتمت بتعليم ابنها يوسف الذي ألحقته بمدرسة الفرنسيسكان في القدس وهو في التاسعة من عمره ليدرس على يد أوغسطين لاما، وليصبح من أبرز مؤلفي السمفونيات. وكان الاهتمام بتنمية موهبته الموسيقية المبكرة وتشجيعه بالعزف على البيانو أيام الأحد في كنيسة القيامة، ما جعل خاشو يبرز في الأربعينيات، رغم صغر سنه وليتخصص بالموسيقى الكلاسيكية بعد عام النكبة، حيث عاش فترة من الزمن في استراليا مع زوجته الأسترالية وابنته

الوحيدة جوزفين، قبل أن يعود للبلاد العربية، وقد ألّف سيمفونية "القدس" من بين أعماله الكثيرة المستوحاة من المدينة المقدسة، مسقط رأسه التي أهدته موهبته الموسيقية[٥١].

كما اهتم النادي الرياضي العربي الذي أسّس عام ١٩٣٥ في شارع مأمن الله بالفن والأدب والموسيقى، وكذلك نادي الشبيبة الأرثوذكسي في شارع بولدوين. وكان نجاحه الكبير والإقبال عليه بفضل رئيسه نصري جوزي الذي كان يؤمن بأهمية رفع مستوى الشبيبة أدبياً واجتماعياً. وأصبح تعلم الموسيقى وبشكل خاص العزف على البيانو مرغوبة بين العائلات المنفتحة على الغرب كعائلة والد "ادوارد سعيد" الفلسطيني الأمريكي والأم اللبنانية. وقد بدأ شغفه بتعلم الموسيقى والعزف على آلة البيانو في طفولته في القدس قبل الرحيل إلى القاهرة في عام النكبة * ١٩٤٨.

واهتمت العائلات المثقفة بتعلم الموسيقى للأولاد والبنات. وأصبحت الهوايات زينة جديدة للبنت الشلبية التي تتحلى بالعلم والعمل والاختلاط والتفاعل مع المجتمع الذي كان يسير بخطى سريعة نحو الانفتاح ونهضة المرأة. وتباهت الأمهات بأن البنت تتعلم الموسيقى وتعزف على آلة البيانو. وكثيراً ما طلبت بعض الأمهات من البنت التي ما زالت في بداية قراءة "النوتة" من إظهار هذه الموهبة أمام الزائرات، خاصة وقلة من البيوت كانت تقتني آلة البيانو من ماركة مشهورة مستوردة من أوروبا.

موسيقى شعبية وطرب

لم تقتصر الموسيقى على الآلات الغربية، إذ كان أهل القدس والمدن والقرى الأخرى يعرفون الآلات الموسيقية الشعبية التي يعزف عليها الرجال أكثر من النساء وهي الطبل، والدف والدربكة، والربابة والعود والقانون والناي والمزمار. إلا أن آلة العود أو التي كانت الأكثر شعبية بين النساء وقد تعلمنها من موسيقيين من تخت الإذاعة الفلسطينية، أو عن طريق سيدة موهوبة تعزف النغم "على السمع". وكذلك الدربكة التي أتقنتها كثير من النساء في المدينة والقرية، ويسعدن بالرقص على نغماتها في المناسبات الاجتماعية كالولادة، والطهور والأعراس. وكثيراً ما رقصت بنات القدس في الاستقبالات الأسبوعية الخاصة بالنساء، وتمايلت بنت المدينة الشلبية بالرقص، وهي تقوم بحركات رشيقة على نغمات "رقصة ستي" أو نغم "الهوانم"،

---

٥١ من سامي قموة في عمان، زوج ابنته جوزفين.

* ادوارد سعيد ١٩٣٥-٢٠٠٣ ولد في القدس درس فيها الابتدائية ثم مصر فأمريكا دكتوراه من جامعة هارفارد ١٩٦٤. عمل اكاديميا في جامعة كولومبيا في نيويورك، مثقف يتقن ست لغات. كوّن صداقة مع الموسيقار الاسرائيلي دانييل بارنبويم وأسس الاثنان اوركسترا الديوان الغربي الشرقي. ترك ١٤ عملا أهمها الاستشراق (١٩٧٨) وخارج المكان (سيرة ذاتية)، وطني اهتم بالقضية الفلسطينية والدفاع عن شرعية الثقافة والهوية الفلسطينية.

وأيضا وهن يقلدن فيها الرقص الشرقي أو "هزّ البطن" الذي التقطنه من الأفلام المصرية، ومن المعلمات المصريات الموفدات إلى فلسطين.

ورغم انطلاق النساء في الغناء والرقص في المجتمعات المحصورة، بقيت البنت المقدسية أكثر بنات فلسطين تمسّكاً بعدم إظهار المرح في المجتمعات المختلفة. وظل البعض يتندر على كيفية تعبير نساء القدس عن السعادة عندما يطربن في عرس، إذ تحرك المرأة رجلها "تحت الطاولة"، خوفاً من أن يراها الحضور. وللتعبير عن جمال العرس تقول بنت القدس:

العرس كان شلبي كثير ... كان هادي بترمي الإبرة وبتسمعيها....

العرس كان راكز كثير .... وشلبي[٥٢]

وكان هذا التصرف للتعبير عن الشخصية النمطية للبنت المقدسية "الراكزة" في العرس "الشلبي" وكما يرينه. وهذا التصرف لبعض النساء المقدسيات، يختلف عن تصرفات المرأة وهي سعيدة في الأعراس وأمام النساء مثل بنات يافا، ونابلس وحيفا. وكانت "الجنكيات" المغنيات يقمن بالغناء والدق على الطبل، وترقص النساء على ألحانها العفوية، هذا رغم الانغلاق والتعصّب الاجتماعي.

وسعدت بنات القرى بمشاهدة الرجال وهم يرقصون "الدبكة" أو "السحجة" التي اعتبرت من اختصاص الرجال. إلا أن النساء مارسنها في بعض قرى الشمال، حيث يسُمح للمرأة بالاشتراك بالدبكة جنباً إلى جنب مع الرجل. وكانت القروية بطبيعتها أكثر تحرراً من المرأة المدينية وتعبّر عن مشاعرها بطريقة عفوية مرحة كما في "المهاها" وغناء الأغاني الشعبية التي تصوّر المجتمع كما هو في المجتمع الريفي الجميل.وقد تطوّر هذا الفن الشعبي بعد النكبة، لتصبح الدبكة من التراث الفلسطيني، وتحرص الأندية الثقافية في القرية والمدينة على إنشاء فرق لتعليم الرقص الشعبي الفلسطيني للأجيال والحفاظ عليه، وإن أدخلت عليه بعض الحداثة في الحركات والأزياء. وترقص الصبايا والشباب معاً على نغمات الأغاني الشعبية المحببة وأشهرها:-

على دلعونة على دلعونة	يا ليلي طوّل ع اللي يحبونا
يا ليل طول ع الأسمراني	اسمر سباني بغمز لعيونا

٥٢ سمعت هذا التعليق اللطيف من المرحومة هند الحسيني ابنة القدس، وقد سكنت جارة لي في عمان في التسعينيات.





فرقة الاذاعة الفلسطينية الموسيقية ١٩٣٨

رائدات



عفاف عرفات
فنون



يسرى جوهرية
موسيقى



رفقة المختار
رائده بالتعليم



نفيسة وسائدة جارالله
تعليم



عدوية العلمي
التعليم



يسرى صلاح
التعليم

وكذلك:

عاليادي اليادي اليادي يا أبـــو العبـــيديــة
يا جـــــهل ما بطـلك لو كـان عمــري مية

كما غنّى و"دبك" رجال القرية على أغنية:-

يا عــزيز عيـــــــني وأنا عايز اروّح بلدي
بلـــــدي يا بلـــــدي وأنا عايز اروّح بلدي
بلـــــدي يا غــــــالي افديك بروحي ومالي
والحرب ما كان عبالي وأنا عايز اروّح بلدي

وكان رجال فلسطين قد غنّوا هذه الأغنيةٍ وهم يشاركون في الحرب العالمية الأولى مع البريطانيين والحلفاء ١٩١٤، وكان الغناء شوقاً لعائلاتهم التي انفصلوا عنها في الحرب التي انتصرت فيها بريطانيا ونكثت بوعودها للعرب، بعد (سايكس بيكو ١٩١٦)، وإصدار (وعد بلفور ١٩١٧) الذي أعطى اليهود الحق بإقامة وطن قومي في فلسطين على حساب أهلها العرب التاريخيين.

وسعدت نساء المدينة في القدس كما في يافا وحيفا ونابلس وهن يرقصن على نغمات، ع الروزانا، ويلبق لك شك الألماس، ومرمر زماني، ويا ميت مسا، وليّه وليّه، ويا مايلة ع الغصون عيني، وطالعة من بيت أبوها، واتمخطري يا عروسة وغيرها من الأغاني التراثية الجميلة. وتميّزت نساء نابلس بمحبتهن للطرب والغناء والتعبير عن الاهتمام بالموسيقى والرقص في التجمعات النسائية فقط، رغم المجتمع المتزمت. وغنّت الصبايا مع الأمهات والجدات وهن يعزفن على العود. كما كانت نساء يافا يقمن بذلك بالتعبير عن الفرح أكثر من بنات القدس اللواتي كن أكثر تزمتا في مجتمع أكثر انفتاحا.

في تلك الأيام، وجد في كل عائلة أو حيّ أو حارة بنات يتحلين بصوت جميل، أصبحن معروفات في الجمعات النسائية. إلا أن كثيراً من تلك الأصوات لم يتسن لها أن تنطلق خارج حدود الحفلات المغلقة، بسبب العادات والتقاليد، إذ كانت المرأة حتى نهاية الأربعينيات تعيشٍ في مجتمع "محافظ" رغم انفتاح البعض في القدس ويافا على الحياة الغربية، التي كانت مثاراً للجدل لدى البعض في المجتمع أو على صفحات الجرائد.

وظلت أغان تراثية جميلة في ذاكرة بنات القدس، وقد غنتها الجدات لبناتهن وحفيداتهن في الأعراس، ومن أشهرها:

إتمخطري اسم الله يا عروسة يـا وردة جـوة الجنـينة
عقـد القرنفـل يا غـزالة والفـل مخيّم علـينا
قومي ادخلي قصرك العـالي وقولي لعريسك يا حلالي
واقضي الأيام والليـالي وسـاعـات وعيـشة هنية
قومي اطلعي اسم الله ع سريرك ابـن الأكـابـر عريسـك
ربي يهنيك بعريسك آه يـا حـلاوة يـا شـلـبية

وغنّت النساء للبنت الشلبية، وهن سعيدات مع أمها وأخواتها أثناء عرض جهاز العروس أمام الحاضرات. كانت تلبس وتغيّر سبعة "فساتين" كل فستان لون، وتتمايل وهي "تقلع" فستاناً وتلبس آخراً. بالإضافة إلى ذلك كانت تعرض مجوهراتها من الذهب "والألماظ" الألماس. وكان بين النساء من تحب الغناء والطرب وتقوم بدور قيادي في خلق المنافسة بينهن في الرقص، وإبقاء الحفلة حيّة والغناء متواصلاً بمشاركة الجميع، وغنين:

البنت الشلبية عيونهـا لوزيـة يحلالي وصالك يا نور عيني
لبست البني وخلعـت البنـي تعالي جـنبي يا نـور عيني
لبست البني وخلعـت البنـي ناوية تجنني الحلوة الشلبية
لبست ألماظها وخلعت ألماظها تعوا شـوفوا جهاز هالشلبية

يسرى جوهرية

لم تبرز بنات متمكّنات ومتخصّصات في الموسيقى غير "المهنيات" القليلات. وظهرت موهبة يسرى ابنة واصف جوهرية التي ستصبح "زوجة الموسيقار سلفادور عرنيطة"، وكان لا بد لها وهي البنت الصغيرة أن تتأثر بالبيئة التي نشأت فيها منذ طفولتها في البيت المقدسي العتيق في القدس القديمة. المسكن الدافئ، وكأنه متحف فني يحفظ ذاكرة الأجيال والأصوات والآلات الموسيقية الأربع والسبعين آلة طرب تنبض بالنغم في بيتها. ويتخيّل الزائر وكأن ساكن البيت أو ضيفه يسمع الدربكة والنقارات والمزهر المعلقة على الجدران تعزف أنغاماً مستمرة. تزيد الغرفة جواً فنيّا وحياة نابضة بالصور التي تزين جدران الغرفة لأشهر الموسيقيين العرب الذين أحبّهم والدها واصف جوهرية وأنزلهم في بيته في القدس منهم: محمد عثمان، والشيخ سلامة حجازي، وعبده الحامولي، والشيخ يوسف التلاوي، والسيد درويش، وأبو العلاء محمد، كما وثق ذلك في مذكراته. وفي هذه البيئة الراقية والمطعّمة بالتراث والحضارة وبين

عائلة أحبت البنات كالأولاد نشأت فنانة مقدسية مثقفة. وكان والدها واصف جوهرية قد تأثر بوالده الفنان خليل جوهرية، كما تأثر شقيقاه فخري وتوفيق اللذان شكلا معه فرقة موسيقية أطربت أهل القدس في المنازل والأماكن العامة والمقاهي، وعزف أفراد هذه الفرقة العائلية على العود والقانون والناي والبيانو والبزق.

وقد نمت قدرات يسرى الفنية بفضل اهتمام والدها الذي لاحظ استعداد البنت الكبرى (يسرى) لتعلم الموسيقى وأذنها الموسيقية المرهفة، إذ كانت تطرب لسماع الموسيقى أكثر من شقيقتها الصغرى (آيه).وتعلمت العزف على البيانو في المدرسة منذ الطفولة. كما درست الموسيقى الشرقية على يد موسيقيين معروفين من أصدقاء والدها، كانوا يعملون في فرقة موسيقى الإذاعة الفلسطينية التي أنشئت عام ١٩٣٦، وهما علي درويش، وسامي الشوا الملقب بأمير الكمان. وانضمت يسرى للفرقة العائلية في الأربعينيات وهي طفلة لتعزف على العود. وتطوّرت علاقتها مع الموسيقى والفن بعد زواجها قبل النكبة بعام ١٩٤٧ من الفنان المقدسي سلفادور عرنيطة. وقد استمر اهتمامها بعد أن درست مع زوجها الموسيقى في الجامعة الأمريكية في بيروت. ويمكن القول إن [٥٣] يسرى جوهرية عرنيطة كاتبة وباحثة فلسطينية اهتمت أيضا بدراسة الفن الشعبي الفلسطيني ووضعت كتاباً ليسجل ويوثّق التراث الفني الذي تحاول إسرائيل سرقته بعد النكبة.

وظل نغم العود في ذاكرة طفولتي، فقد تعلّم شقيقي عارف النجار في العطل الصيفية أثناء دراسته في الجامعة الأمريكية العزف على يد جوهرية صديق خاله، وكان أيضاً قد تعلّم العزف على البيانو، كما شقيقتي الكبرى عريفة التي تعلمتها في مدرسة السلزيان في المصرارة التي تخرجت منها.

بنات على المسرح

كان استعداد المثقفين الفلسطينيين والصحافيين للكتابة المسرحية واضحاً منذ العشرينيات. فالمسرحية التي وضعها جميل البحري من حيفا عام ١٩١٩ وعنوانها: "قاتل أخيه" ولدت مع مولد إطلاق السكاكيني اسم "مقهى الصعاليك" على مقهى "المختار" والذي اهتم مثقفوه بالمسرح. وتشجع مريدو المقهي من الأدباء والمثقفين، بعد عرض المسرحية على مسارح سوريا وفلسطين، ونجاحها من الاهتمام بالمسرح. وحفّزت الكتاب على إنشاء مسرح للتمثيل في حيفا، التي تميزت في هذا المجال.

ولم يكتفَ البحري بهذا النجاح، فقد أسّس "مجلة الزهرة" الأدبية عام ١٩٢٢ في حيفا

٥٣ يسرى جوهرية عرنيطة، الفنون الشعبية في فلسطين، ط ٢، عمان، ١٩٨٨.

لتصبح "الزهور" عام ١٩٢٧، وقد استمرت بالصدور حتى عام ١٩٣٠ عندما اغتيل على إثر خلافات طائفية واهتم صاحب الزهور بإيجاد باب يتعلق بالمسرح في المجلة التي قرأها المثقفون*. وبسبب اهتمام المثقفين في القدس ويافا وحيفا، بالمسرح تشجّعت أندية الشبيبة الأرثوذكسية بتقديم المسرحيات في العشرينيات والتي جذبت المشاهدين من طلاب المدارس والأندية. بتشجيع من "الشلة"، من أبناء الطائفة الأرثوذكسية ورواد مقهى الصعاليك". وساعد الانفتاح الاجتماعي تشجيع البنات في النشاط الفني، والتمثيل على مسارح المدارس الأجنبية في القدس منذ العشرينيات. وسعدت البنات بتمثيل المسرحيات في سن الطفولة أمام أهل القدس وبنات المدرسة والمسؤولين. ونشطت الجمعيات الثقافية وأبرزها جمعية الشابات المسيحية في القدس وفروعها في يافا وحيفا ولم يقتصر ذلك على البنات فقد مثّل الأولاد أيضا وصفّق لهم الأهل فخورين بمواهبهم.

وفي خضم الآراء المتنوعة على صفحات الجرائد فيما يتعلق بالبنات ودور المرأة في المجتمع فقد قدم شباب القدس عام ١٩٢٨ مسرحية "مجدولين" على مسرح صهيون، ومثلت فيه لأول مرة "بنت". وفي يافا قامت جمعية السيدات الأرثوذكسية برئاسة أديل عازر حفلة خيرية مثّلت الطالبات رواية "يعقوب ويوسف" أبدعن في تمثيلها. وقدمت السيدة عازر هدية لتشجيع الفتاة التي قامت بتمثيل دور يوسف، وشكل هذا الحدث عناوين لأخبار الصحافة المشجّعة لهذه النهضة التي أبرزتها الصحافة وأثنت على دور الفتاة الشجاعة. كما قام "النادي العربي في القدس "بتقديم تمثيلية" مجدولين عام ١٩٢٩. وقدّم شباب النادي الرياضي الإسلامي، رواية "مطامع النساء" أعطت عبراً عن النساء. والطريف أنه لم يكن بين الحضور نساء واقتصر الحضور على الرجال، بسبب العادات والتقاليد التي كانت تتحكم بالاختلاط، ولبس الحجاب.

بالإضافة نشطت الأندية الشبابية في بيت لحم، حيث قامت بجولات في مدن فلسطين لتقديم مسرحية "الاستبداد" ترجمة خليل بيدس**. رغم قلة المساحة المسموح فيها للنساء والرجال من الاختلاط. وشجّعت المدارس الأجنبية النساء على حضور حفلات غنائية مدرسية أو مشاهدة "التمثيليات"، وكانت الصحافة تنشر أخبارًا مثل هذه النشاطات. وتشجعت النساء في ١٥ أغسطس عام ١٩٢٧ لحضور تمثيلية "أوبرا غنائية"، رصد دخلها للمدرسة

---

* تزعمت الخلافات الطائفية جريدتين، الجامعة العربية «مجلسيين»، والصراط المستقيم «مستقلة»، على إثر مقتل البحري. وكان النزاع قد انفجر في حيفا حول ملكية مقبرة بين الكاثوليك والمسلمين، إلا أنها فشلت في إذكاء روح الطائفية. انظر عايدة النجار، صحافة فلسطين، مصدر سبق ذكره.

** خليل بيدس ولد في الناصرة (١٨٧٥-١٩٤٩) رائد القصة القصيرة في فلسطين أنشأ مجلة النفائس العصرية (١٩٠٨) أول مجلة متخصصة بالأدب، عاش في القدس وعمل مدرساً في مدرسة المطران، له نشاطات وطنية شارك في مظاهرة عام ١٩٢٠ ضد وعد بلفور والصهيونية.

الأرثوذكسية الوطنية في القدس. ونظراً للإقبال عليها فقد عُرضت مرتين، الأولى على مسرح مدرسة الكاردينال فيراري، والثانية للسيدات المسلمات على مسرح كلية روضة المعارف الوطنية. وتشجّع الجمهور لحضور مثل هذه "الأوبرا" الثانية من نوعها في فلسطين لدعم المدرسة الوطنية. وانتظر أهل القدس كباقي المدن مثل يافا وحيفا الفرق التمثيلية العربية والأجنبية التي كانت تزور فلسطين لإحياء الحفلات، كان من بينها فرقة جورج أبيض والشيخ سلامة موسى، وعبدالله عكاشة التي قدّمت عروضها في ١٣ ابريل كما جاء في جريدة فلسطين. وبدا اهتمام أهل القدس بالمسرح، عندما عرضت فرقة رمسيس القادمة من القاهرة روايات "كرسي الاعتراف"، "والعرش"، و"غادة الكاميليا"، و"المجنون وراسبوتين" و "الاستعباد". كما حضرت نساء القدس رواية "المائدة الخضراء"، ورواية "الحب" التي قدمتها فرقة فاطمة رشدي. وكانت جريدة فلسطين قد أعلنت عن تاريخ العرض في ١٩٢٩/٧/١٨. كما اهتم أهل القدس بانتظار فرقه نجيب الريحاني التي عرضت "ليلة في بغداد"، و"ياسمينه"، و "ليلة الحظ"، وأحب أهل القدس نجيب الريحاني وزوجته لوردا كاش اللذين كان لهما أصدقاء من "الطبقة البرجوازية"، يسعدون باستضافتهم لقضاء أوقات طرب سعيدة مع الأصدقاء في بيوتهم الريفية، إذ كثيراً ما استضافهم فخري النشاشيبي في بيته المستأجر في عين كارم.

وسعد أهل القدس بأداء شباب "الجمعية الإسلامية" الفنّي على مسرح "زهرة الشرق" في رواية "هملت" لشكسبير. ولم يقتصر تمثيل بنات المدارس على القدس، وأسست في حيفا "فرقة الكرمل التمثيلية"، حيث نالت إعجاب الصحافة والناس. ونشرت في الصحافة أسماء ممثلات على المسرح ثريا أيوب وأسماء ووصفتهن بأنهن واعدات ويبشرن بمستقبل فني مشرق.

أم فؤاد تمنح أم كلثوم لقب كوكب الشرق

وتحمّست النساء لحضور التمثيليات على المسارح، وكذلك سماع المطربين والمطربات، وكان الفضل لسيدة فلسطينية من حيفا (أم فؤاد) عام ١٩٣٢ كما سجلت الصحافة إطلاق لقب "كوكب الشرق" على أم كلثوم أثناء جولتها في حيفا ويافا والقدس، فقد صعدت السيدة على "مسرح الانشراح" في حيفا وهي سعيدة وقد أطربتها أم كلثوم فقالت لها بإعجاب كبير:

أنت كوكب الشرق بأكمله.

وفي يافا طرب أهل المدينة وأم كلثوم تغني على مسرح "قهوة أبو شاكوش" فقام حسن علاء الدين وألقى أبياتا طربت لها أم كلثوم كما الحضور، حّفز الحضور بالتصفيق الحار. وطرب أهل فلسطين رجالاً ونساءً على صوت أم كلثوم أثناء جولتها في الثلاثينيات في القدس، كما سمعت البنات على مسارح حيفا لفريد الأطرش وعبد الوهاب وأسمهان. وفي هذا العقد

تكاثرت الأندية الموسيقية والتمثيل في القدس والمدن الأخرى، وكان إحداها "نادي الموسيقى والتمثيل العربي" الذي جذب الكثيرين لمركزه في عمارة السعيد في حي المصرارة. ت (١٠٧٨) بفضل سكرتيره سليم جورج بلان الذي كان يطبّق أهم أهداف النادي وهي النهضة والتمثيل والموسيقى في فلسطين في وقت كانت الأحداث السياسية تقتل كل إبداع وكل فرح بسبب سياسة بريطانيا وتحيّزها للصهيونية الماضية في الاستيلاء على الأرض والوطن.

ويبدو أن جمال الطبيعة في قرية عين كارم القريبة، من القدس قد جذبت الفنانين إليها للاستمتاع بوقت سعيد، في العطل. إلا أن المكان الشاعري قد جذب أيضاً الشاعر الشعبي نوح إبراهيم، "شاعر الثورة الفلسطينية" الذي اتخذ من القرية الخضراء بيتاً له بعد أن أبعدته السلطات البريطانية عن بلدته في شمال البلاد في الثلاثينيات. وكانت أغانيه الشعبية تحرّك المشاعر الوطنية وتحرضّها ضد بريطانيا والصهيونية. وفي عين كارم أيضاً، وجد مسرح كان ملتقى أهل القدس وأهل البلد للتعبير عن الوجدان الجمعي، وقد قدّم "نوح" مسرحية وطنية أبرز فيها دور المرأة الفلسطينية في المقاومة ضد بريطانيا. وكانت المسرحية ترمز لصورة جميلة لامرأة شجاعة بعد أن استشهد زوجها. فقد حثّت ابنها ليأخذ مكان والده في القتال. وساندت الثورة بالسلاح الذي اشترته بعد أن باعت مصاغها الذي له ذكرى جميلة وعزيزة على قلبها تُذكرها بحب زوجها الذي استشهد. وتواصل مسرحية نوح القصة أنه عندما عاد الولد الصغير الذي لم يقوَ على حمل السلاح، لم تفتح أمّه الباب، وقالت له: "ابني ذهب إلى المعركة وليس لي أولاد يعودون من المعركة دون أن يبلوا فيها بلاءً حسناً أو يستشهدوا في سبيل الله". وعاد الولد بعد أن ثارت حميته وحمل البندقية وحارب حتى كتبت له الشهادة. وقدّم نوح مسرحياته في عين كارم في العراء، شاهدها أهل القرية نساء ورجالاً، إحداها تمثّل الحياة أو الموت من أجل الأرض وكانت تحت عنوان "العربي والصهيوني" [٥٤].

وعرفت بنات القدس وفلسطين نساء شاركن في (فرقة الجوزي) التي أسسها عام ١٩٣٦، في القدس وعاشت حتى عام ١٩٤٨. وكان رئيسها نصري الجوزي وجميل الجوزي مخرجا، وأما الأعضاء، فهم: إميل الجوزي، فريد الجوزي، انطون سابيلا، خليل خوري، حنا خوري، لطفي قريضم، يوسف فتياني، يوسف بحوث، بدر حمدية، وكان بينهم من النساء جوليا برامكي، ووداد خوري، واميلي السلطي، ونجلا حوراني، ولم يسبق قبل ذلك أن وجدت بنات محترفات من العائلات المعروفة تعمل في المسرح. وقد ساهمت الفرقة في الإذاعة الفلسطينية عن طريق رئيسها. وقد أغنى آل الخوري نصري، جميل وفريد واميل مكتبة الإذاعة بأعمالهم الفنية [٥٥].وشجّعت جمعية الشبان المسيحية بتأسيس فرقة على غرارها عام ١٩٣٧،

---

٥٤ عطية عبدالله عطية، مصدر سبق ذكره ص ٢٠٨.

٥٥ تاريخ الإذاعة الفلسطينية، مصدر سابق. ص ٥٣



وكانت تقدم حفلات سمر مجانية على مسرح يتسع ل ٧٠٠ شخص. واحترفت التمثيل على هذا المسرح وغيره الشقيقتان ماري واميلي وجورجيت واسيلي.

ولم تبرز كثير من البنات في "الغناء" كما المسرح، وكان أبرز المغنيات "رجاء الفلسطينية" حيث غنّت أغاني طرب تراثية ولعبت دوراً في الحياة الاجتماعية. ولحن محمد عبد الكريم "أمير البزق" أغنية للمطربة ماري عكاوي "يا جارتي ليلى" التي أشهرتها خاصة وكانت تذاع من الإذاعة.

يا جـــارتي ليلي:

يا جـــارتي ليلى   يا بهــجة العين

شـــبابك الريان   أحيّا صـــباباتي

ولحظك النشوان   غير حـــالاتي

ناشـــدتك القربى   لا تنفري غضبي

فالعتـــب والعتبى   لم تبــق لي حيلا

يا جـــارتي ليلى

رسم الأرض والهوية

وبإلحاح من جمال الطبيعة الفلسطينية البهيجة في الربيع والصيف، وفي السهل والجبل والوادي وجدت بنات في المدارس يحملن الفرشاة والألوان ليقلّدن الطبيعة. ففي الثلاثينيات في الوقت الذي كان المجتمع يناقش وضع المرأة، تمكنت بعض بنات المدارس الأجنبية من دراسة فن الرسم. وأرسلت فتاتان من القدس للحصول على بعثة للدراسة في الخارج فقد ذهبت صوفي حلبي إلى باريس، بينما توجهت سهيل بشارة إلى بريطانيا، وبذلك فتحَ الطريق للقلة من بنات القدس والمدن الأخرى لدراسة الفن قبل النكبة. وبعدها كانت القاهرة إحدى الأمكنة الجاذبة لفاطمة المحبّ التي حفّزتها مدينتها أريحا بألوان أشجارها "المجنونة" بكل الألوان لدراسة الرسم. ونجحت بإبراز جمال الطبيعة في لوحاتها التي عرضتها في "معهد النهضة العلمي" الذي أقيم بعد النكبة في عمان، وشاركت فيه فنانات واعدات، روبيكا بهو ونعمة عصفور وليلى غنيم. كما كانت مواهب بعض البنات في طريقها للنمو في فلسطين، لتنضج في الخمسينيات. وقد أظهر ذلك معرضاً مشتركا لإسماعيل شموط وسامية طقطق "الزرو" في رام الله، كما أقامت عفاف عرفات من نابلس معرضها الخاص في القدس بعد أن درست

الفن في بريطانيا. ونمت بشكل واضح في بيروت بعد النكبة موهبة تمامٍ الأكحل شموط من يافا، وإيفون حنا متى من عكا وجمانا الحسيني من القدس، ليسجلن جيلاً من الرائدات في فن الرسم، يرسمن الأمكنة والإنسان والطبيعة وعبّرن عن مآسي النكبة والحنين للقدس وفلسطين باللون والمشاعر والذاكرة.

الفصل الرابع عشر

نساء وسياسة



السلطات البريطانية تقمع الفلسطينيين في باب العامود ١٩٣٨



١٤

نساء وسياسة

نشطت النساء الفلسطينيات منذ مطلع العشرينيات من القرن العشرين من خلال الجمعيات الخيرية والإنسانية لتساهم في تخفيف المشاكل الاجتماعية التي كان يعيشها الشعب الفلسطيني. وكان الفلاحون قد عانوا من سرقة أراضيهم أو اضطروا لبيعها وليعملوا لدى الإقطاعيين الذين اشتروها، بسبب ثقل الضرائب المفروضة عليهم. ونتيجة لذلك عانت المرأة الفلسطينية أيضاً من عدم قدرة الكثيرين على تأمين مستوى معيشي جيد للعائلة في القرية والمدينة. وقد تطوّرت الجمعيات الخيرية وتنوّعت أهدافها حتى أصبحت سياسية نضالية، بالإضافة لعملها التطوعي الخيري، وخاصة في القدس، إذ كانت تعد "عاصمة فلسطين تحت الانتداب". فقد كانت المدينة تضم الدوائر الحكومية، بالإضافة إلى أن القدس كانت مكان إقامة الزعماء الفلسطينيين السياسيين من العائلات المقادسية، النشاشيبي، الحسيني، الخالدي التي كانت تتنافس على الزعامة.

بالإضافة لذلك ومنذ بداية الانتداب، لم تتوقف هبّات الرفض الفلسطيني لوعد بلفور، والانتداب البريطاني، والتحالف الإنجلوصهيوني. وتعبيرا عن ذلك، عمّت موجات من النضال الوطني في أنحاء البلاد. ولم تتوانَ المرأة الفلسطينية عن المشاركة في العمل السياسي، إلى جانب الرجل منذ عام ١٩٢٠ حيث شاركت بالمظاهرات للتعبير عن رفضها للأطماع الاستعمارية. قامت بنات القدس عام ١٩٢١، بالمشاركة في التصدي لونستون تشرتشل رئيس وزراء بريطانيا، الذي استفز الجماهير وهو يمجد قتلى الصليبيين واليهود أثناء زيارته للقدس. وكان دور المرأة الوطني واضحا وهي تقوم بنقل الجرحى إلى المستشفيات وتضميد جروحهم، بعد أن أصيبوا برصاص الجنود البريطانيين الذين اعتدوا على المتظاهرين رغم أنها كانت تلبس الحجاب، وتعيش في مجتمع تقليدي.

واستمر عمل المرأة الفلسطينية الوطني لتنطلق مع هبة البراق ١٩٢٩ وتحدياتها. فقد دافع فيها العرب ببسالة عن حائط البراق الذي يسميه اليهود "حائط المبكى" إثر قيام اليهود بمظاهرة في القدس. استفزّ اليهود فيها العرب بعد أن أنشدوا نشيدهم الصهيوني، ونصّبوا رموزا للدلالة

أن الحائط لهم بعد صلاة يوم الجمعة، وصادف ذلك ذكرى المولد النبوي الشريف. فقد وضعوا ستارة قماشية لفصل الرجال عن النساء ومقاعد تسد طريق المارة من اليهود والعرب. وبدافع الحفاظ على حائط البراق، أزال العرب ما نصبه اليهود، لتقوم الاشتباكات التي استمرت لمدة عشرة أيام دموية. وقد عبّرت "الحادثة" عن مشاعر استياء جموع المتوافدين من المدن والقرى الفلسطينية، وعن المشاعر الوطنية الغاضبة للدفاع عن البراق. وبهذه المناسبة أظهر البوليس البريطاني وحشيته ضد العرب بعد التدخل بطائراته لتفريق العرب وإرهابهم وليتحيزوا لليهود. وكالعادة منذ أصبحت الصحافة في فلسطين منبراً "للرأي العام" فضحت ما جرى في (هبة البراق) والاشتباكات وعلّقت عليها بروح وطنية، ونشرت على صفحاتها عدد القتلى من الطرفين. واشتركت المدن والقرى العربية التي هبّت دفاعاً عن البراق وسقط منهم جرحى وقتلى، وقد بلغ عدد القتلى بين اليهود، وجرح ٣٣٩. وبلغ مجموع الضحايا العرب ١١٦ شهيداً و٢٣٢ جريحاً. ونشطت الصحافة الفلسطينية بتغطية الأخبار عن الحادثة بشكل مكثّف. واستمرت بالكتابة عن هذه المضاعفات حتى عام ١٩٣٢، ولم تستعمل مصطلح "حائط المبكى"، بل الاسم الحقيقي "حائط البراق"، الذي يعتبره العرب والمسلمون جزءاً من المسجد الأقصى للمسلمين.

شهيدات

أنعشت هذه الحادثة الناس وقد ملأت المشاعر بالغضب، وتحرك السياسيون والشعب بجميع فئاته. وكان للمرأة القروية نصيب كبير بين الضحايا، فبعد اصطدام العرب مع اليهود على طريق الشيخ جراح، باتجاه قرية (لفتا) اصطدم العرب مع اليهود هناك. وعندما انتهت الذخيرة، أخذت نساء القرية بجمع الحجارة وتزويد الرجال بها، وكنّ يحمّسن الرجال بالزغاريد والأهازيج الشعبية. وبذلك سبقت المرأة القروية المرأة المدينية دورها النضالي في الشارع. ونشرت الصحافة ما جاء في تقرير "اللجنة التنفيذية العربية" حول الاضطرابات، مما يؤكد على وقوع الضحايا بين النساء. فكانت أول امرأة قتلت في هذه الاضطرابات زوجة علي العطاري، وأول طفل هو طفلها، وكانت هذه العائلة تسكن في حي يسكنه يهود في الطريق الشمالي، حيث قتلوا ودفنوا تحت كوم من الحجارة. وشملت ضحايا النساء القرويات، القرى المجاورة الأخرى، حيث أطلق اليهود النار على سيدة اسمها مشايخ من بيت صفافا. وحزنت قرية صور باهر على جميلة محمد أحمد الأزعر وأربع نساء وطفل، وجرح خمس. كما بكت قرية قالونيا على عزية بنت محمد علي سلامة. وانتقاماً لحادثة البراق قتل اليهود أيضاً مريم على أبو محمود وحليمة يوسف الغندور من يافا، وفاطمة محمد من بيت دراس السورية وغيرهن.[٥٦]

---

٥٦ عايدة النجار – صحافة فلسطين. والحركة الوطنية في نصف قرن، مصدر سابق. ويعتمد هذا الفصل على الصحف الصادرة في تلك الفترة وخاصة، الزوايا الخاصة بالنساء.



الحاج أمين الحسيني وزوجته وسط وابنته آمينه



نساء يلبسن الحجاب والبرنيطة يقمن بأول بمظاهرة بالقدس ١٩٢٩

القدس تحتضن أول مؤتمر لنساء فلسطين ١٩٢٩

وعلى إثر هبة البراق شعرت النساء في المدينة بأن دورهن أكبر من العمل الخيري وعمل الإحسان في الجمعيات أو العمل التقليدي المنزلي فقط، وإن كنَّ ملتزمات به. بالإضافة لذلك فقد قمن بجهد كبير، لمساعدة العائلات التي هدّمت بيوتها وزُجَّ رجالها في السجون. وبدافع المسؤولية الاجتماعية والسياسية، تشجّعت بعض قريبات السياسيين والمثقفين وزعماء الحركة الوطنية "من الطبقة البرجوازية" للانطلاق للعمل السياسي. وسجل أول مؤتمر عقد في القدس عام ١٩٢٩ بداية للعمل النسائي السياسي المنظم. وكان الجو السياسي العام لا يزال مفعما بالروح الوطنية، التي عزّزت عمل المرأة بتشجيع الرجال. وسُعدت أكثر من ٣٠٠ سيدة من نساء فلسطين من جميع المدن والبلدات بالعمل الجماعي الوطني، خاصة وأن المرأة كانت لا تزال محكومة بالعادات والتقاليد الاجتماعية العتيقة التي مارستها الكثيرات كون العائلة كانت لا تزال "بطريركية" أبويه يتحكم بها الرجل. وبالرغم من ذلك فبالفساتين العصرية الحديثة وبالروائح العطرية والمكياج والبعض بالقبعات الفرنسية، أو بالملاية والحجاب حضرن في القدس أول مؤتمر فلسطيني في بيت السيدة طرب عبد الهادي، زوجة عوني عبد الهادي*، لتثبت المرأة بذلك أنها وصلت لدرجة عالية من الثقافة والنضوج السياسي. وفي اجتماع جادّ وصفته الصحافة كما تصف اجتماع الزعماء السياسيين من الرجال، وثقت جريدة صوت **الشعب** وقائع المؤتمر ونشرت الأخبار تحت عناوين منفصلة وواضحة: "افتتاح المؤتمر، مقابلة المندوب السامي، المظاهرة، مقابلة بطريك اللاتين، مقابلة سماحة المفتي، إلى قناصل الدول". وتحت هذه العناوين زودت الجريدة الرجال والنساء بمعلومات قيّمة عما دار في الاجتماع الناجح الأول في الطريق السياسي النضالي المنظم للمرأة، والذي احتضنته مدينة القدس. فكتبت جريدة صوت الشعب عن "افتتاح المؤتمر" النص التالي: "افتتح المؤتمر بانتخاب صاحبات العصمة، عقيلة عطوفة كاظم باشا الحسيني، السيدة محفوظة النابلسي للرئاسة، السيدة عقيلة الأستاذ مغنم أفندي مغنم والسيدة عقيلة السيد الوجيه شكري ديب للسكرتارية. وقد افتتحت السيدة المحترمة عقيلة شكري ديب الجلسة بكلمة كلها حماسة ووطنية، وتكلمت من هذه السيدات المصونات: عنبرة سلام عقيلة الأستاذ أحمد سامح بك الخالدي، عقيلة عبد اللطيف بك صلاح، ساذج نصار البهاء، عقيلة الأستاذ بولص شحادة، عقيلة الأستاذ صبحي الخضرا وغيرهن كثيرات، وقد ألهبت الخطيبات حماسة المؤتمرات إلى درجة لم تقل عن مؤتمرات

---

* عوني عبد الهادي (١٨٨٢–١٩٧٠) ولد في نابلس واستقر في القدس منذ مطلع العشرينيات من رواد العمل العربي، من مؤسسي جمعية العربية الفتاة السرية في باريس، حيث درس الحقوق. ومن رجال الحركة الوطنية في فلسطين تحت الانتداب ساهم في تأسيس «حزب الاستقلال» نشط في الحركة الوطنية، تولى منصب اللجنة العليا (١٩٣٦) وبسبب رفض سياسة الانتداب وضلوعه في الثورة الفلسطينية أبعد إلى القاهرة، وتوفي ودفن فيها بعد نشاطات له في دمشق وعمان والقاهرة منذ ١٩٤٣.

الرجال حماسة ووطنية". وفي الاجتماع، اتخذت النساء قرارات هامة، كالقرارات التي كانت على أجندة الحركة الوطنية "من الرجال" ومنها: وعد بلفور، والهجرة اليهودية، وتأييد إقامة حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي وأهمية قيام المرأة الفلسطينية بنهضة نسائية أسوة بالمرأة في الأقطار العربية المجاورة.

بالإضافة إلى ذلك، فكون أكثر النساء يمثّلن طبقة مثقفة "من النخبة" في البلاد، فقد كن منفتحات على الرأي العام العالمي، وخاصة في بريطانيا. فقد أبرقن بالشكوى إلى الملكة ماري ملكة بريطانيا، وأرسلن برقية أخرى إلى "عصبة السيدات الوطنية السياسية في لندن" للشكر على عطفها وتأييدها ومساعدتها لعرب فلسطين وقضيتهم".

لم تنس النساء من ناصر القضية الفلسطينية من نساء العالم، وقدّرن الآنسة نيوتن* صديقة العرب على جهودها الدائمة وتعريف العالم بقضيتهن، وجاء التقدير بشكرها في برقية خاصة أرسلت باسم المؤتمر. كان هذا التقدير لتعاطفها ووقوفها إلى جانب العرب، وتدل كتاباتها على ذلك: فكتبت في نشرتها التي كانت تصدرها تقول: "ماذا فعلت ديكتاتوريتنا في فلسطين، ... إن العرب لن يستكينوا ولن يسلموا، فهم يرون أن كيانهم في خطر، وكلما استعملنا الشدة معهم اشتدوا، وهذا مظهر إفلاس سلطتنا الديكتاتورية في البلاد المقدسة".

مقابلة المندوب السامي

وظهرت في الصحافة أسماء الوفد الذي قابل المندوب السامي وزوجته، لحمل القرارات والمطالب وهن عقيلة عوني عبد الهادي، عقيلة جمال الحسيني، عقيلة شكري ديب، عقيلة موسى العلمي، عقيلة السيد مغنم مغنم، الآنسة عفة عبد الهادي، الآنسة شاهنده الدزدار، الآنسة ميليا السكاكيني، الآنسة ضيا النشاشيبي، وعقيلة السيد بوتاجي، وعقيلة السيد عويضة عن (حيفا) عقيلة السيد عمر البيطار والآنسة روك عن (يافا) عقيلةصبحي الخضراء عن صفد، عقيلة السيد الدباعي عن رام الله، والآنسة كساب عن اللد والآنسة سميحة التاجي عن الرملة، ويلاحظ أن نساء النخبة السياسية عرفن بأسماء الأزواج.

لم تخيّب نساء فلسطين المجتمعات في القدس أمل النساء في جميع أنحاء البلاد اللواتي كن مشدودات للقدس بتاريخ ٢٦/اكتوبر/١٩٢٩، ولم يخيبن ظن الرجال ممن كانوا من أنصار المرأة ونهضتها اجتماعياً وسياسياً. وقد أثبتت النساء اللواتي قابلن المندوب السامي في بيته أنهن دخلن مرحلة جديدة من نهضتهن وتحملن المسؤولية الوطنية كالرجل. ولم يكن أسعد

* الآنسة نيوتن: إحدى المتعاطفات مع العرب، وكانت تسكن حيفا، وتصدر من فترة لأخرى نشرات تنتصر للحق العربي، وكانت على اتصال مع المكتب العربي في دمشق.

من النساء غير الرجال الوطنيين، عندما قرأت السيدة طرب عبد الهادي المذكرة التي أعدت في المؤتمر باللغة العربية. وقامت السيدة متيل مغنم بترجمتها للإنجليزية للمسؤول البريطاني. ولعل هذه البادرة تدل على الروح الوطنية التي أصرّ العرب على جعلها رمزاً للهوية، خاصة وأن سلطات الانتداب قد أقرت منذ بداية الانتداب استعمال اللغة العبرية إلى جانب اللغة العربية والانجليزية، في تحدّ واعتراف واضح باللغة العبرية التي كانوا يحاولون زجّها في كل مقام، وذلك لتأكيد الهوية اليهودية. وإن كانت هذه اللغة لا تعتبر لغة حيّة. ولا بد أن المندوب السامي وزوجته التي كانت حاضرة قد تفاجاؤا وأعجبوا من مقدرة ووعي بنات القدس وفلسطين السياسية، وإن كانت ضد سياسة بلده المنحازة للصهيونية. وظلت ذاكرة النساء والمكان تتردد وتعيد صورة النساء الواعيات عندما امتنعن عن شرب القهوة التي قدّمها المندوب السامي مقلداً العادات العربية محاولاً الترحيب بهن. وتعلم الغريب البريطاني أنه وفقاً للعادة العربية القديمة لا تقبل الضيافة في ظروف غير عادية كالظروف التي أدّت بهن لمقابلته. وفهم أيضاً أن ما تقوم به بريطانيا من انحيازها للصهيونية يعد عملاً غير مناسب لهن كما للرجال. وواصلت النساء بعد هذا اللقاء العام بدعم من الرجال، واعتراف الحكومة بها. واستمر نشاط النساء في مجالات أخرى لتسعد الفلسطينيين، تغيظ سلطات الانتداب، ومنها مقاطعة المتاجر اليهودية والمشاركة في المظاهرات ورفع الاحتجاجات للمسؤولين.

رجال يَرشقون النساء بالورود

وظلّت ذاكرة المدينة وحجارتها الصامدة تروي جرأة نساء فلسطين اللواتي حضرن المؤتمر "الأول"، وقمن بعمل تاريخي سياسي بعد مقابلة المندوب السامي. فقد عاد وفد النساء إلى بيت عوني عبد الهادي ولخّصن للسيدات المنتظرات ما دار في الاجتماع. ومن ثم تحركت جميع النساء في ثمانين سيارة، كانت معدّة للقيام بمظاهرة ضخمة. ولا شك أنها كانت بدعم من الرجال المتحمسين لدور المرأة الجديد، من أزواج وأخوة وسياسيين ومن موظفي الحكومة العرب من الطبقة المتوسطة الذين دعموا المرأة ووقفوا وراءها وساروا معها لحمايتها[٥٧]. ما زالت صورة بنت القدس الشلبية وفلسطين، وهي تجوب شوارع القدس بالسيارات، موضع اعتزاز لمن يقرأ تاريخ المرأة الفلسطينية. وشهدت شوارع القدس الجديدة "خارج السور المرصوفة حديثا"، في الطالبية وبالبقعة وبباب الخليل وبالبوسطة، فاللجنة التنفيذية في باب العامود، فالمدرسة الإسلامية ثم المجلس الإسلامي الأعلى.

وزادت صورة البنت الفلسطينية الشلبية جمالاً، والنساء يلوّحن من شبابيك السيارات،

٥٧ وصف المظاهرة النسائية، جاء في الصحافة الفلسطينية الصادرة في تلك الفترة، الكرمل، الشعب، فلسطين، الدفاع.، انظر الشعب تاريخ ١٩٢٩/١٠/٣٠.

بعضهن بالحجاب وأخريات سافرات تلبس بعضهن القبعات وقد اصطف الرجال على الأرصفة التي اكتظت بهم، وهم يهللون ويصفقون ويهتفون هتافات وطنية. وزادت صورة البنت الشلبية توهجاً والشارع والحشود توزع أزهار القرنفل وترشق رتل سيارات النساء المشاركات بالمظاهرة بالورود. كما كانت ابتسامات الشارع تختلط بدموع الفرح للكثيرين، تعبيراً عن الحسّ الوطني الممزوج بنهضة جديدة لبنات فلسطين التي فاخرت الصحافة بها، وتنافست على تغطية أخبارهن.

تكريم المتظاهرات

تجلت سعادة وتقدير "المجلس الإسلامي الأعلى" عندما قام بتكريم النساء بإقامة حفل غداء فاخر للمشاركات بالمظاهرة، بالإضافة لمقابلة سماحة الحاج أمين الحسيني المفتي رئيس المجلس. في مبنى المجلس في ماميلا المقابل للمقبرة. في الساعة السابعة والنصف من مساء يوم السبت الذي أصبح يوماً مشهوراً، وقمن بتقديم احتجاج مفصل، وكتبت "الشعب" عن هذا الاجتماع، شكرنه على مواقفه المشرفة وعلى الوطنية المجسّمة التي ما زال سماحته مثلا أعلى لها، وطلبن مساعدة سماحته وعطفه، فشكر لهن نهضتهن المباركة الجريئة ووعد أن يعمل كل ما في وسعه لمساعدة نهضتهن الشريفة التي إنما هي تضحية لا يستهان بها في سبيل الوطن واستقلاله، وقد خرجن مسرورات وممتلئات غبطة وحبوراً وآمالاً".

وكانت سعادة النساء كبيرة كون الأزواج والسياسيين اعترفوا بالمرأة كشريكة في العمل الوطني وبقدرتها السياسية التي قامت بها بذلك اليوم عن جدارة تاركة "المطبخ" والعمل التقليدي "للغير"، على الأقل في ذلك اليوم التاريخي.

وفي هذه المناسبة الوطنية التي قامت بها البنت الشلبية،تجلّى العمل الوطني المتكامل بين المسلمين والمسيحيين، وخاصة الأرثوذكس العرب. فقد عمل الجميع لهدف واحد وهو رفض وعد بلفور والحركة الصهيونية. وأثبتت النساء أن لهن دوراً في ذلك عندما قام وفد النساء ممثلات المؤتمر في الساعة الثالثة من ظهر يوم ذلك اليوم بمقابلة بطريرك اللاتين، المنسنيور برلاسينا وقدّمن له عريضة احتجاج على اقتصار مساعدات "كنيسة اللاتين" من الأدوية على المسيحيين وطالبن أن تكون المساعدات للمسلمين والمسيحيين على حد سواء وقد أكدّن بمواصلة دورهن في النشاط الاجتماعي إلى جانب نشاطهن السياسي الجديد. فالالتزام كان واضحاً وصادقاً على تلاحم المشاعر والأهداف بين المسلمين والمسيحيين الفلسطينيين، والتوحّد في العمل من أجل وطن خالٍ من الهيمنة الأجنبية، وكأن ذلك اليوم قد خُصّص للنساء لإتمام عمل متقن. وقامت النساء بعد ذلك بتسليم مذكرة تتضمن مقررات المؤتمر إلى قناصل الدول الغربية التي كانت مأخوذة بهذا الدور السياسي الجديد للمرأة الفلسطينية. وتحمّس

لهن قنصل تركيا الذي حيّا المتظاهرات المارات من أمام القنصلية وتمنّى لحركتهن النجاح. وسجّل بذلك موقفاً تاريخياً من بين القناصل وهو يعبّر عن مشاعر صادقة يوم سجّلت القدس ونساء فلسطين دوراً وطنياً كبيراً [٥٨]. وعلّقت جريدة الشعب بتاريخ ٣٠/اكتوبر/١٩٢٩على هذا النشاط النسائي والنهضة الجديدة بالقول: "إن هذه النهضة المباركة هي قوة حديثة لنهضة العرب، وأنها عامل رئيسي من العوامل التي تقرّب يوم الخلاص من العبودية والأسر، فحيا الله سيداتنا الناهضات وبارك الله في شعورهن القومي وجرأتهن الوطنية المتلائمة".

لجنة تنفيذية للسيدات العربيات

وخوفاً من ضياع هذا الإنجاز التاريخي حرصت النساء على مأسسة عملهن وأسسن "اللجنة التنفيذية للسيدات العربيات" مباشرة قبل انتهاء الاجتماع، وقبل عودة النساء كل منهن إلى مدينتها أو بلدتها إلى نابلس، ويافا، وحيفا، وعكا، يحملن قصة انطلاق المرأة في عمل سياسي تاريخي روينها للأزواج والأولاد. وتشكلت اللجنة من قرينات النخبة السياسية اللواتي كن يُعرّفن بأسماء الأزواج وليس بأسمائهن. وانتخبت قرينة حسين الخالدي (وحيدة) رئيسة والآنسة شاهندة الدزدار أمينة للصندوق والعضوات قرينات عوني عبد الهادي(طرب) وقرينة جمال الحسيني (نعمت العلمي) وقرينة موسى العلمي وقرينة شكري ديب (كاترين) وقرينة بولس شحادة (ماري) قرينة صبحي الخضرا (أنيسة) والآنسات زاهية النشاشيبي وفاطمة الحسيني وخديجة الحسيني وزليخة الشهابي عضوات.

أثبتت هذه اللجنة وجودها، حيث استمرت القيام بنشاطات مختلفة في المجالات الإنسانية والاجتماعية والنضالية والسياسية، بالإضافة للقيام بالمظاهرات والاحتجاجات وإرسال برقيات للسلة البريطانية منددة بسياستها. وفتح العمل السياسي للمرأة الفلسطينية طريقاً توغلت به في الثلاثينيات لتنفتح على نهضة المرأة العربية والعالم. وكان اشتراكها في أول مؤتمر نسائي عربي في القاهرة ١٩٣٨ لبحث القضية الفلسطينية برئاسة زعيمة نهضة المرأة المصرية هدى هانم شعراوي (كما سنوضح لاحقاً)، محطة أخرى هامة في العمل النسائي الفلسطيني الذي كان يسير بشكل مّطرد حتى يومنا هذا، لتصبح اليوم شريكة للرجل في النضال المسلح.

حملة للمقاطعة واللاتعاون

شكّل بيان المؤتمر النسائي العربي الأول وقراراته نقلة نوعية فاجأت الرجال بقدرة النساء على العمل الوطني المنظم. ونشرت **الكرمل** على صحيفة النساء التي تحررها ساذج

---

٥٨ جريدة الشعب ٣٠/١٠/١٩٢٩.

نصار في تشرين أول ١٩٢٩ بعد هبة البراق مقالة تحريضية جاء فيها: "أتى المندوب السامي السير تشانسلر، واتهم في منشوره العرب، يعني أزواجكن وأبناءكن وذوي قرباكن بالوحشية والهمجية" في حين أنهم لم يكونوا يقاتلون إلا بالعصي والحجارة دفاعاً عن أنفسهم وحقوقهم وأوطانهم، ومقدساتهم، بينما كان خصومهم يردونهم برصاص بنادقهم ومسدساتهم وقذائفهم النارية"، وكان بهذا يشير لحوادث البراق.

شعرت النساء بالقوة وهن يوجهن الكلام لبعضهن البعض على صفحات الجرائد للحثّ على العمل: "نحن معشر النساء والبنات نحمل في عروقنا نفس الدم الذي تحوّل في عروق الرجال، فيجب أن لا نختلف عن الرجال في العمل، لسلامة الوطن وإنقاذه من الخطر الصهيوني،" وحرضت لجنة النساء بقولها: "أين تلك النخوة التي ثارت في رؤوسكن إبان الحركة الوطنية في سنة ٢٢ و٢٣ أيام كان الوفد بحاجة إلى المال في لندنٍ فقمتن بواجبكن خير قيام.. الوقت وقت عمل والوطن يناديكن لحمايته ... فلبين النداء عاجلاً واجمعن المال واشترين الأراضي وافتحن مشاغل الخياطة واستغنين عن مصنوعات الخصوم". وكان الخطاب موجهاً لنساء فلسطين عن طريق فروع "جمعية السيدات العربيات" ومركزها القدس. وقد تأسست مباشرة بعد المؤتمر، وكانت نساء فلسطينٍ قد قمن بجمع تبرعات في عام ١٩٢٥، لمساعدة الفقراء في أوقات الأزمة الاقتصادية، التي حلت بالبلاد من جراء سرقة أراضي الفلاحين. وكانت تبرعات نساء حيفا للمنكوبين تدل على وعيٍ المرأة ونشاطها في العمل الاجتماعي والتطوعي. ولوحظ أن المجموعة من النساء كن دوماً السباقات في جمع التبرعات كلما لزم الأمر، كما قمن بنفس العمل بعد هبة البراق ١٩٢٩.

وفي مقالة موجهة للنساء بتاريخ ٢٦ تشرين أول ١٩٢٩ عنوانها: "إنهن المسؤولات" كتبت "حفيدة البهاء" ساذج نصار في الكرمل، وقد حمّلت المسؤولية للنساء، وهي تنادي لترشيد الاستهلاك والإخلاصٍ للوطن والعمل مع الرجال جاء فيها: "إذا كنت تريدين يا سيدتي أن تبتاعي لأولادك ثياباً وأقمشة وكنت مندفعة مع تيار الموضة فتريثي وفكري قليلاً، واذكري أيام الفتنة وكم كان وعيك فيها عظيماً وكم كنت تودين التخلص من كل ما عندك من ثياب وأقمشة حريرية وأدوات زينة لتنجي أنت وزوجك وأولادك بأرواحكم من الشدائد والأخطار".وبحماس ساذج نصار وأسلوبها التحريضي التثقيفي وبلغة واضحة فتحت بابًا ولهجة جديدة للمرأة على صفحات **الكرمل** وهي تنصح..."‏:راقبي أعمال زوجك حتى إذا رأيته يسمسر لليهود أو يسعى لبيع أراضي أو يقوم بأي عمل من شأنه أن يضر بمصالح الوطن، قفي في وجهه كاللبوءة الغضوب وقولي له:"خير لي أن أكون من غير زوج من أن أحمل اسم رجل يخون بلاده وأمته... واستعملي كل ما لديك للتأثير عليه حتى لا يعود يحيد عن الخطة الوطنية قيد شعرة". وحضّت ساذج نصار النساء على: "أن لا يكن أقل من المرأة الإنجليزية

والفرنساوية والأمريكية والألمانية واليهودية، وسائر نساء أوروبا غيرةً ووطنيةً وعقلاً، ولذلك نصحت النساء على "توفير المال لشراء الأراضي ولو سهماً في شركة الأراضي".

وعلى إثر هذا التشجيع المكثّف تجاوبت النساء في جميع أنحاء فلسطين لبدء حملة لإغاثة منكوبي الاضطرابات وانبرت النساء بنشاط ملحوظ على جميع الصعد للانخراط في هذه الحملة سواء بجمع الأموال أو الكتابة في الصحف، أو مساعدة الفقراء والمعوزين.

إحسان الحسان

وتحت هذا العنوان قرأت بنات القدس وحيفا ويافا ونابلس والمدن والبلدات في جميع أنحاء البلاد ما كتبت ساذج في الكرمل وقد أصبحت قائدة رأي عام. وكان العنوان يعبّر عن غبطتها، بالعمل النسائي لجمع الأموال، إذ بادرت مجموعة من النساء في حيفا، بجمع ما مجموعه ٢٩ جنيها، وأخذن يطفن على نساء حيفا في البيوت حيث لاقين ترحيباً واستطعن جمع (٧١ جنيها و٥٠٠ فلس) نشرت الجريدة قائمة بأسماء المتبرعات بتاريخ ١٦ تشرين أول، على "صحيفة النساء" في الكرمل: وكانت كتلة حيفا تتكون من حرم إبراهيم وتوفيق الخليل، حرم صبحي أفندي عويضة، حرم محمد علي بك التميمي وشقيقته، حرم الطبيب أبو غزالة، حرم الصيدلي أبو غزالة، حرم أنيس أفندي الخوري، حرم أنيس أفندي جرار، حرم أديب أفندي الزين، حرم صبحي أفندي الخالدي. وجاءت التبرعات كالاتي:-

جنيه

٥ حرم توفيق بك الخليل

٥ حرم إبراهيم الخليل

٣ حرم صبحي عويضة

٣ محمد علي التميمي

٣ حرم أنيس أفندي الخوري

٣ حرم أنيس أفندي جرار

١ حرم الطبيب أبو غزالة

١ حرم رشدي التميمي

١ حرم صبحي أفندي الخالدي

١ شقيقة محمد علي بك التميمي

٣ حرم شفيق أفندي السراقي

٣ حرم عزيز أفندي ميقاتي

٣ والدة الحاج طاهر بك قرمان

٣ حرم سليم أفندي ناجيه

١ والدة أنيس أفندي الخوري

١ حرم إبراهيم بك وردة

٥ حرم عباس أفندي

١ حرم شفيقة السبع قرمان

١ حرم الحاج خليل طه

١ حرم محمد خليل طه

١ حرم عبد اللطيف بك صلاح

١ حرم حسين باكير

١ حرم احمد بك بشناق

١ حرم مصطفى بك بشناق

١ حرم معين بك الماضي

٥ حرم حسون أفندي الديك

٤ حرم سبع أفندي قرمان

٣ حرم حسن بك شكري

٢ حرم صالح أفندي شبيب

٢ والدة أديب أفندي الزين

٢ شقيقة محمد أفندي عباس

١ حرم سليم أفندي الحاج اسعد

١ حرم مالك الصلح

١ الحاجة زهية القابلة

٢ حرم محمود أفندي الزين

١ والدة عبدالله التلباوي

١ حرم سامي أفندي نورالله

١ر٥٠٠ حرم توفيق أفندي الحليق

٥٠٠ فلس حرم اسعد أفندي الماضي

٥٠٠ فلس حرم شقيق الطبيب الخمرة

٥٠٠ فلس حرم أمين أفندي نورالله [٥٩]

تنافست النساء بحماسة للانضمام إلى الجمعيات النسائية التي أصبحت منذ ثورة البراق جمعيات سياسية نضالية، بالإضافة لأهدافها الإنسانية الخيرية. وكان من أعمالها وفق دستورها ونظامها الداخلي الذي ينصّ على أهداف سياسية جادة، بالإضافة للأعمال الخيرية ومساعدة الفقراء وأسر المعتقلين والشهداء، ومدّ الدعم المعنوي والمادي للثوار. كما اهتمت بمواصلة رفع مستوى المرأة اجتماعياً وثقافياً، وبرزت في تلك السنة جمعية نابلس التي نشطت نشاطات نضالية جريئة.

تعاطف مع أهالي الشهداء

وشهدت الثلاثينيات وعياً سياسياً ووطنياً بين النساء، خاصة وقد نصّ دستور لجان "السيدات العربيات" التي انتشرت في البلاد على حق عضواتها المشاركة في العمل السياسي مثل حضور المؤتمرات، وتنظيم المظاهرات وتقديم عرائض الاحتجاج للحكومة ضد سياستها، بالإضافة لمساعدة المنكوبين وأبناء الشهداء من الثوار. وبدا دور المرأة السياسي

٥٩ الكرمل بتاريخ ١٦/١٢/١٩٢٩.



نساء يشاركن بمظاهرة بالقدس ١٩٣٣



عائلة الشهيد عبدالمعطي الفتاح
كاشور الذي قتل في مظاهرة
القدس ١٩٣٣

واضحاً في جميع المدن والقرى الفلسطينية، كان للمرأة دورٌ إنساني واجتماعي، عندما أعدمت السلطات شهداء ثورة **البراق فؤاد حجازي، وعطا الزير، ومحمد جمجوم**، في سجن عكا. فقد هبّت نساء القدس ومندوبات الحركة النسائية وسافرن إلى مدينة عكا يوم الثلاثاء بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٣٠ لمواساة أهل الشهداء، وقد استقبلن بالزغاريد. ولمس الناس وعياً جديداً وطنياً واضحاً لبنات القدس وفلسطين. وشعر الرجال بأهمية دعم النساء في حركتهن التي نالت ثقة الناس من جميع الطبقات. وقررت النساء في هذا العام رفع شعار "اللاتعاون" مع حكومة الانتداب التي تجسّد الاستعمار الإنجلوصهيوني، وأصدرت لجان جمعية السيدات العربيات بيانات تحضّ على مقاطعة البضائع الأجنبية.

عتب على بنات القدس

ومن على منبر الصحافة، طلت أسمى طوبى، ابنة عكا بوطنيتها وقلمها على صفحة المرأة في جريدة فلسطين ١٠ تشرين أول ١٩٣١ تستجيب لنداء جمال الحسيني رئيس لجنة مقاطعة اليهود في القدس برسالة مفتوحة وكتبت: "قررت منذ إعلان المقاطعة مقاطعة الواردات الأجنبية قدر المستطاع، فحرمت نفسي الدقيق الأوروبي وغيره واستهلكت من الأرز والسكر نصف ما كنت أستهلكه، مشكلة الملبوس هذه أعيتني فيها الحيل وليس في حيفا الكبيرة التي ستنافس مرسيليا من يبيع الأقمشة الوطنية، لا قماش من المجدل، ولكن هناك حرير ليون فرنسي".

ولم تمض رسالتها دون أن يقرأها الرجال والمسؤولون، وكان أحسن تقدير للمرأة ودورها السياسي عندما ردّ السيد جمال الحسيني رئيس لجنة المقاطعة على صفحة الجريدة: إلى السيدة الفاضلة أسمى طوبي، "درست موضوع مقاطعة عام ١٩٢٩-١٩٣٠ بعد إخفاقها عملياً، ووجدت أن بعض تجارنا أرادوا أن يستغلوا بها الأمة بصورة فورية. إن نجاحنا في مشروعنا هذا يتوقف عليكن فيها نتقاسم عناء التضحية لننقذ أبناءنا من الذل وبلادنا من الكوارث وأنفسنا من الإفلاس". وكان شكر وتقدير الرجال هذا قد شجّع أسمى طوبى لتشحذ قلمها وتوجهه لحثّ نساء القدس على عمل أكثر جدية، وألقت باللوم على "نساء القدس عاصمة فلسطين". وكتبت بتاريخ ٢٨ تشرين أول ١٩٣١ تقول: "يا شقيقتي في الجهاد أيتها الفلسطينية الناهضة، أين أنت لقد أسمعت العالم صوتك منذ برهة فهل انتهى زمن الجهاد. تجاهدين هذه الفترة القصيرة فتخور قواك وأنت تعلمين أن المثابرة المتواصلة الجدية هي وحدها عنوان النجاح وألزم لزومياته. لقد أسّست في كل مدينة جمعية تعملين فيها لأجل فلسطين فأين مؤسساتك؟ وأنتن يا نساء عاصمة فلسطين، إنكن المسؤولات عن عدم تنظيم الحركة، وتوحيد الصفوف، إنكن الرأس والرأس مكان الدماغ.... إلى العمل الذي يخلدكن يا أخواتي إلى العمل....."

وفي تلك السنة وصلت أصوات نساء فلسطين إلى نساء القدس وهنّ يتنافسن على



الشيخ عز الدين القسام



حمدي الحسيني (يمين) ويحيى حمودة وسط ١٩٣٩ (معتقل عتليت)



جمع من رجالات فلسطين في وادي حنين يستقبلون يعقوب غصين بعد خروجه من السجن ١٩٣٣

المشاركات السياسية الوطنية، وكان خطاب عقيلة ممدوح أفندي النابلسي في اجتماع السيدات في نابلس مثلاً إذ كانت تحرّض النساء وهي فخورة بدور المرأة السياسي: "قالوا عنّا أننا عالة على أهالينا وأزواجنا.. قالوا عنّا أننا لا نصلح إلا للطبخ والنفخ ولا نقاسم رجالنا في الدفاع عن الوطن المحبوب". وهرع وفد من نساء القدس إلى مرفأ يافا وشاركن مع الوفود من جميع المدن الفلسطينية للاحتجاج على تهريب السلاح فوصفهن تقرير (لجنة شو) الذي عيّن للتحقيق، إثر هبة البراق "بأن النساء كنّ أشدّ جرأة وإقداما من رجالهن في وجه المندوب السامي". وسجّلت نساء القدس عام ١٩٣٣ أبرز مظاهرة لهن في الثلاثينيات، حيث اجتمعت أكثر من خمسين امرأة يتقدمهن الرجال، ليرفضن السياسة البريطانية المستمرة بدعم الصهيونية لامتلاك الأرض. ووقعت اشتباكات بين المتظاهرين ورجال البوليس أسفر عن إصابات متعددة بين النساء والرجال بالقرب من الحرم الشريف في القدس القديمة، حيث بدأت المظاهرة، وسقطت الشهيدات، صبحة حافظ نسيبة، ونيبار مليجيان، ورابعة محمد غصيب.

مشاركة في الثورة الفلسطينية العظيمة ١٩٣٦-١٩٣٩

ما أن أعلنت فلسطين ثورتها العظيمة إلا وأصبحت النساء ملتزمات بالعمل السياسي من خلال تنظيماتهن النسائية وليست الحزبية كالرجال. وإن كن يعملن في نطاق "اللجنة العربية العليا" وتنفيذ قراراتها الثورية والسياسية. وقد التزمن بتطبيق أطول إضراب في التاريخ الذي بلغت عدد أيامه ١٧٦ يوما، وقد عمّ البلاد ضد الاستعمار الإنجلوصهيوني بين ٢٢ ابريل - ١٢ أكتوبر ١٩٣٦ حيث طالبت الأحزاب السياسية المختلفة، : "إيقاف الهجرة اليهودية، وتحريم نقل الأراضي، وتشكيل حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس منتخب". ولم تكن نساء نابلس أقل وطنية من رجالها، وقد قام تجار "حي الياسمينة" بجمع مفاتيح دكاكينهم وربطها بحبل قدمّوها للجنة الإضراب "حتى يُفكّ الإضراب". ووقفت نساء نابلس بثبات في التجاوب مع الإضراب وعبّرت عن ذلك لجنة نساء في بيان نشرته الصحافة موجهاً للشعب أرسلته إلى لجنة الإضراب. جاء فيه: "فاليوم يومك، والعالم يتطلع لامتحان صبرك وقوة عزيمتك أيها الشعب الحريص على كيانك لقد وضعنا آمالنا كلها بين يديك وكلنا مستقبل أطفالنا إليك..." كانت اللجنة مكونة من لميا عاشور، وصفية كمال، لميس عرفات، شهيرة كمال، أميمة الخياط، ربيحة عرفات، وسرن في مظاهرة كبيرة شاركت فيها بنات القرى المجاورة، وحملن الأعلام العربية وأنشدن أناشيد وطنية رافقتهن مواكب الكشافة التي كان يقودها ممدوح السخن وخطب أكرم زعيتر مرحباً بالفتاة الباسلة. كما ألقت الفتاة رشدة حسني المصري خطبة دعت فيها "لا ضرائب دون تمثيل" تجاوبت معها بنات القدس وبنات يافا وبيت لحم ونابلس ومدن وبلدات أخرى. وبتاريخ ٣٠/ابريل/١٩٣٦، أصدرت لجنة السيدات العربيات في القدس بياناً حثّت فيه الجماهير على المشاركة بالإضراب والصمود، ونشرت الصحافة بياناً للنساء بمناسبة

مرور مائة يوم على الإضراب. وقد استجابت فروع لجنة النساء العربيات في حيفا. وعقدت النساء اجتماعاً بتاريخ ١١/مايو/١٩٣٦، أقسم فيه الحضور على مقاطعة البضائع اليهودية والالتزام بمقررات الأمة [٦٠].

ورغم النشاط السياسي المميّز للنساء في فلسطين وبشكل خاص لنساء زوجات الزعماء السياسيين في القدس، فقد وقفن "متفرجات" ورجالهن يؤسسون الأحزاب الفلسطينية السياسية المنظمة. إلا أن النساء تحزّبن للأزواج والأقرباء من خلال "الاتحاد النسائي في القدس" برئاسة زليخة الشهابي، وقد التزمت مع سياسة "المجلسيين"،(المفتي) وانحازت "جمعية السيدات العربيات" برئاسة زهية النشاشيبي "للمعارضين"(النشاشيبي).وكانت الأحزاب الفلسطينية قد نشأت بين ١٩٣٢ - ١٩٣٥: حزب الاستقلال العربي، برئاسة عوني عبد الهادي، ومؤتمر الشباب العربي الفلسطيني راسم الخالدي وحزب الدفاع الوطني، راغب النشاشيبي، والحزب العربي الفلسطيني جمال الحسيني وحزب الإصلاح العربي الفلسطيني د. حسين فخري الخالدي، وحزب الكتلة الوطنية عبد اللطيف صلاح، وعبد الفتاح طوقان، ولم تبرز أية سيدة في القدس أو أية مدينة أخرى كعضو ناشط في الأحزاب السياسية التي لعبت دوراً ملتزماً في سنوات الثورة الفلسطينية العظيمة. إلا أن النساء واصلن عملهن "الثوري" من خلال الجمعيات النسائية التي أصبحت مسيّسة.

وظهرت حركة كشفية في منطقة القدس أعضاؤها من القرويين الشباب، وكانت أهدافها سياسية ظهرت عندما أطلق شباب من قرية لفتا قضاء القدس النار على يهودي وقتله، مما صبّ غضب السلطة على "القرية المناضلة"، كما وصفها أكرم زعيتر، ولعبت نساء القرية دوراً في دعم المجاهدين وتبرعن بالحُلي وكنَّ عامل تشجيع مهم .ودعمت النساء في جميع المدن حملة التبرعات التي نُودي بها وتبرعن بالحلي والأساور الذهبية التي كانت مصاغ عرسهن لشراء الأسلحة لدعم الثوار الذين يحاربون الجنود البريطانيين. واستشهدت فاطمة خليل غزال في معركة وادي غزين وأظهرت النساء في الريف دوراً مميزاً في النضال السياسي، في معركة بلعا حيث قمن بإمداد الثوار بالماء والطعام وباستضافتهم في البيوت وغسل الملابس وقمن بدور تحريضي بالزغاريد والأهازيج الشعبية الحماسية.

وفي اجتماع كبير في يافا عقدته النساء في ١١ أيار ١٩٣٦ في المدرسة الوطنية الأرثوذكسية لتأييد الحركة الوطنية وشرح الموقف الثوري في البلاد، هلّلت له الصحافة، خاصة وقد حاولت الحكومة منعه. وألقت اسمت الهباب رئيسة فرع الاتحاد في يافا خطاباً حماسياً جاء فيه: "لقد لاحظنا أن الأمة قرّرت التمرّد على الاستعمار الغاشم وتحطيمه نطلب التمتع بقسطنا من

٦٠ عايدة النجار، صحافة فلسطين، مصدر سابق وتعتمد على ما جاء من توثيق الصحافة.

الحياة الحرة". ولم يغفل الرجال دور المرأة النضالي في هذه المرحلة، وفي "اليوم المائة" للإضراب، كتبت جريدة **فلسطين** تقول باللغة الانجليزية لتصل الرسالة لبريطانيا: "كل طبقة من هذه الأمة العظيمة، غني أو فقير، كبير أو صغير، ملاك أو تاجر، أفندي أو فلاح، رجل أو امرأة، انخرط في النضال من أجل حياة شريفة...." كما رفعت المرأة الفلسطينية صوتها على صفحات الجرائد، تشكو من ظلم بريطانيا، وكتبت سيدة تحت توقيع "أم عربية" رسالة موجهة إلى المندوب السامي بتاريخ ٢٨/سبتمبر/١٩٣٦ في جريدة فلسطين باللغة الانجليزية، وكأنها تكتبها اليوم عنوانها:

Facts As They Are: An Appeal For Human Justice. By An Arab Mother وجاء في هذه الصرخة: " لا يوجد أي إنسان يستطيع أن يرى بيته يؤخذ عنوة منة وبغير حق... إنه بلا شك عار وخزي إحضار المستعمرين إلى فلسطين لمحاربة ناس يريدون العيش في بيوتهم بسلام". وكانت الرسالة تعبّر عن مشاعر الناس جميعاً، لكشف العدو الذي يعرضهم للخطر، ليحمي سلطة فاشلة تهدف إلى نزع الأرض من أهاليها المخلصين.

لقاء هدى هانم شعراوي (١٩٣٨)

بدت بنات القدس وفلسطين مسلحات بقوة جديدة وثقة بالنفس منذ انطلاقهن السياسي بعد هبة البراق، وقد أثبتن للرجال أنهن مكسبٌ وقيّمة كبيرة في العمل السياسي الواعي، بين جميع طبقات الشعب، وبعد أن تركت انطباعات إيجابية في مساندة الثورة الفلسطينية. فقد فتح مؤتمر المرأة الذي عقدنه بعد "الهبة" الباب للسفر للخارج لحضور "أول مؤتمر نسائي في التاريخ من أجل فلسطين"، في القاهرة بدعوة من هدى شعراوي زعيمة الحركة النسائية في مصر. وبتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٣٨، أصبحت بنات القدس وفلسطين محط الأنظار لانخراطهن بشكل فاعلٍ في العمل النضالي، بالإضافة لحضور المؤتمر. وكانت المشاركة والسفر لخارج الوطن عملاً ذا نوعية تقوم به بنت فلسطين الشلبية.

كان مؤتمر القاهرة قد لفت نظر الصحافة العالمية، وتابعت جريدة "التايمز" اللندنية جلسات المؤتمر مقتبسة عن الصحف المصرية، وعلّقت على مؤتمر النساء الناجح بالقول: "من أهم المزايا التي امتاز بها المؤتمر النسائي مبلغ ما وصلت إليه المرأة الشرقية من التحرر الاجتماعي، والذكاء السياسي. وبلا شك فإن مشاركة النساء الفلسطينيات بوفد يمثل بنات القدس والمدن والبلدات والقرى نقلة نوعية كبيرة، خاصة وأنهن قد سافرن إلى القاهرة مسلمات ومسيحيات دون مرافق من الرجال من الأزواج أو الأقارب، كما كانت العادات والتقاليد. وكان بين الوفد ثلاث نساء من نابلس التي كانت تعد الأكثر تمسّكا بالتقاليد الإسلامية. بالإضافة إلى ذلك لم يكن بين عضوات الوفد من هي محجبة أو مقنّعة. وقد ساهم مستشار الوفد المرافق أكرم



الوفد الفلسطيني مع هدى شعراوي ١٩٣٨



هدى هانم شعراوي تتوسط أعضاء المؤتمر النسائي سنة ١٩٤٤ وعلى يمينها السيدة طرب عوني عبدالهادي بينهن رفقة النشاشيبي، شهنده الدزدار وناهدة جارالله

زعيتر أحد زعماء الحركة الوطنية من نابلس بالعمل معهن بجدارة، تعلمن منه العمل السياسي المنظم".وبرزت بنات القدس اللواتي شاركن في المؤتمر بشكل واضح، وتم انتخاب هدى شعراوي رئيسة و ثماني وكيلات، اثنتين منهن من فلسطين: وحيدة الخالدي، وزليخة الشهابي. كما عينت خمس سكرتيرات مساعدات منهن ثلاث من فلسطين: بدرة كنعان، ومتيل مغنم، وميمنة ابنة الشهيد عز الدين القسام وريا جمال القاسم، كما كانت طرب عبد الهادي في لجنة الصياغة، بينما ألقت متيلدا مغنم كلمة الوفد. بالإضافة إلى ذلك ألقت عدد من المشاركات الفلسطينيات في الوفد كلمات نالت إعجاب الحضور منها كلمة نبيهة ناصر مديرة مدرسة بير زيت نشرتها الصحافة جاء فيها: "لا حياة لأهل فلسطين إلا كجزء من الأمة العربية المتحدة". كما خطبت ريا القاسم وميمنة عز الدين القسام من الوفد الفلسطيني. ونشط في المؤتمر محمد علي الطاهر صاحب جريدة **الشورى** الصادرة في القاهرة التي لعبت ومحررها دوراً وطنياً كبيراً في سنين الثورة، وكانت تنشر مقالات للصحافيين والسياسيين المعتقلين في سجون السلطات البريطانية في سنين ثورات الثلاثينيات [٦١].

ولعبت النساء دوراً في إيصال الجرائد للمعتقلين أو أخذ المقالات لإرسالها للصحيفة، وكانت عيوش حمودة وشقيقتها فطوم حمودة من لفتا تخبئان المطبوعات في "طناجر" الطعام أو داخل ملابسهن وهنّ يقمن بزيارة شقيقهن يحيى حمودة الذي سجن في أكثر من معتقل مع "الأحرار" كما كانت الصحافة تسميهم. وكانت الصحف بالنسبة لحمودة "أهم من الطعام"[٦٢].بالإضافة إلى ذلك كانت طرب عوني عبد الهادي تكتب لزوجها عوني عبد الهادي وهو في معتقل "عوجا الخفير" إذ يتواصل معها ويعرف الكثير من أخبار وعما يجري خارج السجن. وكانت رسائله لها تطمئنها عن صحته وحياته داخل السجن مع رفاقه المعتقلين. وجاء في رسالته بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٣٦. أنه يكتب في جريدة **الدفاع** مقالات تحت اسم "أبو مازن". كما أعلمها أنه يلعب الرياضة مع ٢٠ شخصاً بشكل مستمر منذ مجيء عبد الحميد شومان* "شامبيون الألعاب". وكانت الرسائل المتبادلة تعطي صورة عن المعتقلين "إن مدة اعتقال ما يقرب من خمسين شخصاً ستنتهي. ... ولا أعلم إذا كانت السلطة ستجدد لهم مدة

---

٦١ عايدة النجار مصدر سابق ص ٢٦٥.

٦٢ المصدر السابق. عن عبد الهادي، عوني، مذكرات عوني عبد الهادي، تقديم وتعليق خيرية قاسمية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٢. صو ١٧٥

* عبد الحميد شومان (١٨٨٨-١٩٧٤) ولد في بلدة بيت حنينا القريبة من القدس، عصامي ووطني، هاجر إلى الولايات المتحدة ١٩١١ وعمل بائعاً متجولاً عاد لفلسطين عام ١٩٢٩، وأسس البنك العربي في القدس، وتولى وشغل منصب رئيس مجلس إدارة البنك لاكثر من ٣٠ عاما ليصبح هذا المعلم الاقتصادي من أقوى البنوك العالمية. واشترك في ثورة ١٩٣٦ والنشاطات ضد الاستعمار الإنجلوصهيوني، سجن أكثر من مرة وعذب لمواقفه الصلبة الوطنية مع رفاقه في معتقل عوجا الخفير.

الاعتقال..."[٦٣] وبمثل هذه الاتصالات مع المعتقلين، حفظت الذاكرة صوراً لهن، إذ شهد على إعمالهن المشرّفة بهجت أبو غربية في كتابه "في خضم النضال العربي الفلسطيني"، وكان شاهد عيان كصحفي على شجاعة أهالي الشهداء، وخاصة النساء عندما كان الأهالي يحضرون لاستلام جثث الشهداء ويصف المشهد:"... ويلبسون ألبسة بيضاء، والنساء خضبن أيديهن بالحناء وكأنهن في يوم عرس، وتتعالى الزغاريد".

ضم الوفد النسائي الفلسطيني ٢٧ سيدة يمثلن مدن وقرى فلسطين، ويلاحظ أن الوفد يضُم في أكثره زوجات وقريبات النخبة من السياسيين والصحافيين والزعماء وهن السيدات: طرب عبد الهادي، حرم عوني عبد الهادي، رفقة الشهابي التاجي، وحيدة الخالدي، حرم حسين الخالدي، كاترين، حرم شكري ديب، متيل مغنم، حرم مغنم مغنم، ساذج نصار حرم نجيب نصار، سعاد الحسيني، حرم فهمي الحسيني، ملك الشوا حرم حمدي حلاوة، كيتي، حرم جورج انطونيوس، لميا، حرم جورج صلاح، ميسرة حرم حسن البديري، حرم الحاج بكر النشاشيبي، فاطمة حرم شكري المهتدي، عائشة، حرم حسن صدقي الدجاني، صبحية حرم راغب التميمي النابلسي ماري لويز أبو الشعر، ريا القاسم، سلمى رجائي الحسيني، سميحة الخالدي والآنسات زليخة الشهابي، شاهندة دزدار، ميمنة عز الدين القسام، فاطمة النشاشيبي زهية النشاشيبي، مريم هاشم، بدرة كنعان، ونبيهة ناصر.

لاقى الوفد الفلسطيني من هدى شعراوي والوفود المشاركة كل تقدير واحترام، بالإضافة لدعم الصحافة المصرية، ومن قبل عائشةِ عبد الرحمن "بنت الشاطئ" التي كانت صحافية مرموقة ومراسلة لجريدة الأهرام. وقد تمكنت صحافيات متحمّسات لقضية المرأة من تغطية أخبار المؤتمر بشكل مكثّف ودقيق، من بينهن نفيسة العفيفي مندوبة "**البلاغ**" ومنيرة ثابت صاحبة جريدة "**الأمل العربية**" من مصر "**والاسوار**" الفرنسية. وغطت الصحافة افتتاح المؤتمر الذي حضره تحت رئاسة هدى شعراوي شخصيات سياسية وصحافية من مصر وسوريا ولبنان والعراق، وكان بين الحضور فارس الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية وعددا من الرجال المتحمسين لنهضة المرأة. وكان افتتاح المؤتمر قد وحّد المشاعر عندما أنشدت تلميذات مدرسة الاتحاد النسائي المصري أنشودة أعدت خصيصاً للمؤتمر، لحّنها محمد القصبجي وتقول كلمات مؤلفها محمود أبو الوفا:

---

٦٣ للمزيد انظر، عايدة النجار، مصدر سابق، (الفصل السادس).
ضم المعتقل وطنيين من جميع أنحاء فلسطين لمشاركتهم في الثورة والإضراب ورفض السياسة البريطانية التي تقوم بتنفيذ وعد بلفور ومن المعتقلين: طاهر حنون، محمد عمر عودة، راشد الجيوسي، عبد الرؤوف عبد الرازق، صبحي الخضراء، جميل وهبة، يحيى حمودة، ممدوح السخن، قدري طوقان، احمد جبريل النجار، ميشيل متري، هاشم السبع، سامي السراج، الشيخ عبد الباري بركات، إبراهيم الشنطي، الشيخ صبري عابدين.

يا فلسطين اسلمي، نلت السلامة	اسلمي يسلم لنا شعب الكرامة
شعبك الصادق في عزته	أصبح الآن مثالا للشهامة

وفيها:-

يا بنات الشرق هذا يومكن	في فلسطين صبايا مثلكن
قتلت أو شردت رجالهن	تركوا الأطفال في أحضانهن
لم يجدن الآن من يرحمهن	ويعيد النور في بسماتهن

يا إلهي يا إلهي كن لهن

وجمع في المؤتمرمبلغ ٥٦١٤٨ جنيها مصريا لمساعدة الضحايا في فلسطين الذين يقاومون البريطانيين والصهيونية، وكان صافي إيرادات حفلة أم كلثوم التي تبرعت بإحيائها لهذا الغرض مبلغ ٧٣٠،١٠٣ جنيها. وسعدت نساء فلسطين والمشاركات في المؤتمر بالنجاح الكبير للمؤتمر التاريخي الذي اتخذ ١٦ قراراً تتعلق بالقضية الفلسطينية من بين ٢٢ قراراً وجاء في المادة الخامسة الذي نشرته جريدة الأهرام بتاريخ ١٩اكتوبر١٩٣٨: "يؤيد المؤتمر النسائي مطالب العرب في فلسطين وهي إلغاء الانتداب على فلسطين، على أن تحلّ محله معاهدة تعقد بين سكان فلسطين والحكومة البريطانية على مثال معاهدتي العراق ومصر، وتنشأ بموجبها في فلسطين دولة دستورية ذات سيادة، واعتبار وعد بلفور باطلاً من أساسه ولا قيمة له. كما طالبت المادة بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين وقفاً تاماً وفوراً ومنع انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود والأجانب. ورفضت النساء في مؤتمرهن وقراراتهن مشروع تقسيم فلسطين مما يدل على ما وصلت إليه المرأة من وعي ونهضة فكرية وسياسية [٦٤].

كان نجاح النساء العربيات أيضا عندما اتخذن قرارات على المستوىالإقليمي العربي، وخاصة القرار الذي نصّ "على تأسيس الاتحادات النسائية للدفاع عن القضية الفلسطينية من خلال خطة مشتركة وموحدة تنبثق عن هذه الاتحادات". وقد أثمرت هذه القرارات في فلسطين منذ عام ١٩٣٨، حيث بدأ تنفيذها في القدس عندما قامت زليخة الشهابي بإنشاء الاتحاد النسائي في القدس وليستمر بالعمل في المجالات النسائية الثقافية والاجتماعية والسياسية حتى عام النكبة. وكذلك الاتحاد النسائي في نابلس، وقد تأسس برئاسة السيدة

---

٦٤ للمزيد، انظر: آمال كامل بيومي السبكي، الحركة النسائية في مصر بين الثورتين ١٩١٩-١٩٥٢، الهيئات المصرية العامة للكتاب القاهرة١٩٦٨.
- أيضا، يوميات اكرم زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية(١٩٣٥-١٩٣٩) بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، إعداد: بيان نويهض الحوت.

عندليب العمد ١٩٤٥ والاتحاد النسائي في عكا ١٩٤٨ برئاسة زكية الكرمي ثم أسمى طوبي وغيرها من الاتحادات التي ظلت تعمل حتى عام النكبة، ثم توقفت لتعود في الخمسينيات. كما تأسست جمعيات الهلال الأحمر، منذ سنين الثورة الفلسطينية في الثلاثينيات وأسست فروعاً لها في المدن، لتعمل النساء فيها على تقديم خدمات الإسعاف للجرحى.

بعد إحباط الثورة

وفي الأربعينيات تأثرت نشاطات المرأة الفلسطينية كنشاطات الرجال السياسية والاجتماعية والاقتصادية أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، وعاشت فلسطين والحركة الوطنية منذ إحباط الثورة وهبوب رياح الحرب ١٩٣٩ مرحلة ركود وهزيمة سياسية، فقد غاب عن الساحة المناضلون والمجاهدون الذين كانوا موضع ثقة الشعب، إما خارج البلاد نفياً أو في السجون والمعتقلات. وبالمقابل نشطت الحركة الصهيونية المتحالفة مع بريطانيا بتدريب اليهود على حمل السلاح، مما ساهم في زيادة عدد المنظمات الإرهابية السرّية والعلنية، وكان بينهم نساء يهوديات كثر حملن السلاح وقمن بأعمال إرهابية. وزادت نسبة المهاجرين اليهود من ذوي السعة الاقتصادية لفلسطين إلى ١٦٪ عام ١٩٣٩ سببت مزيداً من تردي الحالة الاقتصادية للفلاحين، وازدياد البطالة بين الأيدي العاملة الفلسطينية. وقامت الجمعيات النسائية الخيرية بنشاطات لمساعدة المحتاجين. ولجأ المثقفون والسياسيون والصحافيون إلى محاولة العودة لإحياء الروح القومية والوطنية بانتقاد السلطة. إلا أن هذه المحاولات جاءت باهتة وليس كما بدأت في العشرينيات ونجحت في إيقاد ثورة الثلاثينيات. وجاء في جريدة فلسطين ١٥ أكتوبر ١٩٤٤ : "تذكر أيها العربي أنه من المخجل أن إعادة بناء جبهة وطنية يحتاج إلى أعجوبة". وفشلت الجهود مع عودة صراع السياسيين على الزعامة من جديد مع تخبط سياسي وطني وإقليمي ودولي في الأمم المتحدة وحتى عام النكبة. وفشل العرب في حربهم الارتجالية مع إسرائيل، وقبل أن تبدأ بتاريخ ١٥ مايو ١٩٤٨.

ورغم الإحباطات الواضحة في الأربعينيات، ظلت النساء مستعدات للعمل الوطني والثقافي والاجتماعي، وعادت النساء لتنشط في الجمعيات الخيرية والاتحادات النسائية، وتعمل على رفع مستوى المرأة الاجتماعي والثقافي وساهمت مثل مكافحة الأمية في القرى، كما مساعدة عائلات الأسرى في السجون والمعتقلات. وعلى المستوى الثقافي والتعليمي، فقد نشطت النساء في الوصول للمرأة عن طريق المدارس والصحافة والبرامج الإذاعية. وبثت الرسائل الثقافية التي تعالج موضوعات تربوية مختلفة، قامت بها أديبات وكاتبات ومربيات، منهن أسمى طوبي، وفاطمة البديري، ماري شحادة وقدسية خورشيد، وسلوى خماش، وسميحة سمارة، ومفيدة الدباغ التي قدمت زاوية المرأة في الإذاعة وربيحة الدجاني. فضلاً

عن ذلك، نشطت النساء في فتح الأندية الثقافية من خلال جمعياتها لتثقيف المرأة وتشجيعها على القراءة وأنشأت فيها مكتبة وقاعة للمحاضرات. وتمّت هذه الخطوة الريادية بفضل لجان "جمعية السيدات العربيات" في القدس ويافا وتعلمت البنات الطباعة والاختزال والمحاسبة. وحرص النادي الثقافي الرياضي في القدس لتعليم البنات صنع الأزهار، وكان النادي فخوراً بذلك، لأن الفتيات قدمن خبرتهن في هذا المجال للمعرض الصناعي الزراعي الذي أقيم في القاهرة ١٩٤٧.

وساهمت المتعلمات من قرى القدس بالعمل العام في مجتمعهن وبمشاركة من الفتيات لتحفيزهن على التعليم والعمل العام وكما فعلت الرائدة عريفة النجار من قرية لفتا التي ساهمت في تأسيس مدرسة البنات مع رجال القرية عام ١٩٤٦ قبل أن تصبح حكومية. وكانت تزور بيوت القرية والاجتماع مع الأهالي لتشجيع تعليم البنات .وبدأت المدرسة في أحد البيوت وكان الدوام صباحاً وأحياناً بعد الظهر في مدرسة الأولاد. وكانت نسبة التعليم زمن الانتداب منخفضة في الريف ففي عام ١٩٣٥، لم تكن في فلسطين أكثر من ١٥ مدرسة للبنات فقط و٢٦٩ للأولاد، ووصلت ١٥ فتاة قروية فقط إلى الصف السابع الابتدائي، ولم تكن هناك أي مدرسة ثانوية في القرى[٦٥].واصطحبت عريفة النجار طالبات المدرسة لتقديم تمثيلية عمر بن الخطاب، وإلقاء القصائد الوطنية، في برنامج الأطفال في دار الإذاعة الذي كانت تقدمه سلوى خماش. وألقت الطالبة مريم عبد الرحمن علي الحاج خليل، وهو من مجاهدي قرية لفتا، القصيدة العصماء ومطلعها:

العُرب هم قومي وهم أصلي وهم نسبي إذا أنسب

وأتذكر أنني شاركت أكثر من مرة في برنامج الأطفال، وكنت أدرس في مدرسة المأمونية وليس في مدرسة القرية، وقد شاركت في تمثيلية "عمر بن الخطاب".

وكان للنساء المتعلمات في القرى وإن كن قلة دوراً ريادياً في دفع البنات للتعليم، وكذلك إرشاد النساء وتثقيفهن، رغم تهميش المرأة القروية والفلاحة العاملة في الحقل وعدم تنظيمها في الجمعيات كما نساء النخبة في المدينة، مما خلق تحيّزاً واضحاً بين نساء المجتمعين في كثير من القرى البعيدة عن المدينة وقد نادت الرائدات بمعالجة هذه المشكلة.وساهمت المعلمات اللواتي درّسن في القرى للتواصل مع النساء مثل سميحة سمارة مديرة مدرسة البنات

٦٥ للمزيد عن التعليم انظر: نبيل أيوب بدران- التعليم والتحديث في المجتمع العربي، الجزء الاول، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٦٩. مصدر سابق.



بالنار والحديد قمعوا الشعب الفلسطيني

في بيت صفافا والمعلمة علياء يونس الحسيني من القدس، وكن يعقدن دورات لمحو الأمية بين النساء بعد الدوام المدرسي. والتحقت بنات المدرسة بثانوية بيت لحم عام ١٩٥٠، وعملن في التعليم، وكانت حليمة عبد الرحمن، أول فتاة في قرية بيت صفافا تتخرج بشهادة جامعية من أمريكا.

مؤتمر الأربعينيات وخيبة الأمل

ورغم الركود السياسي في الأربعينيات، فقد دعت الاتحادات النسائية إلى عقد "المؤتمر العربي النسائي في القاهرة" بتاريخ ١٢ ديسمبر عام ١٩٤٤ برئاسة هدى شعراوي مرة أخرى. وربما اعتقدن أنه بتكرار عقد مؤتمر للنساء في القاهرة يمكنهن تنشيط العمل الوطني، وفي ذاكرتهن المؤتمر النسائي الشرقي ١٩٣٨ الناجح الذي عزّز دور المرأة العربية بشكل عام والفلسطينية بشكل خاص. وشاركت بنات القدس من الناشطات في مؤتمر القاهرة، برئاسة زليخة الشهابي، التي انتخبت نائبة لرئاسة المؤتمر، وحرم جميل الحسيني مستشارة، وساذج نصار سكرتيرة المؤتمر، كما ألقت كلمة وفد فلسطين. لم تكن القرارات المتعلقة بالقضية الفلسطينية بالكثافة التي اتخذت في مؤتمر ١٩٣٨ خاصة، وقد وضعت على الأجندة قضايا اجتماعية تتعلق "بحقوق المرأة والمساواة" وهي موضوعات تطّورت بتطور انخراط المرأة في العمل العام. وأصبحت هذه القضايا تناقش اليوم تحت موضوع "الجندر" منذ عام ١٩٧٥، حيث عُقد في المكسيك أول مؤتمر عالمي للمرأة من قبل الأمم المتحدة.ومع الأسف ظهرت خلافات وتصدعات بين النساء، في مؤتمر القاهرة خاصة بعد أن أنشئت "الاتحادات" وفروع "جمعية النساء العربيات" في المدن المختلفة في الأربعينيات وقد أصبحت الأهداف مختلفة، وظهرت تنافس بين النساء على تروس الجمعيات.واتخذ المؤتمر قرارات تتعلق بالقضية الفلسطينية، لم تكن مرضية ومشابهة للسابقة. بالإضافة إلى ذلك فقد ناقشت نساء القدس المشاركات قضايا اجتماعية واقتصادية وسياسية، وطلبن من الدول الأوروبية مقاطعة الحركة الصهيونية والتوقف عن التعاطف معها. ومن ناحية أخرى لم تقبل عنبرة الخالدي دعوة جمعية نساء الولايات المتحدة الأمريكية في نيويورك ١٩٤٧ لتمثيل نساء فلسطين في المؤتمر العالمي، بسبب سياسة أمريكا ورئيسها هاري ترومان ودعمه للصهيونية[٦٦].

وقبل نهاية الانتداب بشهر وثلاثة أيام دخلت الجيوش العربية بتاريخ ١٥ أيار ١٩٤٨ في حرب فاشلة مع العدو الصهيوني، وكانت النساء والأطفال من أول ضحايا عصابتي شترن وأرغون الذين قاموا بمذبحة دير ياسين في ٩ نيسان، راح ضحيتها ٢٤٥، بينهم ٣٥ امرأة من الحوامل و ٦٠ امرأة وطفلاً وسقطت شهيدات في تلك السنة منهن: جوليت زكا في حيفا،

---

٦٦ الموسوعة الفلسطينية، مصدر سابق، ج ٢ ، ص٣٧٩.

وحلوة زيدان وحياة البلبيسي في دير ياسين، ومريم أحمد عميرة، وعليا علي جار الله، والحاجة حلوة مبارك، وحلوة السالم التي استشهدت في المالحة، وغيرهن من نساء القرى اللواتي كن يعملن مع الثوار والمناضلين، وإن كان العمل محصوراً في تزويد المناضلين بالماء والطعام، وغسل الملابس، والتموين، وإيواء المناضلين وتهريب السلاح. لم تتوان المرأة الفلسطينية حتى عام النكبة، من القيام بدورها النهضوي والنضالي، ولم تتراجع عن مواقفها الوطنية، بالإضافة لدورها التقليدي وهي تقوم بتربية بنات وأولاد الجيل الجديد الذي سيقوم بمواصلة العمل الوطني، في مرحلة ما بعد النكبة.

كانت العصابات الصهيونية شتيرن والأرغون، قد قامتا بمعركة دير ياسين، مما أدى إلى سقوط بعض المدن الفلسطينية. وظل صوت مكبر الصوت الذي أخافنا يردد التهديد بالعربية "اشفقوا على نسائكم وأطفالكم من حمام الدم هذا" واذكر كيف بكيت مع شقيقتي ناهدة بصوت عال من الخوف ونحن نتراكض للرحيل القسريّ. ولم نعد بعد أن تغوّلت اسرائيل، التي تلتزم بأيه قوانين دولية. فقدت قامت باغتيال الدولي ١٩٤٨ لأنه حاول التسوية السلمية، وقد اقترح عدم ضم بعض الاراضي الفلسطينية الى الدولة اليهودية المقترحة في قرار التقسيم الذي صدر عن الأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧، كما اقترح وضع حد للهجرة اليهودية، وكان جزاؤه الموت والتخلّص منه، مما أثار اشمزاز العالم.

وفي ١٤ مايو كانت جماعة الأرغون اليهودية بقيادة مناحيم بيجن قد قامت بتفجيرات في مراكز الجيش البريطاني. وفي يوليو ١٩٤٦ قامت بتفجير فندق الملك داوود، أسفر هذا العمل الإرهابي عن مقتل ٩١ شخصا وجرح ٤٥ آخرين، مما دفع السلطات البريطانية لملاحقة المنظمات. وأذكر هذه الحادثة، فقد كنت مع العائلة وأنا طفلة في ضيافة المحامي محمود الماضي في قرية إجزم / حيفا، وهو والد سلوى الماضي زوجه أخي عارف النجار، ولم أنس ذلك لأننا قطعنا رحلتنا الجميلة في أحضان المزرعة لنعود للقدس، وليستمر عمل اليهود في تهجير الفلسطينين لإقامة دولتهم غير المستقرة لليوم.

وفي ١٤ مايو ١٩٤٨ أعلن الصهاينة قيام دولة إسرائيل، وانتشر الرعب في القرى المجاورة لدير ياسين، ومنها لفتا قريتنا بعد أن انطلق صوت الصهاينة من مكبرات الصوت الذي تجوّل في القرى وهو يقول بالعربي "اشفقوا على نسائكم وأطفالكم واخرجوا من حمام الدم هذا".





خاتمة

نكبة وشتات

كانت النكبة عام 1948، سببا لانتقال الفلسطينيين الى مرحلة جديدة بعد تشريد حوالي 750ألف فلسطيني، لتحدث تحولات اجتماعية وسياسية وثقافية. فقد أثرت على وضع المرأة ودورها في المجتمع، إذ أصبحت كثير من النساء ربّات أسر ومعيلات للعائلة يتحملن المسؤولية في غياب الرجل. خرجت المرأة للعمل في كثير من المجالات متحدية التقاليد القديمة، خاصة وقد اضطر كثير من الرجال للسفر إلى الخارج للعمل وتوفير الرزق للعائلة اللاجئة. ونشطت الفئات النسوية التي كانت تعمل قبل النكبة في الجمعيات والاتحادات الخيرية والتطوعية في أنحاء فلسطين. وبرزت في سنة الهجرة هند الحسيني التي أوت الأطفال الأيتام بعد مذبحة دير ياسين وليصبح مشروعها الخيري من أبرز المشاريع الإنسانية لرعاية وتعليم البنات في القدس حتى يومنا هذا.

ونشطت النساء بعد النكبة في الخدمات الصحية ومكافحة الأميّة وتعليم البنات الخياطة ليكتسبن مهنة تعود عليهن بالفائدة من أجل المساهمة في معيشة العائلة. وعقدت ورشات عمل لتدريب بنات المدارس الإسعافات الأولية وأقبلت النساء المتعلمات بالعمل الإنساني والتعليم في مدارس الأنروا، في المخيمات والريف من أجل تخفيف معاناة اللاجئين في حياتهم الجديدة البائسة في أماكن اللجوء التي توزع فيها الفلسطينيون، وأظهرت المرأة الفلسطينية المثقفة نضجا في هذه المرحلة. بالإضافة إلى ذلك فقد اندفعت البنت الفلسطينية للتعليم العالي والالتحاق بالجامعات من أجل حياة أفضل. ولوحظ إقبال البنات على دراسة العلوم والطب والهندسة والعلوم الإنسانية بجميع فروعها. ولم تنحصر في الطبقة العليا فحسب، بل أيضا بين الطبقة المتوسطة وفي القرى والمخيمات حتى أصبحت نسبة الدراسات العليا بين الفلسطينيات تفوق بنات بعض الدول المتقدمة.

بالإضافة إلىذلك فإن وعي المرأة وتفهّم الناس لأهمية التعليم للخروج من الوضع الاقتصادي السيئ قد دفع الفلسطينيات إلى المزيد من الحرية والاستقلالية. وقد أقبلت البنات إلى العمل النضالي الوطني وانخرطت الكثيرات في العمل السياسي من أجل تحرير الوطن. وشاركت النساء في الأحزاب السياسية والعمل الجماعي الوطني والفدائي والالتحاق بالثورة الفلسطينية في الستينيات .وكانت هناك مرحلة جديدة لمعاناة الفلسطينيين عندما وقعت كارثة نكسة 1967، التي ضاعفت القهر الفلسطيني، عندما أكملت إسرائيل احتلال ما تبقى من الأراضي الفلسطينية. ولم تضعف هذه الهزة الجديدة صلابة المرأة ووعيها وأقدمت على العمل والاعتناء بأطفال الشهداء وعائلاتهم وبشتى أنواع الأعمال التقليدية وغير التقليدية. وحملت المرأة القلم لتكتب بالصحافة وتكتب كتباً وأدباً وتاريخاً عن فلسطين ولتصل صورة النكبة للعالم، بالإضافة لنضالها المستمر والمشاركة الحقيقية بالنضال ضد الاحتلال الإسرائيلي بشتى الوسائل.

أفرزت المأساة في جميع مراحلها مشاركة المرأة والرجل في العلم والعمل، على جميع الصعد لتصبح جميع نساء فلسطين "البنت الشلبية" تحت الاحتلال أو في الشتات أينما وجدت، ولتشارك أيضا في النضال ضد الاحتلال الإسرائيلي المستمر حتى يومنا هذا. ولعل سجون الاحتلال المليئة بالأسيرات والأسرى كما القبور الغاصة بالشهيدات والشهداء الفلسطينيين، لهو أكبر دليل على إصرار "البنت الشلبية" الفلسطينية على المشاركة بالعمل الوطني والاجتماعي والتنموي لإقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس الشريف.



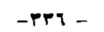
مؤتمر لناشطات في العمل الاجتماعي بعد النكبة بينهن وديعة خرطبيل، عندليب العمد وفايزة عبدالمجيد وعصام عبدالهادي ومليحة ابوخضرا



ناشطات في العمل الاجتماعي في القدس تتوسطهن زليخة الشهابي



بنات نابلس يتدربن على الاسعافات في سنة ١٩٤٨ تبدو زينب عبد اللطيف اقصى اليسار والتي ستصبح طبيبة أسنان (X)



المراجع



أولا: الكتب

- البواب علي حسن، المدارس الحديثة في القدس الإسلامية في العهد العثماني، تحرير محمد هاشم غوشة، 2009.
- الجنيدي، محمود جميل، نباتات فلسطين البرية، عمان 1994.
- الجوزي، نصري، تاريخ الإذاعة الفلسطينية، هنا القدس، (1948–1936)، الطبعة الأولى، دمشق، 2010.
- الجوهرية، المذكرات، (1948–1918) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، تحرير وتقديم عصام نصار وسليم تماري، 2005.
- الخالدي، سلام، عنبرة (جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين(1948–1917)، بيروت، دار النهار للنشر، 1987.
- السعدي غازي، الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، عمان، دار الجليل، 1986.
- السكاكيني خليل، كذا أنا يا دنيا، القدس، المطبعة التجارية، 1955.
- السكاكيني خليل، يوميا، دراسات رسائل، بين الأب والابن. رسائل خليل السكاكيني إلى سري في أمريكا، 1937–1935، تحرير أكرم مسلم، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، القدس، 2006
- العارف، عارف، الفصل في تاريخ القدس، الجزء الأول منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2009.
- العسلي كامل، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، عمان، 1992.
- العسلي، كامل، الأعمال المقدسية الكاملة، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2009.
- الكرمي عبد الكريم (أبو سلمى)، ديوان أبو سلمى، دار العودة، 1989.
- المرعشلي، أحمد، الموسوعة الفلسطينية، تحرير هيئة الموسوعة الفلسطينية، الطبعة الأولى، 1984.
- المزين عبد الرحمن، موسوعة التراث الفلسطيني، الأزياء الشعبية الفلسطينية 1981.
- النجار، تغريد، أهازيج الطفولة المبكرة (جمع وإعداد) السلوى للدراسات والنشر، عمان 2010.

- النجار، عايدة، بنات عمان أيام زمان (ذاكرة المدرسة والطريق)، السلوى للدراسات والنشر، عمان، 2007.
- النجار، عايدة، صحافة فلسطين والحركة الوطنية في نصف قرن، (1948–1900) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005.
- النعيمات سلامة، الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن عشر الميلادي، ورقة عمل لمؤتمر القدس الدولي، عمان، 8/10/2009.
- اليشرطي، فاطمة، (رحلة إلى الحق) و(سيرتي في طريق الحق)، إشراف وتصدير الشيخ أحمد اليشرطي، عمان، 1997.
- أبو عمر، عبد السميع، التراث الشعبي الفلسطيني، تطريز وحُلّي، القدس، 1987
- باسل سليمان، محمد، الحوار المتمدن، العدد (2195)، 18/2/2008، بيت الصعاليك بيت المثقفين الفلسطينيين.
- بدران نبيل، وأيوب نبيل، التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني، الجزء الأول، منشورات مركز الأبحاث، 1969.
- تماري سليم، يوميات جندي مقدسي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، القدس، 2008.
- جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولى، فصول من سيرة ذاتية، الطبعة الثانية، 2001.
- جوهرية، يسرى، الفنون الشعبية في فلسطين، الطبعة الثانية، عمان، 1988.
- دليل التجارة والصناعة، 1938–1937، مطبعة القدس.
- زعيتر، أكرم، يوميات أكرم زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية (1939–1935)، إعداد بيان نويهض الحوت، بيروت.
- سرحان، نمر، الحكاية الشعبية الفلسطينية، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت، 1974.
- سرحان، نمر، إحياء التراث الشعبي، عمان، دار فيلادلفيا، 1999.
- سرحان، نمر، موسوعة الفلكلور الفلسطيني، عمان، دار الثقافة، 1989.
- شموط إسماعيل، الفن التشكيلي في فلسطين، الكويت، 1989.
- صالحية، محمد عيسى، مدينة القدس، السكان والأرض (العرب واليهود) 1948–1858.

- صيام، زكريا، القدس مدينتي، لفتا قريتي عمان، 1969.
- طوبى، أسمى، عبير ومجد، 1966.
- طوقان، فدوى، "رحلة جبلية-رحلة صعبة" 1985.
- عبد الرازق، عدنان، توفيق، الازدهار المعماري العربي في غربي القدس المحتلة، جمعية الدراسات العربية القدس الشريف، 2009.
- عبد الهادي، عوني، مذكرات عوني عبد الهادي، تقديم وتعليق خيرية قاسمية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2002.
- عبد الهادي، فيحاء، أدوار المرأة الفلسطينية، ثلاثة أجزاء في الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات، البيرة مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتوثيق 2010.
- عثمان، إبراهيم عيسى، الحياة الاجتماعية في قرية بيت صفافا، الشروق، عمان، 2005.
- عطية عبدالله عطية، عين كارم الحقيقة والحلم، عمان، 1992. ويتضمن ما جاء في بعض عناوين "شاعر الثورة نوح" الموجهة إلى المندوب السامي، السير واكهوب، "مشروع تقسيم فلسطين، وقد لحنت هذه الأبيات الشعبية على أسطوانات انتشرت بشكل واسع، ومنها "قولوا تعيش فلسطين وشهامة المجاهدين. وكتب نوح عن مقابلته مع الجنرال (دل) بمقر القيادة بعد خروجه من السجن في عكا، وقدم له نسخة من الأسطوانة".
- علوش، ناجي، المقاومة العربية في فلسطين (1948-1917)، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1975.
- غوشة، محمد هاشم، القدس في العهد العثماني، من أوراق المؤتمر الدولي حول القدس، عمان 4-8/10/2009.
- قعوار، وداد وناصر تانيا وآخرون، غرزة الفلاحي، التقليدية .
- كريم، سميحة، مي زيادة، كاتبة العربية في القرن العشرين، الدار المصرية اللبنانية، 1999.
- كنعان توفيق، في سعيد مضنية، رواد التنوير في فلسطين، الانتشار العربي، بيروت، 2008.
- كنعانة، شريف ولبنى عبدالهادي، (لفتا) "رقم 12" القرى الفلسطينية المدمرة، جامعة بير زيت 1991.
- مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، 2009.

- مضنية سعيد، رواد التنوير في فلسطين، الانتشار العربي، بيروت، 2008.

- ياغي، عبد الرحمن، حياة الأدب الفلسطيني الحديث، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1968.

Mughannam. Matiel, The Arab Woman and the Palestinian problem. مغنم ماتيل London: Herbert Joseph 1937.

Najjar, Orayb, Aref, Kitty Warnock, Portaits of Palestinian Women, Salt Lake University of Utah

El Khalidi, Leila, The Art Of Palestinian Embroidery, Saqi Books Press.

ثانيا: الصحافة الفلسطينية الصادرة قبل النكبة

اسم الجريدة	مكان الصدور	السنة
الجامعة العربية	القدس	1927–1935
الصراط المستقيم	يافا	1930–1933
الدفاع	يافا	1934–1948
صوت الشعب	بيت لحم	19291–1930
فلسطين	يافا/القدس	1911–1948
الكرمل	يافا	1925–1939
الجامعة الإسلامية	يافا	1932–1934
مرآة الشرق	القدس	1920–1923
النفائس العصرية	القدس	1911–1922
الشعب	القدس	1947–1949

ثالثا

- عدد من المقابلات من النساء والرجال، عاشوا في تلك الفترة الزمنية في القدس، ويتذكرون صورا من الماضي.

- وثائق وأوراق خاصة.

- صور فوتوغرافية خاصة غير منشورة .

فهرس الاسماء



(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(هـ)

(و)

(ي)





قرية لفتا حديثا بعد أن عاث الاحتلال الاسرائيلي فسادا بها (موقع لفتا الالكتروني)



ما تبقى من مسجد لفتا



الكاتبة عايدة النجار تعتز بالتراث

عن الكاتبة

الدكتورة عايدة النجار:

- باحثة وكاتبة في القضايا السياسية والاجتماعية والاعلامية
- ولدت في قرية لفتا- قضاء القدس

التعليم الابتدائي والثانوي:

- تلقت جزء من تعليمها الابتدائي في مدرسة المأمونية في القدس قبل نكبة ١٩٤٨ ، وأتمت الابتدائية في مدرسة أروى بنت الحارث ، في عمان، الاردن. تخرجت من مدرسة زين الشرف الثانوية في عمان .

التعليم الجامعي:

- درجة الدكتوراة (D Ph.) جامعة سيراكيوز، نيويورك، الولايات المتحدة الامريكية في "وسائل الاتصال الجماهيري" (Mass communication) و "السياسة". ١٩٧٥
- الماجستير(Ms.c) تخصص صحافة و "تنمية بشرية" (Human Dev). جامعة كانسس، الولايات المتحدة الامريكية.
- ليسانس(BA علم الاجتماع)، جامعة القاهرة، الجمهورية العربية المتحدة .

الخبرة العملية:

- عملت في برنامج الامم المتحدة للتنمية UNDP في نيويورك واليمن. كما على المستوى الدولي، كما عملت مع ال FAO في روما مسؤولة عن برنامج المرأة الريفية.
- عملت في أكثر البلدان العربية كخبيرة مستقلة Free Lancer مع مؤسسات الامم المتحدة المتخصصة في القضايا الاعلامية والاجتماعية وقضايا المرأة ومنها اليونسيف والاسكوا واليونسكو ومنظمات المجتمع المدني بالاضافة إلى مؤسسات الشؤون الاجتماعية والمشاريع المتعلقة بالتنمية المستدامة.
- عملت في الاردن في وزارة الخارجية الاردنية في عمان وباريس، كما عملت في وزارة الاعلام والشؤون الاجتماعية ووزارة الزراعة (قسم الارشاد الريفي) عضو هيئة تحرير مجلة " الارض الطيبة" الصادرة عن وزارة الزراعة والارشاد الريفي، ١٩٦٥.
- أعيرت لوكالة الانباء الكويتية (كونا) في مرحلة التأسيس ١٩٧٨. وأسست قسم الابحاث.
- شاركت في العديد من المؤتمرات المحلية والاقليمية والدولية وساهمت في أوراق وأبحاث ومنها مؤتمر المرأة العالمي للامم المتحدة في المكسيك ١٩٧٥ ومؤتمر كوبنهاجن ١٩٨٠ وفي والمؤتمرات الاقليمية للتحضير لمؤتمر بكين ١٩٩٥ وما بعد بكين .

منشورات مختارة:

- لها العديد من الابحاث والدراسات والمقالات نشرت في المجلات المتخصصة والصحف المحلية والعربية وأوراق عمل لمؤتمرات محلية وإقليمية ودولية. تكتب عمودا صحافيا في جريدة الدستور الاردنية وفي الصحافة العربية .
- " الاتصال والاعلام في القرن العشرين" ضمن مشروع حصاد العصر، المنجزات العلمية والانسانية في القرن العشرين الصادر عن مؤسسة عبد الحميد شومان والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، المشرف العام، فهمي جدعان. عمان، ٢٠٠٧ .
- "وسائل الاتصال والاعلام العربية وتحديات المستقبل" (المنتدى)، منتدى الفكر العربي، العدد ١٤٦ نوفمبر، ١٩٩٧،

عمان ، المجلد الثاني عشر .

- التحيز الاعلامي الامريكي والغربي في أزمة الخليج، ورقة مقدمة للمؤتمر النسائي الشعبي، صنعاء ١٤-٩-١٩٩٠.
- دراسة " مشروع الاعلام التنموي" الامانة العامة لمجلس التنمية، عمان، مسقط ١٩٩٣ .
- ورقة عمل مقدمة في المؤمر الوطني للتنمية السياسية والمرأة، عمان، الاردن ١٧-٧-٢٠٠٤، عنوانها "وسائل الاعلام والدور السياسي للمرأة".
- " قضايا وتحديات العمل التطوعي" ورقة (قدمت في ندوة العمل التطوعي)، عمان ٧ حزيران ، ٢٠٠١.
- " الاليات المؤسسية للنهوض بالمرأة العربية": مبادئ توجيهية . ورقة قدمت في الاجتماع الثاني لمتابعة مؤتمر بيجين ، بيروت ١٢-١٥ ديسمبر، (E/ESCWA/SD-WOM/1998-WG1/3، November 1998)
- " المرأة والسلام" بحث قدم في الاجتماع العربي الاقليمي التحضيري للمؤتمر العالمي الرابع للمرأة ببيجينغ ١٩٩٥ (السلام للنهوض بالمرأة العربية) عمان، الاردن ٦-٨ نوفمبر ١٩٩٤ (E/ESCWA-SD/WOM/1994/WG.1/5).
- " دورالمؤسسات الاعلامية في إستقطاب المرأة للعمل"، بحث أعد للمناقشة في ندوة القوى البشرية الثانية: عمان، ٧ إبريل ١٩٧٦ .
- مراجعة إستراتيجية وزارة التنمية الاجتماعية الأردنية الأولى ١٩٩٧.
- اعداد التقرير الوطني للمرأة الفلسطينية المقدم للأمم المتحدة نيسان، ١٩٩٩، رام الله، .

الكتب:

- صحافة فلسطين والحركة الوطنية في نصف قرن (١٩٠٠-١٩٤٨)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٥حاز الكتاب على أفضل كتاب عربي في مسابقة (الايام) الصحافية ، البحرين المصاحبة لمهرجان الأيام الثقافي الثالث عشر ، ٢٠٠٦ .

  حاز الكتاب على جائزة جامعة فيلادلفيا (الاردن) لأحسن كتاب في العلوم الانسانية ، ٢٠٠٥ .

  كما حاز على شهادة تقدير من وزارة الثقافة الاردنية ، عمان .
- بنات عمان أيام زمان: "ذاكرة المدرسة والطريق"، دار السلوى للدراسات والنشر، عمان ، ٢٠٠٨ .
- ساهمت في تأريخ الصحافة الفلسطينية "الموسوعة الفلسطينية"، أحمد المرعشلي، ١٩٨٤، دمشق، الطبعة الاولى (المجلد الثالث)

النشاطات:

- ناشطة في االمجالات السياسية والثقافية والتنموية والاعلامية وقضايا المرأة .
- عضو رابطة الكتاب الاردنيين.
- عضو منتدى الفكر العرب.
- عضو منتدى القدس وغيرها من المؤسسات الثقافية والاجتماعية.
- عضو لجنة يوم القدس.
- عضو هيئة تحرير مجلة رابطة الكتاب الاردنيين "أوراق".



الكاتبة عايدة النجار ترافق ضيفة من البرلمان البريطاني ومسؤولين في مخيم للاجئين في الأردن بعد نكبة ١٩٦٧

JERUSALEM AND THE FAIR LADY



المؤلفة

للقدس مكانةٌ خاصةٌ في التاريخ، وعلى مرّ العصور، ولها منزلةٌ في الوجدان ليس لأهلها الفلسطينيين فحسب بل للكثيرين من أتباع الديانات السماوية في العالم الذين حجّوا إليها أو بقوا فيها، أو كتبوا عنها. وللقدس مكانةٌ خاصةٌ لمن ولد فيها من "المقادسة" أو زارها أو تعلّم في مدارسها أو تجوّل في شوارعها ورسم صوراً دائمة للمكان وناسه في الذاكرة.

ولهذه المدينة مشاعر قوية عميقة لديّ، لأنني وُلدت في أكنافها لفتا/القدس، وترعرعت في أحضانها في طفولتي، لعبت تحت أشجار التين والزيتون، زهر الرمان، والصبّار الذي يسيج حواكير ريفه، وضحكت بصوت عال وأنا "أطير" في القدس العتيقة على المراجيح القريبة من المسجد الأقصى بفستان العيد "الزهري"، وأنا آكل "الكعك بسمسم"، وحلاوة العيد القاسية البيضاء، وأتذوق "شعر البنات" كعكبانيّ اللون. القدس جزء من وجداني وهويتي التي تحمل عادات وتقاليد الوطن والأهل.

بالإضافة فالمدينة تحت الانتداب البريطاني كانت "عاصمة فلسطين" وهي الفترة الزمنية التي يتناولها الكتاب. وقد اخترتها لأنني عشت في القدس بعضاً من ذلك الزمن قبل أن نصبح لاجئين ١٩٤٨ ونرحل عن الدار والوطن، ونعيش في أمكنة أخرى حتى اليوم. في الكتاب أتجول في "المكان" القدس المدينة التي تتسع لتشمل أكناف القدس وأبعد في جغرافيتها الجميلة. واصطحب في جولتي هذه في المكان وبشكل خاص، المرأة الفلسطينية مع ناس المدينة. وقد أسميت نساء القدس وفلسطين "بالبنت الشلبية" أي الجميلة، وهي إحدى مفردات المقادسة التي يتميّزون باستعمال الكلمة ومعناها أكثر من غيرهم في المدن الأخرى، لتضفي خصوصية على "بنت القدس". وأما مفردة "البنت"، فتستعمل بالكتاب للتعبير عن "المرأة الفلسطينية" وبكل احترام، منذ أن كانت طفلة صغيرة إلى أن أصبحت امرأة ناضجة لها دور في الحياة المقدسية أو الفلسطينية، بشكل عام، وكجزء من "ناس المدينة" من رجال ونساء.

من المقدمة


ISBN 978-9957-04-036-9
9 789957 040369

